الدكتور عمر فرّوخ

عبقرية اللغة العربية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



تأليف

عمر فرّوخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي
عضو المجمع العلمي العراقي

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

فهرس الفصول

مُقدّمة

هذا الكتاب مجموع بحوث متّصلة كانت في الأصل بحوثاً متفرّقة أُلْقِيَتْ في مجمع اللغة العربية في القاهرة أو في اجتماعاتٍ مختلفةٍ أو نُشِرَ بعضُها في مجلّةٍ وبعضُها الآخرُ في الجرائد .

ولهذه البحوثِ المنشورةِ هنا سِلْكٌ واحدٌ يجمَعُها على نظامٍ مُعيّن : اللغةُ العربيةُ من اللفظةِ الواحدة إلى المدركِ العقلي في اللغة العربية نفسِها ثمّ إلى نَقْلِ المداركِ من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ثم مقدرةُ اللغةِ العربية على القِيام بجميع وجوهِ التعبير في جميع ميادين الحياة .

اللغة العربية أقدمُ اللغات التي ما زالت تتمتّع بخصائصها من ألفاظ وتراكيبَ وصرفٍ ونحوٍ وأدبٍ وخيال مَعَ الاستطاعة في التعبير عن مداركِ العلم المختلفة . لا شكّ في أن اللغةَ اليونانيّة واللغةَ العِبريّة واللغة السِنسكريتية واللغة اللاتينية قد بدأ تدوينُها كُلِّها قبلَ اللغة العربية بقرونٍ كثيرة . ولا يزالُ في الحياة إلى اليوم لغةٌ يونانية

ولغةٌ عِبريّة ولغة سِنسكريتية ، ولكنّ هذه اللغاتِ فَقَدَتْ كثيراً من ألفاظها ومن قواعد الصرف والنحو فيها إلى حدٍّ أصبحتْ عِندَه اليومَ غيرَ ما كانتْ عليه بالأمس . إنّ اليونانيَّ اليومَ لا يتكلّم لغةَ هُوميروس أو لغةَ أفلاطونَ وأرسطو . وإنّ اللغة اللاتينية ما زالتْ حَيّة في عدد من العِظات الدينية فقط ، ولم يَبْقَ لها صلةٌ بالحياة . ولكنّ اللغةَ العربية اليومَ لا تزال لغةَ القرآنِ الكريم ولغةَ الشعر الجاهليّ في صَرْفِها ونحوها وتشابيهها واستعاراتها . ولا ريبَ في أن عدداً من ألفاظ اللغة العربية قد أصبحَ غَريباً وخرجَ من الدَوَران على الألسُنِ وعلى الأقلام ، لأنّ المداركَ التي تُعبّرُ عنها تلك الألفاظُ قد خَرَجَ من نِطاق الحياة الاجتماعية . ومثلَ ذلك نرى في جميعِ لغاتِ العالم بين عَصْرٍ وعصر .

اللغة العربية (لغة مُضَرَ أو عربِ الشَمال في نَجْد) هي - عند التساهل الكبير - إحدى اللغاتِ الأعرابية التي يُقال لها خطأ : « اللغاتُ الساميّة »(١) . إنّها ، بهذا النظر ، أختُ اللغات البابليّة والكنعانية والآرامية وابنةُ عمٍّ اللغةِ الحبشيّة . وإذا نحن نَظَرنا في تمام القاموس العربيِ وفي كمال الصرف والنحو ، وَجَبَ أنْ نعُدّ اللغةَ العربية أمّاً لِلُغاتِ الأعرابية جَمْعاء ، إلّا أنْ يرى أهلُ الاختصاص في هذا الميدانِ رأياً آخرَ .

---

(١) كان علماء اللغة يزعمون أن لغات البشر مقسومة ثلاثة أقسام : سامية وحامية ويافثية ، نسبة إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث . هذا مدرك خاطىء فلا يجوز أن ينشأ ثلاثة إخوة في بيت واحد ثم يتكلمون ثلاث لغات . والصواب أن نسمي نحن اللغات العربية والحميرية والعبرية والآرامية والبابلية وأخواتها « اللغات الأعرابية » لأنها كلها نشأت في شبه جزيرة العرب .

وكلّ لغة تأخذُ من كلِّ لغةٍ أُخرى احتكّتْ بها .

إنّ القاموسَ العربيَّ الحاضرَ ليس قاموساً للألفاظ العربية على الحَصْر ، ولكنّه قاموسٌ لهذه الألفاظِ العربية على الحَصْر وللألفاظ التي انتقلتْ إلى اللغة العربية انتقالاً يسيراً هادئاً من تلك اللغات الأعرابية : من الحِمْيَريّة(١) والآرامية والعِبريّة - إذا شئتَ - ومن غيرها حينما ظلّ الاحتكاكُ قويّاً بين المتكلّمين بتلك اللغات . وإنّ جانباً كبيراً ممّا يقال له « لغاتُ العربِ أو غريبُ الألفاظ » يجب أن يَرْجِعَ إلى هذا الاحتكاك بين اللغة العربية وأخَواتِها في الأدوار المختلفة من تاريخنا اللغويّ . وعِندي أنَّ اجتماعَ مداركَ مختلفةٍ في الجذور الداخلة في القاموس العربيِّ اليومَ يجب أن يَرْجِعَ إلى هذا الروافد التي صبّتْ من الأنهارِ الأعرابية في النهر العربيّ . ومثلُ ذلكَ يجب أن تكونَ حال « الأضداد » (الكلمة الواحدة التي تجمع مَعْنَيَيْنِ كلُّ واحدٍ منها مُناقِضٍ للآخرِ ، مثل الجَوْن (بمعنى : الأبيض والأسود) وظنّ (بمعنى : تخيّل واعتقد) والجليل (بمعنى : العظيم والحقير) . ولم يُتَحْ لي بعدُ مُتّسعٌ من الوقت لأدْرُسَ هذه الألفاظ التي تجمع المدارك المختلفة أو المدارك المتناقضة معاً .

وكذلك أخذتِ اللغةُ العربية من اللغات غيرِ الأعرابية : من الفارسية واليونانية واللاتينية وتمثّلَتِ الكلماتِ المأخوذة منها إلى حدٍّ ضاع عنده التفريقُ بينَ اللفظ العربيّ واللفظ الأجنبي . إنّ لفظة

---

(١) اللغة الحميرية (بكسر الحاء وسكون الميم) لغة أهل اليمن قبل الإسلام . واللغة الحبشية أخت لها .

دِرْهم (من اليونانية أو من الفارسية) ودينار (من اللاتينية) وغيرَهما قد دخلتْ في نسيجِ اللغة العربية وتصرّفتْ تصرُّفَ اللفظ العربي الأصيل : دينار - دنانير - تدنّر - مدنّر الخ .

ثمّ إنّ اللغة العربية أعطتِ اللغاتِ الأجنبيةَ ألفاظاً وآداباً وعلوماً كثيرةً جدّاً . إنّ الكَلِماتِ العربيةِ في اللغاتِ الإسلامية : في الفارسيّةِ والتُّركية والأُرديّة والمالاووية والسنغالية يجبُ أن تكونَ أكثرَ من أن تُحصى . وكذلك نَجِدُ الكَلِماتِ العربيةَ في الإسبانية والبرتغالية ثمّ في الألمانية والإيطالية والإنكليزية والفرنسية ليست قليلة أيضاً .

والبحوث في هذا الكتاب من سَنَواتٍ مختلفةٍ متقاربةٍ أو متباعدة . إنّ أحدثَ بُحوثِ هذا الكتاب يرجع إلى عام ١٩٧٩ . أمّا أقدمُ البحوثِ فيه فمن عام ١٩٣١ . ولعلّ لهذا البحث القديم قيمةً خاصّة . في ذلك الحين ، في عام ١٩٣١ ، كنت أنا في الخامسةِ والعشرين من العمر ، وكنت أعلّم في المَرْحلة الابتدائية وفي المرحلة التكميلية ، لأنّ المرحلة الثانوية ، في مدارسِ المقاصدِ الخيرية الإسلامية ، لم تكنْ قد تمّتْ بعدُ . واتّفق ، في ذلك الحين أن كان المُستشرق عبد الرحمن نيكل[1] في بيروت فتداوَلْنا ألفاظَ الغزَل - وخصوصاً فيما يتعلّق بالكِنايات (وهي ألفاظٌ عامّةٌ تُطْلَقُ على المحبوب لسَتْرِ اسمهِ الحقيقيّ أو للتحبُّبِ إليه

(١) أ . ر . نيكل (ولد ١٨٨٥ وتوفي منذ بضع عشرة سنة) من بوهيمية (تشيكوسلوفاكية) ، اختار الجنسية الأميركية . كثير المعرفة باللغات يحسن استعمال عشرين منها على الأقل . اهتمامه الأول باللغات الرومانسية التي تشعبت من اللغة اللاتينية . من أنصار النظرية العربية في نشأة الآداب الأوروبية الحديثة .

والتذلّل له) . وكان من رأي المستشرق نيكل أن هذه الألفاظَ قدِ انتقلت من الأدب العربي إلى الشعر البروفنسالي (الفرنسي القديم) . فرغب إليّ في أنْ أمْضِيَ في البحث في هذهِ الألفاظ في الشعر العربي .

بدأتُ قراءةَ عددٍ من مصادرِ الشعر ومجامِيعه ثمّ نشرتُ سلسلةَ مقالاتٍ في جريدةِ « الأحرار »[1] ، في الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٣١ والأسابيع الأولى من عام ١٩٣٢ . ولا ريب في أنّ إعداد هذه المقالاتِ بدأ منذ مطلعِ العام ١٩٣١ أو منذ أواخرِ العام ١٩٣٠ ، لأنّ استعراض كتابِ الأغاني وجَمْهرَةَ أشعارِ العرب وحماسةَ أبي تمّام ومختاراتِ البارودي وغيرَها بالإضافة إلى عددٍ غيرِ قليل من دواوينِ الشعر لا يمكن أنْ يَتِمَّ في أيامٍ قليلة .

وكانت النتيجة ما توقّعه المستشرق نيكل : أنّ هذه الكنايات في الشعر العربي قدِ انتقلت بمعانيها وبملابساتها إلى الشعر البروفنسالي .

واتّفق أن كان المستشرق نيكل يُعِدّ ديوانَ ابنِ قُزمانَ الزّجالِ الأندلسي للطبع (بالحرف اللاتيني) فكتب في مقدّمة ذلك الديوان هذه الكلمة التالية[2] :

(١) الأحرار : جريدة يومية صدرت في بيروت عام ١٩٢٢ . بدأت أكتب فيها منذ عام ١٩٢٦ (وكنت لا أزال طالباً في جامعة بيروت الأميركية) . تقلب عليها مالكون كثيرون منهم جبران التويني وخليل كسيب وسعيد صباغة .

(٢) El Cancionero Aben Guzmàn, por A.R. NYKL, Madrid 1932, PP. XL VII - XL VIII.

Durante mi estancia en Beyrouth recomandé al joven poeta y profesor de literatura àrabe en la **Kulliyat** al - Maqâsid al - islâmiya, Omar Farûh, la investigacíon de estos varios problemas, cuyo resultado dio a luz en una serie de articulos insertos en el períodico **al-Ahrâr.** conocido ya en la época antiislàmica, el uso de los nombres fingidos ȟizose general en la poésia durante el périodo **abbasi** y es frecuentisimo en Abû Nuwâs.

وفيما يلي هذا المقطع باللغة العربية :

في أثناء إقامتي في بيروتَ اقترحتُ على الشاعرِ الشّابّ وأستاذ الأدب في كلّية المقاصد الإسلامية أن يبحثَ في هذه المشاكلِ المختلفة . وقد ظهرتْ نتائجُ بحثه هذا في عددٍ من المقالات التي نُشرتْ في جريدة « الأحرار »[1] . لقد كانت تلك الكناياتُ معروفةً منذ عصر ما قبلَ الإسلامِ ثمّ استمرّ استخدامها إلى العصر العبّاسي ، وكثيراً ما نَجِدُها أيضاً في شعر أبي نواس .

* * *

وبعد مدّة طويلةٍ أصدرَ الدكتور أحمدُ محمّد الحوفيّ كتابَه « الغزل في العصر الجاهليّ » (١٩٦١ : تاريخ مقدّمته للكتاب) - وهو كتاب جيّد - ولكنّه مخالفٌ لعنوانه ، فالدكتور الحوفي تناول الغزل والنسيب معاً . وكثيراً ما يأتي بشواهدِهِ على الجَمال الجاهلي

(١) ظهرت هذه المقالات من ٥ / ١٢ / ١٩٣١ إلى ٢٠ / ٢ / ١٩٣٢ .

من شعراءَ جاهليّين وإسلاميّين وعبّاسيّين ، ففي الصَفَحات ٨٧ إلى ٩٣ نَجِدُ شواهدَ (على الجمال الجاهليّ) مأخوذاً من شِعر المرّارِ بنِ المنقذ العَدَويّ (الجاهلي) ومن شعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ والفرزدقِ (الأمويّين) وابنِ دُريدٍ (العبّاسي) . ومثلُ ذلك كثيرٌ عنده . ثمّ وَصَل إلى ابنِ حزمٍ (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٣ م) وإلى شوقي (ت ١٩٢٧) ، وألدوس (؟) هكسلي أيضاً (راجع مثلاً ، ص ١٨٦ - ٢٨٨) .

* * *

هذا ولا يزال للغة العربية وجوه من العبقرية يحتاج كل وجه منها إلى كتاب خاص بذلك .

في ثامن المحرّم ١٤٠١ .
١٦ / ١١ / ١٩٨٠ .

ع . ف .

الثقافة اللغويّة والعقليّة اللغويّة

في الناس أفراد قليلون امتازوا بثقافة لغوية فعَرَفوا أوجه اشتقاق الألفاظ وحَذِقوا تركيبَ الكلماتِ ورُزقوا ذوقاً أدبياً . إنهم يحسنون وضع اللفظ على المعنى وضعاً مُحكماً ثم يسوقون المعنى في الجملة سَوْقاً بارعاً . وانك إذا قرأت ما يكتب هؤلاء أدركتَ أنهم ذَوُو رأي راجح وعبقرية فياضة ، تكثر عندهم المعاني المألوفة والغريبة كما تكثر عندهم الآراء النظرية والعملية . فإذا وقف أحدهم ليتكلم أو أخذ القلم ليكتب ، فتدفقتِ المعاني على لسانه ، أسْعفته ثقافتُه اللغوية وأخذت تفصّل له الكلماتِ والتراكيبَ على قدر المعاني والأفكار ، بسرعة ودِقّة وبوضوح وسهولة . **ولا غرْوَ فإنّ الوضوح في التفكير يُنْتَجُ منه وضوح في التعبير** ، ذلك لأن اللغة وسيلة إلى التعبير عن الفكر كما أن الخطوط والألوان واسطة إلى إبراز خيال المصور . ورب خطين بسيطين يرسِمهما

---

* مقال نشر في مجلّة « الرائد » (الكويت) في عدد ذي القعدة ١٣٧١ (حزيران / يونيو ١٩٥٢ م) .

المصور البارع على القرطاس فإذا هما صورة رائعة يَعجِز عن مثلها المصور العادي الذي يزحم صدر قرطاسه بالخطوط ، ثم يملأ ما بين خطوطه بالألوان . وأنا إذا أحببت أن أعرِض عليك جانبا من تلك الصور الفاتنة التي رُسمت بالكلمات اليسيرة أنشدتُك قولَ الشاعر الجاهلي البَدْويّ الصُعلوك تأبَّطَ شرّاً حيث يقول :

سَدِّدْ خِلالَك من مالٍ تجمّعه حتى تلاقيِ الذي كلُّ آمرىء لاقِ .
لتقرعَنّ عليّ السنَّ من ندمٍ إذا تذكرتَ يوماً بعض أخلاقي .

أو قولَ الشاعر الجاهلي عمرِو بن الأهتم :

وكلُّ كريمٍ يتّقي الذمَّ بالقِرى ولِلخير بينَ الصالحين طريق .
لَعَمْرُكَ ما ضاقتْ بلاد بأهلها ، ولكنّ أخلاق الرجال تضيق .

غير أن ثمة عدداً وفيراً من البشر لا يَملِكون هذه الثقافة اللغوية التي تمكنهم من التعبير الصحيح عن الآراء الصحيحة ، بل هم قدِ اكتسبوا من بيئتهم أو من مجرى تربيتهم « عقلية » لغوية فامتلأتْ ذاكرتهم بمفرداتٍ وتعودت ألسنتهُم تراكيبَ معروفةً فهم يلوكونها في كل مرّة أرادوا أن يقولوا أو يكتبوا كلمة ، فإذا جُهدُهم في ذلك كلِّه يدور على الألفاظ والتراكيب ، وإذا اللغة عندهم ليست وسيلةً إلى التعبير عن التفكير ، بل مباراةٌ في طول النفس وجلَدٌ على الإعادة والتَكرار . هؤلاء إذا بدأوا موضوعاً شَغَلَتْهمُ التراكيب عن الفكرة التي يُراد منهم أن يعالجوها فجعلوا يَخْبِطون بكلامهم في كل وادٍ وينتقلون من موضوع إلى موضوع انسياقاً مَعَ الألفاظ التي تخطر ببالهم وتعلُّقاً بالتراكيب التي تتشابه في ظاهرها أمام عقولهم . ويطمئن هؤلاء عادة إلى الألفاظ والتراكيب إذ

يعتقدون أنهم إذا أرْضَوْا بها أنفسهم فقد اقنعوا بها غيرهم .

وعندي **أن هذه « العقلية » اللغوية تظل محتملة ما دام صاحبها في نطاق الإنتاج الأدبي الخالص** يَنْظِمَ البيت والبيتين للتفكهة وينثر السطر والسطرين ـ في مجرى المقال الطويل ـ للترويح عن نفس السامع أو القارىء . ثم إنّ المكتبة العربية تستطيع أن تحتمل عدداً من الدواوين والرسائل التي تجري هذا المجرى كالمقامات المتأخرة التي ألّفها أصحابها تقليداً لبديع الزمان وللحريريّ ، أو كالدواوين التي يزعُم أصحابها أنها شعر وليس فيها سوى ألفاظٌ مرصوفة وجمل مصفوفة من غيرِ صِلة معقولة بينها كلها . ولا غرْوَ فإنّ دور « العقلية اللغوية » في أدب كل أمة هو دور المرض في تاريخ ذلك الأدب .

غير **أن هذه العقلية اللغوية تصبح غير محتملة إذا انتقلت إلى الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية** ، وذلك حينما تصبح الجُمَلُ اللغوية البارعة مقاييسَ اجتماعيةً أو عقلية . إن هناك جملاً لغوية تَفْصِل بين الشرق والغرب كما يفصل المحيط الأطلسي بين أفريقية وأميركة . إن اعتقادنا بالجملة المسجوعة : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » هو الذي تركنا إلى اليوم حيث كنا منذ ألف عام . لقد أصبح الغرب يطير بمعدّل ألف كيلومتر في الساعة بينما نحن لا نزال ندبّ على الأرض بعَجَلات تجرها ذوات الأربع . وإن تصديقنا بأن العجلة ـ في كل شيء ـ من الشيطان هو الذي جعلنا نقبل الهِدنة الأولى والثانية في فِلَسْطين . ثم إن تأخُّرنا في جميع ميادينِ النشاط العالمي راجع إلى أننا نفرح بالكلام العَذْب الجميل

فنحارب عدُوَّنا بالبلاغات المسجوعة ونحُلّ مشاكلنا الاجتماعية بالتصريحات المنمقة . فإذا نحن قلنا مثلاً . « إن حالة اللاجئين تفتّت الأكباد » اعتقدنا أننا أنصفنا اللاجئين وأننا قد انقذناهم مما هم فيه . وهنالك اليوم في لبنان وحدَه خمسون جريدة يقرأها مِليون شخص وليس فيها إلاّ شكوى من حالة البلاد ، ثم أنك لا تجد معَ هذه الشكوى درهماً واحداً من العمل الصالح في سبيل الاصلاح والرقي . إن مهمة الصحافي العربي تنتهي معَ توقيعه المقال الافتتاحي ومهمة القارىء العربي تنتهي مع قراءة هذا المقال أو مع قراءة عنوانه فقط . ولقد مر منذ الانتداب على البلاد العربية إلى اليوم جيل كامل من الدهر نشأت فيه دول ذات قيمة دولية يحسب لها حساب في ميزان العالم السياسي منها يوغوسلافية وايرلندية وأندونيسية والهند وباكستان ومنها إسرائيل ، ومع ذلك فإن الصِلات بين سورية ولبنان ـ والمسافة بين عاصمتيهما مائة كيلومتر من الطرق المتعرجة لا تزال تتأرجح منذ سنين ، ذلك لِأَنَّ نفراً من سكان الدولتين يشمئزون من كلمة « المقاطعة الاقتصادية » بينما النفر الآخرون يخافون من كلمة « الوحدة الاقتصادية » . وبينما ترانا نحن نتعلق بالخلاف اللغوي بين مدلول هاتين الكلمتين نجد الدوائرَ السياسية والاقتصادية في العالم تعامل البلدين وما حولهما أيضاً معاملة واحدة ، فمشروع الدفاع عن الشرق الأوسط والنقطة الرابعة والتابلين وشركات الطيران وشركات النقل ومكاتب التوريد والتصدير كلُّها تنظر إلى بلادنا بغير العين التي ننظر بها نحن . نحن ننظر إلى سورية ولبنان والأردن والعراق ومصر على أنها مدلولات لغوية تتحاجز في رقعة الشرق الأوسط كما تتحاجز أسماؤها في

القاموس وفي دائرة المعارف ، بينما الغربيون ينظرون إليها على أنها مدلولات جغرافية لا فواصل بينها ـ وإن اختلفت ألوانها على الخارطة ـ أكثر مما بين المقاطعات المتعددة في الولايات المتحدة مثلاً . ومعَ ذلك فمن ذا الذي ينكر أن مشاريعنا الاقتصادية الصحيحة ليست في أيديهم هم !

وفي حياتنا الفكرية تسيطر علينا اللغة سيطرة مخيفة . إن كلمة فلسفة لا تزال في أذهاننا تعني شيئاً مبهماً . إنها باب مرصود تجثم وراءه الأسرار والمُغيّبات والأحاجي التي لا يُدرى ما هي . معَ أن الفلسفة ـ كما يقول ابنُ رشدٍ ـ ليست شيئاً أكثر من النظر في الموجودات لمعرفة أسباب وجودها . إن عمل الفلسفة تيسيرٌ للأمور التي عقّدها العامة وأشباه العامة بما أضافوا إليها من القصص والخرافة ثم توضيح للمعقولات التي سترها الجهل والاستغلال بألف ستار وستار .

وفي الفلسفة أيضاً ترانا نعتمد الألفاظَ . ففلان عند بعض النقاد فيلسوف لأنه طبع ديوان شعر فيه عدد من المعاني المبهمة الغامضة التي لم يَدْرِ الناقد المحبّ لها وجهاً فنعتها بأنها « أفكار عميقة » . ونطالع نحن هذا الديوان فلا نجدَ فيه من العمق إلا كلمة « عميقة » . ثم نحن لا نجد في هذا الديوان شيئاً من الشعر ، ذلك لأن طبيعة الشعر تناقض التعقيد وتخالف تطلُّبَ المعاني التي لا تنثال على الشاعر من تلقاء نفسها .

أمام هذا كله ترانا نحتاج في الشرق إلى شيء من التفكير الماديّ ، إلى النظر في الأمور التي حولنا نراها ونحسها ، إلى

الأخذ بالحقائق والاضراب عن الخيال المريض والأوهام المتنافرة .
ولقد ثبت الآن، وراء كل ريب مما نشره رجال السياسة والحرب من العرب واليهود والأجانب على السواء، أننا حاربنا اليهود في فلسطين بالبلاغات فقط ، وأن البلاغ الذي قال أن الفريق العربي الفلاني قد أصبح على بعد آثني عَشَرَ ميلاً من تل أبيب لم يكن يعني أكثر من أن هذا الفريق قد تراجع خمسة أميال ، لأن التقسيم الذي كانت هيأة الأمم قد فرضته وضع حدود المنطقة العربية على سبعة أميال من تل أبيب . وكذلك لما نشرتِ الصحف أن الجلسة التي عقدتها جامعة الدول العربية في التاريخ الفلاني قدِ آرْفَضّتْ والوفود العربية متفقة فيما بينها اتفاقاً تاماً على انتهاج خطة حكيمة تكفُل للعرب تحقيق أهدافهم الموحدة وشدّ أواصر الأخوة السَمْحة ونيل الأماني الوطنية والقومية لا تعني أكثر من أن المجتمعين كانوا على أشد الخلاف فيما بينهم حتى أنهم لم يستطيعوا أن ينشروا على الرأي العام العربي ما حدث فطلعوا علينا بذلك البيان المنمق الذي لا يعني شيئاً على الإطلاق . ويكفي أن تعودوا اليوم إلى تلك البلاغات الطنّانة ثم تنظروا إلى الحالة التي استقرت فيها فلسطين اليوم .

وأنا أريد من العرب ألا يخافوا من « كلمة » التفكير المادي .
أنا لا أعني بالتفكير المادي ما يعني به نفر من المتأدبين من الجشع والتكالب على متاع الحياة الدنيا . وإنما أعني ما عناه الفلاسفة من أن للأمور المادية التي تحدث في عالمنا أسباباً مادية . إن استنباط البترول من باطن الأرض يحتاج إلى جهد مادي . وليس من الممكن أن يطفوَ البترول على وجه الأرض ثم يسير عبر الصحراء

بالأماني والطِلَّسْمات . وكذلك رفع المستوى الاجتماعي يحتاج إلى أناس يَضرِبون في أرض الوطن ويبذلون مالاً ووقتاً لوضع أسس الإصلاح ثم يتعهدون هذه الأسس يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً بعد عام حتى يصلوا إلى ما يصبون إليه . وإن المرء لَيعجبُ أشد العجب من الفرق بين الفلاح الساذج الذي يتمنى محصولاً ثميناً فيعتني بأشجاره في الشتاء والربيع والصيف حتى تؤتي أُكُلَها في الخريف ، وذلك السياسيِّ المثقف الذي يريد لأمته الرقي ولكنه يجلس في كرسيه الوثير ثم يتمنى ذلك الرقي تمنياً . وهل يجوز لنا بعد هذا أن نستغرب إذا رأينا إرادة الفلاح الساذج تتحقق كل عام بينما إرادة هذا السياسي لم تتحقق قط ؟

ونحن في الشرق لا نخشى من طغيان المادية في معناها الصحيح . إن الروح قد انطلقت من الشرق ، بل إن الشرق هو الذي اخترع الروح ثم نشرها في أقطار العالم . فإذا سار الشرق على سياسة مادية صحيحة فلا يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه الغرب . إن الغرب كان أرضاً مادية من قبل ، فلما اتخذ المادة الجديدة غُلِبَ على أمره ونسي الروح مرة واحدة . إنّنا نحن في الشرق قد ولدنا وولدت الروح معنا ، فإذا مِلنا اليوم إلى المادية لم نَعْدُ أن تتوازنَ الروح والمادة في حياتنا .

نحن اليوم في الشرق على مفترق طريق ، ولا يعلم إلاّ الله ما ينتظرنا في ثنايا حرب عالمية ثالثة . لقد مرت بنا حربان عالميتان لم نستفد منهما شيئاً لأننا لم نستعد لهما بشيء . لقد كنا دائماً نعتمد حسن النية عند خصومنا . وفي الواقع أننا لم نكن لنستطيعَ أكثرَ من

ذلك ، ما داموا هم يحضُرون إلى المؤتمرات ووراءهم طيارات ودبابات ونحضر نحن في سيارات من صنعهم هم . وكان أحدهم يقف ليقول نعم أو لا فقط ثم يشير من طرف خفي إلى ما أعد من قوة وعلم ، بينما نقوم نحن فنتبارى في الخطب ونتغنى بالروابط ونستجدي الحقوق ونملأ الجو فلسفة روحية جوفاء .

أيها العرب : ها أمامكم طريقان : طريق تسيرون فيه أنتم إلى الوراء ، وطريق يسير فيه خصومكم إلى الأمام . فعليكم أن تختاروا أيَّ الطريقين شِئتم : سيراً قهقري إلى الأبد ، أو سيراً منذ اليوم إلى الأمام . آحزِموا أمركم ولا تنتظروا ، فإنّ الدهر وخصمكم لا ينتظران . أما إذا كنتم لا تريدون أن تأخذوا بالاتجاه الماديّ في حياتكم كلها فلا تكتفوا منها بالناحية اللغوية فقط ولا تخدعوا أنفسكم بالألفاظ . ثم لا تظنوا أن أحداً يمكن أن يتقدم ما دام متشبثاً بمكانه جامداً في تفكيره مستكيناً إلى المصائب التي تنزل به . ولقد خلق الله تعالى فينا إرادة غايتها أن ننقل بها أنفسنا من حال إلى ما هو خير منها . فَلْنحترمْ هذه الإرادة فينا وَلْنَنْفِرْ بها نحن العربَ من سوء ما نحن فيه ولنعلَمْ أن الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

المطالعة في كتب العلم وفي القاموس

« إنّني أعجب من الذي يقرأ كتاباً
لِيفهمَ مدلولَ كلمةٍ واحدة أو
يطّلع على فِكرة صغيرة ، ثمّ هو
لا يقرأ كلمةً واحدة ليفهمَ فحوى كتابٍ كبير ! » .

حينما يسمع بعض الناس كلمة « مطالعة » ، فأوّلُ ما يتبادر إلى ذِهنه « قراءة الكتب الخفيفة » كالروايات الغرامية والقِصص البوليسية وكتبِ المغامرات الغريبة ووصف الاجتماعات العاديّة والشؤونِ الشخصية للأفراد المعروفين في البيئة الاجتماعية أو للأفراد الذين قفزتْ أسماؤهم حديثاً إلى صَفَحات الجرائد ، وخصوصاً ما كان له صِلةٌ بحياة البشر المكتومة . وقلّما خطر لنفرٍ من الناس أن يطالعوا في كتب العلم أو كتب البُحوث المُثقِّفة . ولعلّ من غيرِ المنتظر عند نفر من الناس أن يسمعوا أن القاموسَ من كتب المطالعة ! ولكنّ القاموس ، في الواقع ، **من الكتب المفيدة الطريفة التي تصلُح للمطالعة صلاحاً كبيراً** ، فإنّ كلّ كلمة في

القاموس تقُصّ قِصّةً طريفة أو تسرُد تاريخاً طويلاً أو تَكْشِف عن رِحلة ذهنية جميلة .

والمطالعة عند عامّة الناس إدمان كالتدخين مثلاً :

من هؤلاء مَنْ لا يستطيع أن ينام إلّا إذا قرأ شيئاً قبلَ النوم ؛ ومن هؤلاء نفرٌ انقطع كلُّ سببٍ بينَهم وبين القراءة (قبل النوم وبعد النوم) ، ومنهم من يقرأ إذا وجد كتاباً أو مجلّة أو جريدة مَع صديق له فيقرأ حيناً غيرَ معيّن من الوقت على سبيل الاستعارة .

عرفت أُناساً كثيرين لا يُطالعون ، فالمطالعة ليست جُزْءاً مُعيّناً في حياتهم . من هؤلاء نفرٌ يشترون الكتب ويجلّدونها ولكن لا يقرأون فيها . ومنهم من يجمع مكتبةً من الكتب النفيسة ويصنع لها خَزائنَ من الخشب الجميل ، فإذا زارهُ أشخاصٌ زيارةً طويلةً أو قصيرة حَرَصَ على أن يطوف بهم في هذه المكتبة وعلى أن يسمّيَ لهم عدداً من الكتب التي فيها وعلى أن يذكُرَ لهم أثمانَها ، ولكنّه لا يكادُ يَعْرِفُ شيئاً ممّا في داخلها . وكنتُ مرّة عند تاجرٍ فأراني كُومة من الجرائد والمجلّات لا تزال في لفائِفها : إنّه يدفعُ بَدَلات الاشتراك فيها ، وإنّ أعدادَها تصل إليه بانتظام ، ولكنّه لا يقرأها ـ لضيق الوقت .

وألّف فنّانٌ أعرِفُه كتاباً قَيّماً جِدّاً وأهدى نسخةً منه إلى وجيهٍ كبير من الذين أشْرفوا على مشروعٍ من أعظم المشروعات التعليمية . وبعدَ مدّة طويلة التقى الفنّانُ المؤلّف بالوجيه المشرف على مشروع التعليم وسأله : « كيف وَجدتَ الكتابَ ؟ » فما كان

جوابَ ذلك الوجيه إلّا أن قال : « وهل عِندَنا نحنُ وقتٌ للقراءة ! » .

وهنالك طَبَقة أخرى من الناس فيما يتعلّق بالمطالعة :

أعرِفُ نفراً من الناس أكاد أجْزِمُ بأن أحدَهم لم يشترِ في حياته جريدةً أو مجلّة ، ولم يَعْرِفْ في حياته غير الكتب المدرسية . ثمّ إنّه لم يحتفظ بكتبه المدرسية . هؤلاء إذا اتّفق لهم أن رأَوْا جريدةً أو مجلّةً في يدِ أحد استعاروها منه أو شاركوه في مُطالعتها . وأعرف معلّمين يدرّسون مادّةً في كتابٍ مقرّر فلا يشترون الكتاب : إنّهم إمّا أن يحصُلوا عليه بطريقة من الطرق أو أن يستعيروه من مكتبة المدرسة أو من مكتبةٍ عامّة ، فإذا انتهى العام المدرسيّ ردّوا ذلك الكتابَ إلى تلك المكتبة التي استعاروه منها . وكفى اللّهُ المؤمنين القتال (دفعَ ثمنِ الكتاب) .

ومن **أعظم ما يُثير الدهشة** (أو ممّا يثير دهشةً عظيمة ، على الأصحّ) **أولئك الذين يقرأون كتب القِصص الدَوْرية** ـ التي تصدُرُ حَلَقاتٍ من سلاسلَ مرّةً في كلِّ شهرٍ أو مرّة في كلّ أسبوع . سألت يوماً صديقاً لي عنده شِبهُ دارٍ للنشر تُصدِرُ مثلَ هذه السلاسل :

ـ كيف تجد في كلّ أسبوع موضوعاً جديداً ؟

فقال :

ـ ليس هنالك موضوعاتٌ جديدة : هنالك خمسةُ موضوعاتٍ أو سِتّةٌ أُبَدِّلُ مُقدّماتِها وأسماءَ أشخاصها وعَناوين فُصولها ، مرّةً بعدَ مرّة ، ثمّ أدفعها إلى المِطْبعة بأسماءٍ جديدة .

فقلت له مازحاً :

ـ لعلّ هذا أيسر ما تصنعه !

فقال لي جادّاً :

لا ! في بعض الأحيان يُدْرِكني مطلع الشهر أو مطلع الأسبوع ولا أجد وقتاً لذلك الشيء الذي تَعُدّه أنتَ يسيراً ، فأتناول نُسخة من قِصّة قديمةٍ فأنزعُ غِلافها ثمّ أطلُب من الرسّام أن يُعِدّ لها غِلافاً جديداً . وتنزل القِصّة القديمة كثيراً أو قليلاً إلى الأسواق بغِلاف جديدٍ وبعُنوان جديد .

ولعلّ القارىء يستغرب هذا الذي رويته في الأسطر السابقة . ولكنّ استغرابه يزول إذا علم أن **أناساً كثيرين يَرْجِعون من تِلقاء أنفسِهم إلى القصص التي كانوا قد قرأوها في وقت سابقٍ فيُعيدون قراءتها مرّةً أو أكثرَ من مرّة** . بل هنالك أعجبُ من هذا . إنّ الذين يستمعون في المقاهي إلى قصّة عنترٍ عاماً بعدَ عام كثيرون جدّاً . وكثيراً ما يُعيد الحَكَواتي كلامَ الليلة السابقة ـ مَعَ الاعتذار الظاهر بأن نفراً لم يكونوا موجودين في الليلة السابقة ، وقد رَجَوْهُ أن يُعيد ما قاله بالأمس ـ فيُصغي الجميع ، أولئك الذين لم يكونوا بالأمس وأولئك الذين كانوا بالأمس ، إلى الحِكاية المُعادة بشوقٍ واحدٍ واستغراق واحد .

وسألتُ أحدَ الذين كانوا يطالعون كثيراً : لماذا تقرأ هذه الكتبَ التي لا قيمةَ لها ثمّ لا تهتمّ بكتاب ذي قيمة ؟ فقال : أنا رجلٌ كثير الأعمال ، ومن أعمالي ما يشغَل البال . وكلّ الذي أريده

من القراءة أنْ أُروِّح عن نفسي . إنّ المهمّ عندي أن أقطَعَ الوقتَ الفارغ بأشياءَ تُبْعِدني عن جوّ عملي الشاغل .

في هذا القول شيء من فلسفة المطالعة ، فالمُطالع يقرأ عادةً أشياءَ بعيدةً عن خطّ عمله الأساسيّ .

غير أن **الفرق الصحيح بين القراءة والمطالعة** ، في واقع الأمر وحقيقته ، قليلٌ جدّاً . إنّ العالِمَ والمؤلّف والباحث لا يكادون يقرأون كتاباً إلّا ابتغاء الفائدة ، وقلّما قرأ أحدُهم كتاباً أو مجلّة طلباً لتَزْجِيَةِ الوقت أو حبّا بالتسلية . وكذلك الرجل العاميّ أوِ الذي لا تقوم حياتُه على الجانب الثقافي من النشاط الإنسانيّ لا يكاد يقرأ شيئاً إلّا ابتغاء التسلية وطلباً للغريب من القول وللخياليّ من الأعمال أو حبّا بما يألفه ويُحِبّ تَكرارَ القول فيه .

ولكنّ ثمّة شيئاً من الفرق بين القراءة وبين المطالعة نجده دائماً في الجانب العَمَليّ من حياتنا : حينما يقرأ الإنسان أشياء تتعلّق بعمله الأساسيّ فهو يقرأ بِقَصْدٍ واهتمام لأنه يقرأ للاستفادة ، فمطالعته جزء من عمله الأساسيّ . ولكنْ حينما يقرأ أشياءَ لا تتعلّق بعمله الأساسيّ فهو يقرأها اتّفاقاً وهَوْناً لأنّه لا يبتغي من وراء تلك القراءة أمراً مُعيّناً . والقراءة على هذا الشكل ليست جزءاً من عمله الأساسي ، بل ليست جزءاً من عمله على الإطلاق .

في كثيرٍ من الأحيان يدخُلُ على نفسي المَلَلُ من تصحيح الأوراق ومن إعداد المحاضرات ومن التأليف وكتابة المقالات في الأدب والفلسفة والتاريخ ، فآتي إلى رفّ من رفوف المكتبة عليه عددٌ من كتب العلم الرياضي والطبيعي فأتناولُ من فوقه كتاباً في

الجبر أو الكيمياء مثلاً وأبدأ بقراءته فأقضي ساعةً أو ساعتين أقرأ في ذلك الكتاب كما يقرأ غيري قِصّة بوليسية أو روايةً عن روميو وجولييت ، ذلك لأنّني أعتقد أن المطالعةَ ، مهما تكنْ جانبيّة ، يجب أن يكونَ القصدُ منها شيئاً من الفائدة والتثقيف .

وقد اتّفق ، في عام ١٩٦٣ ، أن دَخَلَ على نفسي شيءٌ من مثل ذلك الملل ، وكان قد اتّفق أيضاً أن قرأت كتاباً صغيراً في الفَلك فوجدتّه طريفاً ومُثقِّفاً معاً . ومع أن مؤلّف هذا الكتاب قد قَصَدَ التوجّهَ بكتابه إلى جَمْهَرة القرّاء ، فإنّه ـ على عادةِ كثيرين من المؤلّفين أصحابِ الاختصاص ـ كان يَنْسى أحياناً جَمهرةَ القرّاء الذين يهتّمون بالموضوعات الوصفية التي تُداعب الخيالَ وحدَه ، ثم يدخُلُ في شيء من تفاصيل البراهين والحساب . وخطر لي أن أنقُلَ هذا الكتابَ إلى اللغة العربية فاستأذنت المؤلّفَ والناشر في ذلك فأذِنا لي بعدَ شروط وَفَيْتُ لهما بها . ثمّ أنّي وفّيتُ ذلك الكتاب حقّة من العناية ـ قدر المستطاع ـ بـالنُقاط العلميـة وبالمصطلحات الفنّيّة .

نقلت هذا الكتاب وأنا في المصيف ، في بلدةٍ مرتفعة جافّة الهواء صافيةِ السماء ، فكنتُ كلّما نقلتُ شيئاً من الكتاب رفعتُ في الليالي بصري إلى السماء أحاولُ أن أرى فيها مواقع النجوم وحركاتِها وألوانَها وهيئاتِ مجموعاتها أو عناقيدها . لقد تخيّل الإنسان منذ أقدم الأزمنة نُجوماً تُشاهَدُ في رأي العين متنقّلةً معاً من مكان إلى مكان في أنحاء السماء ، بين ساعةٍ وساعة من الليل ، وبينَ ليلة وليلة من ليالي الفصول ، وبين فصل وفصل من فصول

العام . لقد تراءتْ تلك العناقيد من النجوم لعين الإنسان القديم على صور الحيوانات من الوحوش والطيور ، كالأسد والنسر والسمكة وعلى صور الأشياء كالميزان والدلو . ومَعَ أن معظم النجوم التي تبدو كذلك إنّما هي نجوم متفرّقة في طَبَقات السماء مختلفةُ الخصائص مستقلّ بعضُها عن بعض ، فإنّنا لا نزال ننظر إليها على أنّها أفرادٌ من أُسَرٍ معيّنة تتحرّك حَرَكاتٍ جَماعية وتسلُك سلوكاً واحداً . ولكنّ العلم ، مَعَ الأسف ، لا يستطيعُ أن يَحِلّ مكانَ الخُرافة من عقول الناس !

ثمّ انتهيت من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية فكأنّني اكتسبتُ نشاطاً جديداً وجَلَوْتُ عن خاطري صَدَأً كان قد رَسَبَ فيه مَعَ الأيام من مُعاناة الأدب والفلسفة والتاريخ .

* * *

وإذا كانت مطالعاتي في كتب العلوم الطبيعية والرياضيات مطالعاتٍ آنيةٍ متقطّعة ، **فإن مطالعاتي في القاموس مُطالعاتٌ دائمةٌ مستمرّة** . فكثيراً ما أذهب إلى القاموس لأرى صيغة من جذْر أو معنىً لِصيغةٍ فاستمرُّ في القراءة مقدار صفحة أو أكثر . وفي أحيان كثيرة أتناول قاموساً من رفّ القواميس ـ قاموساً عربيّاً أو غير عربيّ ـ فأقرأ فيه . ويحدث عند قراءتي للقاموس غيرِ العربيّ مثل ما يحدُث في قراءتي للقاموس العربي : معانٍ تبعُدُ في الاستعمال عمّا نألفه كثيراً أو قليلاً ، ثمّ فوائدُ تاريخيّة وثقافية واجتماعية تَكْشِفها الكَلِمة بعدَ الكلمة . إنّ القراءة في القاموس لا تسرُدُ لنا تاريخَ الكَلِمات فحَسْبُ ، بل تَكْشِف لنا أيضاً عن منحى التفكيرِ في الأمّة التي

نتكلّم باللسان الذي نقرأ في قاموسه . وفي القاموس كلماتٌ قد تقُصّ علينا تاريخاً لا تقُصّه كتبُ التاريخ :

يرى نفر من الذين يُعانون الكتابة في تاريخ الأدب العربي أنّ المتنبّي كانَ ابنَ رجُلٍ فقيرٍ يَسْقي الماء في الكوفة ، ثمّ يَبنون على ذلك صَفَحاتٍ من الخيال الجامح ، ذلك لأنّهم يَرْوُون - فيما يروون من أخبار الأدب - أنّ والدَ المتنبّي كان يُدْعى عَبدانَ السَّقّاءَ ، مع أنّ هؤلاء يكونون قد ذكروا في مَطْلَعِ مقالاتهم أنّ المتنبّي هو أحمد بنُ الحسين . . . . . . ، ومعَ ذلك فهم يقبلون رواية مضعوفةً أو موضوعة بأنّ والدَ المتنبّي اسمُه عبدانُ ! ولو أنّ المتنبّي كان ابنَ سَقّاء أو ابنَ نجّارٍ أو ابنَ حَذّاءٍ أو مجهولَ النسبِ مرّةً واحدة ، لما استحقّ ذلك من هؤلاء الكاتبين مثلَ تلك المناقشة أوِ المحاورة ، فإنّ العبقرية ليستْ وقفا على الأنساب - وإن كان للأنسابِ في بعض الأحيان أثرٌ من الوِراثة في العبقرية - . وبعدُ ، فلماذا يكونُ السقّاء والنجّار والحَذّاء غيرَ سامي المقام عندَ الناس إذا هو استطاعَ أن يُنشّئ ابنه تنشئةً صالحة أو أن يجعل منه شاعراً كالمتنبّي ؟

وكنت مرّةً أطالعُ في القاموس المُحيط للفيروزابادي - وهذا التفصيل في اسم القاموس للذين لا يحبّون الرجوع إلى القواميس - فمررتُ عَرَضاً بهذه الكلمات (١ : ٣٢٠ ، رأس الصفحة) : « وعِيدانُ السِقاء » « لقب والدِ أحمدَ بنِ الحُسين المتنبّي » .

أنا لا أريدُ أن أبنيَ على هذه الجُملة صروحاً كتلك التي بناها غيري على جملةِ « يَسْقي الماء في الكوفة » ، ولكنّني أريد أن أقول إنّ هذه الجملة في القاموس تفسَحُ مجالاً لتقريرِ أمر يرى فيه بعض

الدارسين مشكلة . ثمّ إنّنا إذا رجعنا إلى فلسفة المطالعة في القاموس عَرَفنا من هذه الجملة أن والد المتنبّي كان طويلاً دقيق الساقين . . . . وليس في ذلك دليلٌ على فقرٍ أو غِنىً ولا على دناءة أصلٍ أو رِفعة نسب ، ولكنّ فيها وصفاً حِسّيّاً لوالد المتنبي لو أنّنا بحثنا عنه في كتب التاريخ وكتب التراجم لَمّا وجدناه . ثمّ أليس من فضل المطالعة في القاموس أن حَلّتْ لنا مُشكلةً ثائرةً بزيادةِ نُقْطةٍ تحت كلمة !

* * *

ونحنُ نقولُ اليومَ آنسةٌ ونَعْني : « **فتاةً صغيرةَ السِنّ مهذبةً مصونة** » ، والذي في القاموس خِلاف ذلك . في القاموس (٢ : ١٩٨) : « جاريةٌ آنسةٌ طيّبة النَفْس والأُنس » . (والأنس هو السَماح بالمُعابثة دون الزواج) . وبيتُ عنترةَ واضح المعنى :

دارٌ لآنسـةٍ غضيضٍ طرفُهـا   طَوْعَ العِناق لذيذةُ المُتَبَسَّمِ .

ومثل ذلك - وأوضح منه أيضاً - يَرِدُ عند عَبيدِ بن الأبرص وعندَ غيره من شعراءِ الجاهلية . ولا تزالُ اللُغة العامّيّة في العِراق تحفظ في قولهم « نتونّس » مَعنىً غير عفيف .

وفي جِذْر « قصر » معانٍ مختلفةٌ يجمع القاموس بعضَها إلى بعض . والأصحّ أنْ توزّع هذه المعاني بينَ جُذورٍ مختلفة (تتقارب في اللفظ) . فمن المعاني المنطوية في الجذر « ق ص ر » : القِصَرُ ضِدّ الطول (ماديّا ومعنويّا) ، وهذا معنىً عربيٌّ . ثمّ هنالك القَصْر ، أي تحويرُ الثياب (تبييضها) باستعمال موادَّ كيماويةٍ تجعَلُ اللون (في النسيج خاصّة) أبيضَ ناصعاً (وهو عربيّ أيضاً) . ثمّ هنالك القصر ، وهو بناءٌ كبيرٌ من حِجارة (كالقَلْعة) ، وهو بهذا المعنى من

اللاتينية castra انتقلَ إلى العربية منذ الجاهلية . والكلامُ على تطوّر كلمةِ قصرٍ في اللغة العربية يحتاج إلى مقالٍ مستقلّ[١] .

والدِينُ في القاموس هو العادة . كذلك كان المعنى القديم . والشاهد على ذلك قول الشاعر ـ وكان إذا غَضِبَ من امرأته أدارَ لها وَضينَه (والوضين في الأصل الحِزامُ ، ثمّ مكان ربط الحزام ، ثمّ جانب الانسان) :

تقولُ إذا أدرتُ لها وضيني : أهــذا دِينــه أبــدا ودِيني !

(أهـذه عـادتي وعـادتُـه : كلّما غَضِبَ منّي أشـاحَ عنّي بوجهه ؟) . ولا يزال أهلُ حَوْرانَ إذا استغربوا أمراً أو أرادوا معرفةَ كُنْهه سألوا : شُو دينو (ما دِينه ؟ ما هو ، ما سُلوكه ؟) .

والدِين أيضاً هو الحُكم والقضاء ، ولكنّه لا يُفهَم بهذا المعنى إلّا في قولنا : « يومُ الدين » (الآخرة) . وبيتُ الدين (مكانُ المحكمة) بلدةٌ في لُبنان وَرِثَتِ آسمهَا من التاريخ القديم .

وأمّا الدِين بمعنى الاعتقاد والتعبُّد على الحَصْرِ فمعنى إسلاميّ جاء في القرآن الكريم .

والكتاب (بمعنى الورق المكتوب المُجلّد) معنىً إسلاميّ أيضاً جاء في القرآن الكريم . أمّا كلمة « كتاب » في الجاهلية فكانت مصدراً بمعنى « الكتابة » . وأمّا الورقة المكتوبة فكان اسمها في الجاهلية « صَحيفة » . وصَحيفةُ المتلمّس مشهـورةٌ : زَعَموا أن

(١) راجع « الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها » للمؤلف (عام ١٩٧٨) ص ٨ ـ ١٠ ؛ (عام ١٩٨٠) .

عَمْرو بنَ هندٍ مَلِكَ الحِيرة كتب لِطَرَفَةَ بنِ العبد ولخالهِ المتلمّسِ إلى المُكَعْبِرِ عاملِه على البحرين وأوْهَمَهُما أن في الصحيفة أمراً لهما بجائزةٍ ، بينما هو قد أمرَ فيهما عاملَه بقتلِهما . وكان الكتاب يُسمّى زَبوراً (والجمع منه : زُبُرٌ بضمّتين) . وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم : ﴿ **وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُبُر** ﴾ (أي موجودٌ في كتابٍ ، مسجّل عليهم) ، كما وردت في معلّقة لَبيدٍ . وكذلك وردت كَلِمةُ كتاب « مصدراً » في كتاب البخلاء للجاحظ عند رواية قِصّة أبي جعفرٍ الطرسوسيّ الذي زارَ قوماً فأكرموه ووضعوا في لِحْيته وشاربيه غاليةً (عِطراً) . فحكّته شَفَتُه العُليا فمَدّ إصْبَعه إلى باطن شَفَته وحَكّها من الداخل مَخافةَ أن تأخُذَ إصْبَعُه شيئاً من الغالية إذا هو حَكَّ شَفَتَهُ من الخارج . ويُعلّق الجاحظ على هذه القِصّة بقوله : « وهذا وشِبْهُه إنّما يَطيب جِدّاً إذا رأيتَ الحِكاية بعَيْنك ، لأنّ الكِتابَ لا يُصوّر لك كلَّ شيء ولا يأتي لك على كُنهه وعلى حدوده وحقائقه » .

وفي المَغْرب يقولون اليوم : « سانية » للجُنينة أو للحديقة أو للمكان المزروع الذي يُسقى بماء يستخرج من باطن الأرض . والسانية في الأصل الناقةُ التي تُدير الناعورة لإخراج الماء أو الغَرْبُ (الدَلْو) الذي تُسقى الزروع به . ثمّ نُقِلَ اسم « السانية » إلى البئر التي تُسقى الجنينة منها ثمّ إلى الجنينة نفسِها .

والواقعُ أن كلَّ كلمةٍ في القاموس تقُصُّ قِصّة طويلةً أو قصيرة وتصوّر حضارةً وتَرْسِمُ صورة اجتماعية أو ذهنية .

ومعظم الناس إذا حيّا بعضُهم بعضاً قالوا : صباحَ الخيرِ أو مساءَ الخير ! والردّ على هذه التحيّة هو : صباحُ النور ـ مساء النور .

وهذه التحيّة هي التحيّة المَجوسية . يعتقد المجوسُ بقوّتين : الخير والشرِّ يمثّلهما النورُ والظُلمة . وللمجوس إلّه للخير أوِ النور وإلّهٌ للشرِّ أو الظُلمة ، وهما يتنازعانِ السيطرَةَ على العالم . فكان من المعقول أن يُحيّيَ بعضُ المجوس بعضاً بقولهم : صباحُ الخير ـ صباح النور ! ومَعَ أن الإسلام قد أمرَ بأنْ تأخُذَ تحيّةُ الإسلام « السلامُ عليكم » مكانَ كلّ تحيّة أخرى ، فلا يزالُ العرب في مُعظمهم ـ من المسلمين ومن غير المسلمين ـ يتبادلون التحيّة بقولهم : صباحُ الخير ـ صباح النور !

لو أحب أحدُنا أن يتناول كلّ كلمة ويقُصّ تاريخَها لما انتهى أبداً . فلا بدّ من الاكتفاء بما تقدّم .

إنّ القراءة في القاموس مفيدة جدّاً ثمّ هي طريفة أيضاً . ولكنّ الناسَ العاديّين لم يألفوا ذلك . ولعلّ الناشرين إذا طبعوا القاموس أجزاء صغيرةً ـ كقِصّة عنترة مثلاً ـ وجعلوا لهذه الأجزاء الصغيرة أغلفةً مزيّنة مصوّرة ملوّنة ، تهافتَ جُمهورُ الناس على مُطالعتها . ألا ترى الناسَ إذا كتبنا لهم عن « ترك الثأر في القرى » حديثاً يستغرقُ ثلاثَ دقائقَ أو أربعاً لم يقرأوا هذا الحديثَ ولامـالوا إلى سَماعه من الإذاعة . فإذا نحنُ جعلنا هذا الحديثَ نفسَه في تمثيلية وجعلنا تلك التمثيليةَ حَلَقاتٍ تُذاع خمسينَ مرّة ، في كلّ مرّة نصفَ ساعة ، واظبوا على الاستماع إليها وانتظروا موعدَ هذه التمثيلية من اليومِ إلى اليومِ ومن الأسبوع إلى الأسبوع ـ وعطّلوا في سبيل ذلك أعمالَهم ـ وأصْغَوْا إلى جميع حَلَقاتها بشوق زائد واهتمام بالغ ؟

لقد قلت إنّهم يُصغون إلى التمثيلية ، ولم أقل إنّهم ينتفعون بها أو يُدْرِكون الغايةَ منها .

المَدارِكُ القَديمَة في اللُغة*

شُغِفَ الباحثون والإخباريون على السواء بالكلام على اللغة التي تكلّمها الإنسانُ الأول ، وإذا نحن أحْبَبْنا أن نكونَ أكثرَ تواضعاً وأحسنَ شعوراً بِعَجْزِنا عن الخوض في هذا الموضوع الواسع ، قَصَرْنا محاولَتَنا على أن نتلمّس عدداً من الألفاظ القديمة التي كان الإنسان القديم يَنْطق بها . ولكنْ بما أن الإنسانَ قد بدأ يخرُجُ في التعبير عن مقاصده من الأصوات المُبْهَمَةِ إلى الأصوات الفصيحة منذ خمسِ مِئَةِ ألف عامٍ ـ ثم لم يبدأ بتدوين تلك الألفاظِ إلّا من نحو خمسة آلاف عام أو تزيد قليلاً ـ فلا سبيلَ اليومَ إلى معرفة اللغة التي كانت أداةَ التعبير الجامعة لذلك الإنسان الأول ، إن صحّ شيءٌ من هذا ، ولا إلى معرفة الجماعة البشرية الحاضرة التي تتكلم لغةً هِيَ أقربُ اللغات إلى لغةِ الإنسان الأول . وبما أنني الآنَ لست بسبيلِ الفَصْلِ في المشكلة الناشبة بين القائلين بردِّ اللغاتِ البشرية إلى أصلٍ واحد ، والقائلين بردِّها إلى أصولٍ تختلف باختلاف منازلِ

* بحث ألقي في مجمع اللغة العربية (القاهرة) في ثامن ذي القعدة من سنة ١٣٨٥ (٢٨/٢/١٩٦٦ م) .

الجماعات التي بدأتْ بالنطقِ مُستقِلاً بعضُها عن بعض ، فسأكتفي بالكلام على عددٍ من الألفاظ التي يمكن أن تكونَ قديمةً في تاريخ اللغة ، من غيرِ إصرارٍ على أن تكونَ تلك الألفاظُ جُزْءاً من اللغة الأولى للإنسان .

لا بدَّ لنا ، في سبيل الوصول إلى شيء من الحقّ في هذه القضية ، مِنَ آعتمادِ أساسٍ **هو آتصالُ التطوُّرِ في النُطقِ الإنسانيّ** منذ الإنسان الأوّل إلى اليوم ، إذ لا يجوزُ أن يكون ثمة جماعاتٌ بشرية قد نَسِيَتْ لُغاتِها في يومٍ ما ثم بدأتْ تتكلَّمُ لغاتٍ أخرى في اليوم التالي . فلا مَفرَّ إذنْ مِنَ الافتراض افتراضاً يشبه الجزْمَ : إن كلَّ جماعةٍ بشرية حاضرة قد وَرِثَتْ لغتَها عن المتكلم الأول من البشرِ وِراثةً متّصلةً مرفوعةً أو وِراثةً متخلخِلةً مقطوعةً ، إذ يتفق أن تنتقلَ جماعةٌ صغيرة إلى مَوْطِنٍ جديدٍ فتتّخِذَ لغةَ ذلك الموطن الجديد .

هذا الأساس المعقول ـ **أيِ اتصالُ التـطوُّرِ في النُطق الإنساني** يحُلّ مشكلةَ العصبيّة اللغوية . وهي اعتقادُ كلِّ أمةٍ أنّ لُغتَها هي اللغةُ الأصلية التي تكلّمَها البشر ، قال بذلك العربُ والعجمُ ، ثم قالتْ به شعوبٌ حديثةٌ في تاريخ الحضارة الإنسانية . فإذا نحن أقْرَرْنا لكلِّ أمةٍ بشيء مِنَ آتصالِ النطقِ اللغويّ باللغة القديمة أوِ اللغات القديمة كثيراً أو قليلاً ، لم يبقَ لنا مَعْدىً عن القَبول بأنّ في كلّ لغةٍ حاضرةٍ بقايا من لغةِ الإنسانِ الأول أو من اللغة القديمةِ على الأقـلّ . فهل من سبيل إلى هذه البقايا أو إلى معرفة جانبٍ منها ؟

وإذا لم يقبَلْ نَفَرٌ من أن تكونَ **الشواذُّ في اللغة** ، في الألفاظ المجرَّدة وفي الصِيَغ المشتقّة **بقايا من لُغة الإنسان القديمة** ،

فلعلهم يقبلون أن يكون جانبٌ من تلك الألفاظ الشاذّة أقدمَ في تاريخ التطوُّر اللغوي من الألفاظ الجارية على القواعدِ الحاضرة . فالصيغةُ الباقية في الفعل المتّصل بالضمير المتحرّك « مددتُ » مثلا أقدم من الصيغة المجردة « مدّ » بالإدغام . فالعربيّ إذَنْ يجبُ أن يكون قد قال مَدَدَ فلانٌ يده قبلَ أن قال مدّ فلان يَدَه ، لأنّ « مَدَدَ » جارية على المِنهاج العامّ للفعل الثلاثي ، بينما مدّ قد خضعتْ لصِناعة وتأمُّلٍ ليسا من طبيعة الفِطرة . وكذلك يجب أن يكون العربيّ قد قال الجُمَل الفعلية : « نَوَمَ فلان وثَوَرَ فلان وسَيَرَ فلان وخوِفَ (بكسر الواو) فلان » قبلَ أن قال : « نامَ فلان وثارَ فلان وسارَ فلان وخاف فلان » . فالإعلال والإبدال والإدغام التي يجعلُها علماءُ اللغةأبواباً من الصَرْف وقواعد في فِقْهِ اللغة ليستْ في حقيقتها سوى تسمياتٍ متأخرةٍ لأنواع من بقايا اللغةِ القديمة أحالتها ا لموسيقى اللفظيّةُ عن النُطق السابق بها إلى النطق الحاضر على مِنْوالٍ مُعَيَّنٍ أو على منوالٍ غيرِ معين . **فإذا كان على هذا الشاذِّ أمثلةٌ كثيرة** ، كما نرى في بار ودار ونام أو في عدّ ومرّ وقلّ ، كان الإعلالُ فيه والإبدالُ والإدغام على **منهاجٍ مُعيّن** . أما إذا كانتِ الشواهدُ على ذلك الشاذِّ قليلةً أو نادرة بَقِيَ ذلك الشاذُّ شاذّاً من غير أن يفتح له علماءُ اللغة باباً في كتب الصَرْفِ والنَحْو ، ولكنهم يعُدّون هذا الشاذّ صحيحاً . من ذلك مثلاً أنهم قالوا : لم يأتِ في الجمع المُكسّر شيءُ على وزن أفعُل (بضم العين) مُعتلّاً ولا صحيحاً ، إلا الأعُمّ (بضم العين) جمع العمّ وهو أخو الأبِ (تاج ٨ : ٤٠٩ ، السطر الأخير) . ومثل ذلك قولُ الراجز : « الحمد لله العلي الأجْلَل» (تاج ٧ : ٢٦١) ، مكانَ الأجلّ . فإذا نحن قبِلْنا

أن تكونَ لفظةُ أعُمّ جمعا لعَمّ خطأ سُمع من فَردٍ من العرب فإن لفظة « الأجْلَلِ » يجب أن تـمثّل طوراً سابقاً في النطق العربي على « أجلّ » . فالعربيّ يجب أن يكون قد قال : الأحبَبُ والأجدَدُ والأمـرَرُ والأجْـلَلُ والأقْلَلُ قبـل أن قـال الأحبُّ والأجـدّ والأمـرّ والأجـلّ والأقـلّ ، ولعله انتقل إلى قـول « الأجـل والأقلّ » بكَثْرة دَوَرَانِهما على الألسُنِ من الحاجة إلى معناهما قبل أنِ انتقلَ إلى الأجدَد والأمرر ، فاللسانُ العربي العاميّ لا يزال يألف أجدد إلى جانبِ أجدّ أكثر من ألفتهِ لصِيغة أقلل .

من عادة علماءِ اللغة في مثل هذه البحوثِ أن يقصُروا ميدانَ نظرهم على الألفاظ ؛ ومنهم من يُضيِّق ميدانَ هذا النظر فيتناولُ الأصواتَ فقط . **أما الألفاظُ فلا تصلُحُ أبدا ميداناً لمثل هذا النظر ،** إذ ليس في الألفاظ التي نَعْرِفُها اليومَ ما يمكن أن يقومَ الدليلُ على أنه الألفاظ الأولى للمعاني المقصودة . ليس لدينا اليومَ ألفاظٌ لمعانٍ حقيقيةٍ ، **إن كل لفظ لدينا قد أصبحَ يدلُّ على معنىً مجازيٍّ منذ زمنٍ سحيقٍ** ، ثم تعددتِ الإشارةُ به في تاريخنا اللغوي الطويل إلى عددٍ من المعاني المجازية مما ذكرتْهُ القواميسُ ومما لم تذكُرْهُ القواميس . فاعتمادُ الألفاظِ إذن عند البحثِ في تاريخ الكَلِمَاتِ ليس أساساً صالحاً أبداً .

ومثلَ ذلك الأصوات ، **فليس بينَ الأصوات والمعاني التي تدُلّ عليها تلك الأصواتُ صِلةٌ طبيعيةٌ ولا صِلةٌ عقلية البتّة ،** فالألمانيُّ يقول شْبايتْ Spät للدَلالة على التأخر ، بينما يأتي الألباني من أبناء البَلْقان بالصوتِ نفسِه للحَثّ على السُّرعة .

والإنكليزي يأتي بالحرف of علامة على الإضافة بينما الهُولندي قريبُ الإنكليزيّ الأدنى يَعْني بذلك الحرف عينه « أو » . والعرب يقول « نُور » للدَلالة على المصدر الأصليّ للضياء ، واللفظ نفسُه في الألمانية معناه « فقط » . واللفظ « وو » في الصِينية يَعْني العَدَدَ خمسةً ، أمّا في الإنكليزية فيدلُّ على الحُزن . فالأصواتُ والألفاظ تكتسبُ دَلالاتها في الواقع من قرائنَ اجتماعيةٍ تختلفُ باختلاف الجماعات البشرية وباختلاف حاجاتِ تلك الجماعات ، ثم لا يثبُتُ النطقُ بهذه الألفاظ على حالٍ البتّة .

من أجل ذلك كُلّهِ أرى أنّ اعتمادَ المدارِكِ ، أي المقاصِدِ الذِهْنيةِ العامّة ، أجدى وأصحُّ عند البحث في تطوُّر اللغة وفي معرفة تقدُّم بعضِ الألفاظِ على بعض في الزمن .

إن اللفظَ يتبعُ المدركَ ويأتي بعدَه ضَرورةً ، فالأصلُ في اللغة المدرَكُ الذِهني ثم يأتي الإنسانُ بالصوت أو باللفْظ الذي يُعبّرُ فيه عن ذلك المدرك . وجميعُ المدارك الذهنية اجتماعيةٌ نشأتْ من صِلَةِ الإنسانِ بما حولَه وبِمَنْ حولَه . والإنسانُ لم يتكلمْ ، أي لم يأتِ بالألفاظِ الفصيحة الدالّةِ على مقاصِدِه الفِكرية ، إلّا بعد أن شَعَرَ بالحاجة إلى التعبير عما كان يجولُ في نفسِه تِجاهَ كائنٍ آخر مثله . والمفروضُ أن هذا الكائن كانَ في أوّلِ الأمر واحداً ، ولْنَفْرِضْ ـ على سبيلِ التخيُّل والتَجْرِبة ـ أن هذا الكائنَ الآخَرَ الواحدَ كان المرأة . فإذا صحّ هذا الافتراضُ فالصوتُ الإنساني الأولُ يجبُ أن يكونَ « تَ » .هذا الصوتُ اكتسبَ في الملابسة الاجتماعية التي نشأتْ مِنَ ٱلْتِقاء شخصَيْن متشابِهَيْن مدركاً أساسياً

واحداً اتصل به مدركٌ آخَرُ لازمٌ له ثم مدركٌ ثانٍ عارضٌ . فالمدركُ الأساسيُّ هو الخِطَابُ الذي خَلَعَ على ذلك الصوتِ الأول دَلالَةً على الشخص المُخاطَبِ ثم جعل منه ما يسمّيه علماءُ الصرْفِ والنحْو « ضميرِ المُخاطب » . أما المدركَ الآخَرُ اللازمُ عن المدرَكِ الأساسيِّ الأوّل فهو الدَلالةُ على العدَدَ « آثنَيْن » لأنّ التثنيَةَ حالٌ ملازمةٌ للخطاب . ثم يبرُزُ المدرك العارِضُ ، وهو الدَلالةُ على الأُنثى ، إذا قَبِلْنا أنّ الانفعال الأوّل كان في خِطَاب الرجُلِ للمرأةِ ـ مما هو مشاهَدٌ في السلوك الاجتماعي والغريزيّ بين أفرادِ الإنسانِ وبينَ أفرادِ الحيوان الراقي .

إن التاء المهموسة التي يَرْسِمها العربُ اليومَ بثلاثِ نُقَطٍ من فوقِها أو التاءَ الواضحةَ التي نَرْسِمها بنقطتين من فوقها ـ **والشكلُ الأولُ** في ظنّي أسبقُ على الشكل الثاني في النشأة على لسان الإنسان ـ **كانَ الصوتَ الأول في الاجتماع الإنساني** دالاًّ على المدرَكِ الأساسيّ من المدارك الثلاثة المتصلة في النشأة : أنتَ ، آثنَيْن ، أُنْثى . **ولعل هذا الصوت « ت » هو أقدمُ البقايا اللغوية في الكلام الإنساني** ، ولعلّ نشأةَ هذا المدارِكِ الثلاثة كانتْ على الترتيبِ الذي ذكرتُ : أنتَ ، اثنينِ ، أُنثى . هذا الصوتُ الذي تأرجَحَ على لسان البشر بينَ اللُّيونة والصَّلابة والهَمْس والصفيرِ المعتدل (ت ، ث ، ذ ، س) لا يزال الصوتَ الأساسيَّ الدالَّ على المدركين الأولين : أنتَ ، اثنين ، في مُعْظَم اللغاتِ ، حتى في اللُّغاتِ التي لا تَعي الذاكرةُ الإنسانية اليومَ أنها اتصلتْ في يومٍ من الأيام . إن التاء هي الصوتُ الأساسي في ضمير المُخاطَب في

اللغات الأعرابية* (أنت ، أت ، الخ) وفي اللاتينية وما يشتق منها (تو) وفي اليابانية أيضا (أناتا) والروسية (تي) وفي الفارسية (تو) أما في اللغات الجِرمانية فالأصل في ضمير الخطاب الدال ، في الألمانية والدنماركية والأسوجية والنروجية (دو) .

وكذلك الصوتُ « ت » (وفي العربية الفصحى « ث ») هو الأساس في العدد « اثنين » . ومثلَ ذلك في اللغات الجرمانية : في الدنماركية والأسوجية والنروجية والهولندية والإنكليزية (وفي الألمانية تجتمع التاء بحرف صفير هو الزاي أو السين (التاء المهموسة) ، وهذه التاء ملموحةٌ أيضاً في اليابانية : فتا (بسكون الفاء) . وأما في اليونانية واللاتينية وما اتصل بهما فالدال هي الصوت الأساسيّ في العدد اثنين .

ويحسُنُ أن نُلاحظَ **أن الصوتَ الأساسيَّ في العدد « اثنين » في اللغات الجرمانية هو الذي يدُل على المخاطَبِ في اللغات المشتقة من اللاتينية ، بينما العكس صحيحٌ أيضاً** ، أي أن الصوت الذي يدل على الخطاب في اللغات الجرمانية هو الذي يدل على الاثنين في اللغات الرومانية المتحدّرة من اللاتينية . واللغة الفارسية كاللغاتِ الجرمانية ، التاء فيها للخِطَاب والدال للعدد ، مَع أن المفروض أن اللغة الفارسية أمُّ اللغات الجرمانية واللاتينية أو من أمّهاتِ تلك اللُّغات على الأقلّ . فإذا جازَ لي إبداءُ ملاحظة على هذه اللُّغاتِ كما جَرُؤتُ وأبديتُ عدداً من

---

* إن الاصطلاح « أعرابي » يجب أن يحلّ محلّ الاصطلاح الخاطىء « سامي » إنّ الشعوب التي سَمُّوها خطأً « ساميّة » ليست وحدة لغويّة ولا وحدة عرقية .

الملاحظات على اللغة العربية قُلتُ : إن جَدَّةَ اللغة الجرمانية وجَدةَ اللغة اللاتينية قدِ انفصلتا في زمن متقدم جِدّا قبل أن تتضح فيهما الدَلالةُ على المخاطَبِ وعلى العددِ « اثنين » .

ولما اتّفق للإنسانِ القديم هذا الصوتُ الرقيقُ واضحاً أو مهموساً أو قاسياً (تَ) للدَلالـة على الصِلة الاجتماعيـة في الخطاب ، ثم احتاجَ إلى التعبير عن شعورهِ تجاهَ الطبيعة التي كانت تبهَرُهُ بعَظَمتها وسُلطانها فيرى نفسَه عاجزاً مسلوبَ القُوى حِيالَها ، كان من المُنْتَظر لإبرازِ الفَرْقِ بين المدرَكَيْن بالمُقابلة أنْ يكونَ الصوتُ للتعبير عن مظاهرِ الطبيعة فَخْماً واضحاً فكان « الراءَ » . إن في الصوتَ « رَ » خاصةَ الفخامةَ والتكرارَ والاستمرارَ ، **فلَمْ يكُنْ مستَعْبَداً أن يُعبِّر الإنسانُ القديم بالصوتِ « ر » عن مظاهرِ الطبيعة الجامدة والحيّة** فتكونَ الألفاظُ الدالّةُ على تلك المظاهر الطبيعية ، وفي اللغة العربية الممثلة للُغات الأعرابية أو ممثلة للغات الأعرابية مما ثَبَتَتْ فيها الراء . فمن الألفاظ الدالة على مظاهرِ الطبيعة في اللغة العربية على غير تصنيفٍ تاريخي ، وعلى غير ترتيب في دَرَجة الحقيقة والمجاز : أرْض ، تُراب ، رمْل ، حَجَر ، صَخْر ، برّ ، بحر ، قطْر ، (بسكون الطاء : مَطَر ، أو مقاطعة ، قِطعة من الأرض) ، نهر ، بئر ، رعْد ، برْق ، مطَر ، بَرَد (بفتح ففتح) ، بَرْد (بسكون الراء) ، قرّ ، حرّ ، رَمَض ، رَمَضان (الحرّ) ، ناجر (الصيف) ، ربيع ، خريف ، شرْق ، غرب ، شجر ، ورق ، زهر ، ثمر ، بزر ، طير ، الخ . وإذا نحن اَلْتَفَتْنَا إلى اللغات الأجنبية وجدنا لهذه الراء أيضاً بُروزاً في الألفاظ الدالة على مظاهر الطبيعة . على أن ثمة مظاهرَ أصيلةً في الطبيعة لا نُعَبِّر عنها اليوم

بكلمات فيها صوت الراء ، فَيَغْلِبُ على الظنّ أن الألفاظ التي دلّت على تلك المظاهر أوّلا قد تبدّلَتْ في أثناء تاريخنا اللغويّ بعوامل مُخْتَلِفة .

وهنالك صِنفان من المدارك يجب أن يكونا قديمَيْنِ في تاريخ اللُّغة الإنسانية : **الألفاظ الجِنْسيةُ والألفاظ الدالة على القَرابات** .

أما الألفاظ الجنسيّةُ الكثيرة في اللغة العربية فلا نستطيعُ اليومَ أن نُرتِّبها ترتيباً تاريخياً بالإضافة إلى سائر الكلام ، وإنْ كنا على مثْل اليقين بأنها قديمةٌ جدّاً . وكذلك لا نستطيعُ لها ترتيباً تاريخياً بإضافة بعضِها إلى بعض ، وسببُ ذلك أن الإنسان قد أرادَ منذ فجر الحضارة الراقية أن يستُر حياتَه الجنسية فكان يُكثِرُ التنقُّل في الكلام عليها من مَجازٍ إلى مجازٍ ومن كِنايةٍ إلى كِناية حتى ضاعتْ علينا معالِمُ التاريخ في تلك المدارك الجنسية والألفاظ الدالّة عليها . وأحسَبُ أن هنالك لفظين قديمين جدا أحدهما « زَيْن » بمعنى « الآلة » ، ولعلّه هو الذي أوحى إلى الكاتبين الأولين بأن يرسموا حرف الزاي (خطّاً مائلاً) في الأبجدية الأعرابية وبأن يَرْسِموا الواحدَ على ما نألَفُ . ومعَ ذلك فالغالبُ أن هذا الأسمَ كِنايةٌ أيضاً . . . وأمّا الكلمة الثانية المشهورة فليست عَرَبيّةً في الأغلب ولا أعرابية ، بل دخيلةٌ من اللغة اليونانية من كلمةٍ دالّةٍ على الحُبّ والجِنْس وعلى إلَه الحب عند الإغريق ، وقد انتقلتْ هذه الكلمة إلى اللغات الأوروبية لتدُلّ عند أهل تلك اللغات على « الغَزَل » في قولنا شعرُ الغَزَل مثلاً .

أما ألفاظ القرابات فأكثر وضوحاً ، وخصوصاً في مَدْرَكَيِ

الأُبوّة والأُمومة ، في هذا الباب من البحث . ففي لفظ « الأبِ » دلائل كثيرةٌ على مدرك الأبوّة والألفاظ الدالة عليه قديمة جدّاً . من ذلك أن « أب » من الأسماء الخمسة ، أي بقية من العهدِ الذي كانت فيه علاماتُ الإعراب أحرفُ عِلةٍ مُلْتَصقةٌ بالكلمة . ومن هذه الدلائل كَثْرةُ الصِيَغ التي لا يزالُ القاموسُ يحفظها في تراكيبِ النداء والدعاء .
ففي النداء : يا أبت (بكسر التاء وبفتحها) يا أبتاه (بالهاء) ، يا أباة (بالتاء) ، يا أبه (بسكون الهاء) ، ثم في الدعاء : لاب لك ، لا أب لك ، لا أبا لك ، لا أباك ، لا أبك . ولا ريب في أن هذه صيغٌ مختلفة من عصور مختلفة أو من قبائلَ مختلفة ، ولكنها لا تكون من قبائل مختلفة حتى تكون من عصورٍ مختلفة ، فكل قبيلة تنفصل من أصلِ الأمة تحتفظ عادةً بطَوْرِ اللغة كما كان يومَ انفصلتِ القبيلة من أصلها . ولعلّ « لاب لك » أقدمُ الصِيَغ لأن صوتَ الباء وحدَه قد عبّر هنا عن مدرك الأبوة (راجع تاج العروس ١٠ : ٥ ، السطر ١٧) ، وإن كان صاحبُ تاجِ العروس قد قال : وحذفوا الهمزة ، ولعل الأصوب أن يقال : ولمّا تدخلِ الهمزةُ عليها (بَعدُ) .

ثم هنالك جمع « أب » على « أبون » جمعاً مذكّراً سالماً وعلى « آباء » جمعَ تكسير ، وتانِكَ صيغتان من زَمَنَيْنِ مختلفين يبدو أن الجمعَ السالم فيهما أقدمُ الجمعين . وأخيراً تأتي المداركُ المختلفة في الجذر الواحد ، ففي « أب » مدارك من الرَّضاع ، وشمُ العَنْز لأنْثاه ، والبُعولة (إن أبا المرأة زَوْجُها) وذلك كلُّه من الدَلالة على القدم في الكلمات .

ومجازاتُ الأم أكثرُ من مجازاتِ الأبِ . فأمُّ الشيء أصلُه ، والأمّ الوالدة أو الجَدّةُ وما فوقها في النسب . ومن صِيَغ الأمّ القديمةَ الأمّهة . ولذلك جاء جمع الأمّ على أمّات وجمعُ الأمّهة على أمهات . أما تخصيصُ الأولى بالإنسان والثانيةِ بالحَيَوان فتطوُّرٌ متأخر ؛ ففي تاج العروس (٩ : ٣٧٦ ، السطر ١٩) ؛ « وقد جاءتِ الأمهاتُ في ما لا يَعْقِلُ » . والغالبُ أن الدعاء ويْلُمّه ! أقدمُ صِيَغ الدُّعاء لأن الميم وحدَها هنا هي التي تدُل على مدرك الأم بينما « وَيْل » و« الهاء » كَلِمَتان دَخَلَتا على اللفظة المؤلّفة من حرف واحد من طريق الإضافة . (ويحسن أن نذكر أن في مادة « أم » في القاموس كَلِماتٍ تسرّبت إلى تلك المادة من جذور مُبهَمة قديمةٍ قد نُسِيَت خَصائصُها) .

ومثلَ « أبِ » في الحكم أَوْ أكثرُ أوجُهًا « أخٌ » فإن فيها دَلالةً من طورٍ أسبقَ لم يَصِلْ إلينا مِثْلُها معَ كلمة « أب » تلك الدَلالةُ هي تأنيثُ الاسم المذَكّر « أخ » بالتاء المبسوطة (أُخْتَ) ، وإن قال القاموس المحيط (٤ : ٢٩٨) إن التاء هنا ليستْ للتأنيث .

والكلام على أبٍ وأخٍ يحملنا إلى بقيةِ الأسماء الخمسة أو الاسماء السِتّة ثم إلى الكَلِمات التي يجب أن تكونَ تابعةً لها مثلَ عبدو وفضلو . وقد ذكرنا من قبلُ أن هذه الألفاظَ بقيّةٌ من العهد الذي كانت فيه علاماتُ الإعراب أحرفَ عِلّةٍ مُلْصَقة بالكلمات .
أما في « عمرو » فالواو تُكتَب اليومَ ولا تُلْفظ . هذه الواو في « عمرو » ليستْ للتفريقِ الشكليّ بين عمرٍو وعُمَرَ ، وإن ذَكَر القاموس أنها للتفريقِ بين الاسمين (تاج ٣ : ٤٢٣ ، السطر ٩) ؛ بل هي علامةُ الرفعِ القديمة ثَبَتَتْ في الخط .

والمعقولُ أنْ تكونَ المداركُ الأولى في اللغة مداركَ عامةً .

أما الخصائصُ (دَرَجاتُ المعنى في المدرك الواحد) فلا شكَّ في أنها تطوُّرٌ متأخر . إن تخيُّل الإنسان للقَطْع عامةً يجب أن يكون أقدَم من تخيُّل الفُروق بين أنواع القطع من التشريح (تَعْريض القِطعة من اللحم حتى تَرِقّ فتراها تَشِفّ من الرِقة) والحَسْمِ (قطع العِرْق وكَيّه بالنار كيلا يسيلَ دمُه) والقَصْب (قطع القصّاب للشاةِ عُضواً عضواً) والبَتْك (قطع الأذن) والبَتْرِ (قطع الذنب) والقصل (قطع الرقبة) . كلُّ هذه المداركِ المتقاربة في القطع يجب أن تكون متأخِّرةَ النشأةِ في خَيالِ الإنسان عنِ مداركِ القَطْع عامةً ، لأن التخصيص في أنواع القطع يأتي مَعَ التفنُّنِ والتأنق ، وهذه كلُّها من توابع التطوُّر في الحضارة .

ثم إنّ مُعْظَمَ هذه الألفاظِ الدالةِ على أنواع القطع قد تكونُ قديمة ، وقد يكونُ بعضُها أقدمَ من اللفظِ الذي جعلته لُغَتُنا العَصْرية الفصيحةُ معنىً عاماً : أي « قطع » . غير أنني أُشيرُ هنا إلى نشأةِ المدارك ولا أُشيرُ أبداً إلى الألفاظ التي اتّفق أن أُطْلقتْ على تلك المدارك بعدَ أن نشأتْ ، سواءٌ أكانتْ تلك الألفاظ ألفاظاً قديمة أُطْلقتْ فيما بعدُ على مداركَ حديثةٍ أو ألفاظاً آستَجَدّها النطقُ الإنساني لتلك المدارك . من أجل ذلك قُلْتُ في مطلعِ مقالي إن النظَرَ إلى الألفاظِ لا يُجدي للفصل في تقدُّم بعضِ الكلمات على بعضٍ في تاريخ اللغة .

وهنالك نوعٌ آخر من الكلمات العامّة والخاصة .

من هذه الكلمات الجَوْن . والجون في القاموس (٤ :

٢١١ ، راجع تاج العروس) لفظ يتعلق بـاللَّون على غير تخصيص ، إذ يدل على النباتِ إذا بدأ يَحُولُ من الخُضرة إلى السَّواد ، كما يدُلّ على الأسودِ والأبيضِ فيكونُ بذلك من الأضداد (تاج ٩ : ١٦٧ ، السطر ٧) وعلى الأحمرِ الخالص وعلى المُشْرَّب بحُمرة . ولعلّ أقدمَ المدارك في لفظة « جَوْن » اغبرارُ الأشياء التي تُرى على بُعْدٍ مُعَيّن في النور المحيط بها ، أي كلُّ كَثافة تُرى ظاهرةً بالإضافة إلى ما حولَها من البياض أوِ النور . ففي تاج العروس : الجون ما له غَبْشةٌ أو وَرْدةٌ (٩ : ١٦٨ ، السطر ١٩ ، راجع ٩ : ١٦٧ ، السطر ٣ من أسفل) ، وفي السطرِ الرابع من أسفلِ على الصفحة نفسِها مثلُ على ذلك : « كلَّ بعيرٍ جَوْنٌ من بعيد ، وكل حمارٍ وَحْشيّ جون من بعيد » .

فإذا نحن انتقلنا إلى القاموس الآرامي وجدنا أن كلمة « جون » ، بالجيم القديمة ، تقابلُ كَلِمة « لون » فحَسْبُ ، بينما الكلمة العربية تدُل على معنىً أعمَّ وأكثر إبهاماً ، فهِيَ من أجْل ذلك أقدمُ في تاريخ المدارك اللغوية من الكلمة الآرامية . والعِبرية لا تعرف من هذا الجذر إلا اسم المفعول « جوني » مصبوغ . وفي الكلدانية نجدُ من هذا الجذر صيغة ثلاثية متعدية في مقابل « صبغ : لوّن » .

ثم تكون لفظةُ « جون » العربية في لغتنا العربية نفسِها أقدمَ من كلمة أبيضَ وكلمة أسودَ الدالتين على لونين مخصوصين ، وإنْ كان علمُ الفيزياء الحديثُ لا يعُدُّ الأبيضَ والأسودَ في الألوان .

ونأتي إلى اللفظين أسودَ وأبيض : إن المدرَكَ الذهنيَّ

« أسودَ » يجب أن يكونَ ، في التعبير اللغويّ على الأقلِّ ، أقدمَ من المدرك أبيضَ لأنه أعمُّ منه في الدلالة وأكثرُ منه إبهاما . ولا ريبَ عندنا في أن المنطق يقضي بأنْ يتمثّل الذِهنُ البشريّ اللونَ الأبيض قبلَ أن يَميزَ منه ، وبالإضافة إليه ، لوناً آخر . ولكنّ الذي أعنيه أنّ الإنسان العربيّ ـ فيما أحسَبُ ـ قدِ احتاج إلى أن يُعبّر بالنُّطق عن اللون غيرِ الأبيض قبل أنِ احتاجَ إلى التعبيرِ عن اللون الأبيض نفسِه . إنَّ لفظَ « أسودَ » وَرِث لفظَ « جَوْن » وخَلَفَه في الدَّلالة والاستعمال خِلافةً تامَّةً في المدرك الأساسي ، فالسوادُ هو الشخصُ يُرى من بعيدٍ (تاج العروس ٢ : ٣٨٥ ، السطر ٣) والعددُ الكثيرُ من الناس ، وجماعةُ النخل والشجر لخُضرته واسوداده (تاج ٢ : ٣٨٦ السطر ٨ من أسفل) . أيْ لخُضرة النخْل والشجر واسودادهما إذا رُئيا عن بُعْدٍ .

وإذا سأل سائلٌ عن الأساسِ الذي قدّمتُ به لفظَ « جَوْن » في العهد على لفظ « أسود » معَ أنهما يدُلّان ـ فيما يدلّان عليه ـ على مدركٍ أساسيّ واحدٍ ، أجبتُ بما يلي : لا يُعقَلُ أنْ يكون الإنسانُ القديم قد أوجَدَ لفظين اثنين لمعنىً واحدٍ في زمنٍ واحد . وبما أنّ اللفظينِ موجودان في القاموس فلا بدَّ من أن يكون أحدُهما أقدمُ من الآخرِ . وبما أن لفظ « جَوْنٍ » قدْ قَلَّ في الاستعمال في زمنٍ متقدّمٍ أو كاد ، بينما استعمال لفظِ « أسودَ » قدِ اتسع ، قدّرت أنّ لفظ « جون » يجب أن يكون في الاستعمال اللّغوي أقدم عهداً .

ويبدو أن العــربيّ ظلّ يستعمل لفظَ « أسودَ » للدّلالة على

الشيء الكثيف مهما يكُنْ لونه ، جَرْياً على الاستعمال الأول . فالأسودانِ في القاموس (تاج ٢ : ٣٨٦ ، السطر ٧ من أسفل ٣٨٧ السطر الأول) التمرُ واللبنُ أوِ الماءُ واللبن أوِ الماءُ والفَثّ . والفث (بالفتح) : ضرب من البَقْلِ يُخْتبزُ فيُؤْكَلُ . وفي القاموس المحيط (١ : ١٧١) : الفث . نبتٌ يُختبز حبّه في الجَدْب ، وشجَرُ الحنظل . وكذلك يُقال « الأسودُ » للأحمر (راجع تاج ٢ : ٣٨٦ ، السطر ٥ من أسفل) لأن اللونَ الذي نُسمِّيه نحنُ اليومَ « أحمرَ » قد قالَ له العرب الأولونَ « أبيضُ » ، أو هو من الأضداد (تاج ٢ : ٣٨٦ ، السطر ٢١) ، قال صاحب تاج العروس (٣ : ١٥٤ ، السطر ٢٢ وما بعده) : « إن العربَ لا تقولُ أبيضُ لبياض اللون ، إنما الأبيضُ عندَهُم الطاهرُ النقيُّ ، فإذا أرادوا الأبيض قالوا : الأحمرُ » ، والعربُ تَصِفُ ألوانَها بالسَّواد وألوانَ العجم بالحُمرة (تاج ٢ : ١٨ ، السطر الأول) ، ومنه في الحديث : يا حُميراءُ ـ وخُذوا نِصْفَ دِينكم عن هذه الحُميرَاءِ ، يعني البيضاءَ ـ أيْ عائشة رَضِيَ الله عنها (تاج ٣ : ١٥٤ ، السطر ٢٤) .

ومن الكلمات العامّة والخاصّة لفظُ « جَلَل » وهو الأمرُ العظيمُ والصغيرُ ، من الأضداد (تاج ٧ : ٢٥٩ ، السطر ٧ من أسفل) . ويبدو لي أن هذه الكَلِمةَ ، تمثِّلُ صِنْفاً من الألفاظ كان يُنطَقُ بها بالجيم القديمة ، ثم انْحَلّتْ فيها تلك الجيمُ القديمة حرفين : الجيمَ المُعطّشة التي نَنْطِقُ نحنُ بها اليومَ في الحواضر ، ثم القافَ مفخَّمةً أو مُرقّقة (كافا) فكلمة « جلل » التي ثَبَتَتْ فيها الجيم معطشة (جليل) قدِ احتفظتْ بالمعنى الدالّ على العِظَم والكَثْرة حقيقةً ومجازاً وماديّاً ومعنوياً . أما التي أصبحتْ جيمُها

القديمةُ البَدْوية قافاً (قليل ، كليل) أو كافاً فقد اختصّتْ بالقِلة والصِغْر . والغالبُ على معاني الصِيغ المشتقة من هذا الجِذر في اللغات الأعرابية العِظَمُ والثِقَلُ والحَجْم الكبير والجَلال . وعلى هذا يكونُ مدركُ الكَثْرَة والثِقْلِ في الجِذْر « جلل » أقدمَ من مدرِك القِلة والصِغَر .

وفي هذا الصنفِ من الكلمات العامّة والخاصّة « هلك » ، في القاموس : « هلك » من باب ضَرَبَ (يَضْرِب) ومَنَعَ (يَمْنَعُ) وعَلِمَ (يَعْلَمُ) . ونحن نرى في هذا الفعل في اللغات الأعرابية مدركاً أساسيّاً واحداً هو الذَهابُ ثم مدركاً فرعيّاً هو السّيْر أو المَشْي . ويبدو أن هذا الفعلَ قدِ استُعْمِلَ في العِبرية مجازاً بمعنى الغَيْبة عنِ النظر وبمعنى تفرُّق السحاب ، ثم مجازاً من مجازٍ بمعنى الهلاك . ومجازاتُ هذا الفعل في الآرامية أيضاً مُتّسعة .

وانتقل هذا الفعل إلى العربية يَحْمِلُ المعنى المَجازيّ (الموت) ولكنه حمل مَعه اضطرابَ عَيْن الفعل . إذا كان معنى هذا الفعل « هَلَكَ » ذَهَبَ ، سَارَ ، مَضى ، فالأقْرَبُ إلى أن يكون من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ ، وإذا نحن أخذنا في النظر إلى حَرفِ الهاءِ وأنها حرفُ حَلْق (مَع أنها جاءت في أوّل الفعل) فيمكن أن نتساهَل ونقبَلَ أن يكونَ هذا الفعل من باب مَنَع يَمْنَع . ولكنْ ما الوجهُ في قولِ القاموس إن هذا الفعل من باب عَلِمَ يعلَمُ أيضاً ؟

لما انتقل هذا الفعلُ إلى اللُغة العربية انتقل إليها من المَجازِ (بمعنى هلك : مات) ، ولكنه حمل معَه الحركةَ الأصليةَ لِعَيْن الفعل بمعنى ذَهَبَ فكان من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ ، وعليه في التنزيل

الكـريم : « لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنَة » (٨ : ٤١ ، سـورة الأنفال) . غير أنّ العربيّ القديمَ تناول هذا الفعلَ من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ . ومعَ الأيام غَمضت روايةُ هذا الفعل في الذاكرة العربية فأخذتْ جماعاتٌ تفتَح عين الفعل (لامَ هلك) في الماضي والمضارع لمكان الهاءِ ، وهي حرفُ حلقٍ يقتضي أحياناً فتح عين الفعل (مع أن الهاء في « هلك » جاءت متطرفة أولا) . وعلى ذلك أصبحَ هذا الفعلُ من باب مَنَع يَمْنَعُ أيضاً . ثم نظرتْ جماعةٌ أُخرى في معنى الفعل (الانتقال من حالٍ إلى حال) ، وهذا يقتضي جَرْياً على القاعدة العامّة أن تكونَ عينُ الفعل مكسورةً في الماضي مفتوحةً في المضارع ، ففعلتْ تلك الجماعةُ ذلك فأصبحَ هذا الفعلُ من بابِ عَلِمَ يَعْلَمُ أيضاً . وجاء جمّاعو اللغة فوجدوا أحوالَ العينِ الثلاثَ مَرْوِيّةً فوضعوها في القاموس . غيرَ أنّ الروايَةَ الأوسعَ والأثْبَت كانتِ الروايةَ التي عليها التنزيلُ (هَلَكَ يَهْلِكُ من باب ضَرَبَ يَضربُ) . من أجل ذلك قال صاحبُ تاج العروس (٧ : ١٩٤ ، السطر ١٠ وما بعده) : وقيل (أي في مجيء « هلك » من باب مَنَعَ وعَلِمَ) غلطٌ !

ثم خضع هذا الفعلُ « هلك » لتطوُّر آخَرَ . إن « هلك » في الأعرابية القديمة لازمٌ ومتعدٍّ ، قال (القاموس) : هلك بمعنى سار وبمعنى سيّر (بالتضعيف للتعدية) . ولذلك قال العربيّ الأوّل ، لما أخذَ هذا الفعلَ عن إخوانه الأعرابيّين : هلك الرجلُ (بمعنى مات) وهَلَكَني الرجلُ (بمعنى أتْعَبني ، أماتني ، قَتَلَني) . وفي تاج العروس (٧ : ١٩٤ ، السطر ١٠ من أسفل) عن رُؤبَة بن العَجّاج يُقال : هَلَكَني بمعنى أهْلَكني ، ولا يزالُ العوامُّ إلى اليوم

يقولون كذلك . ويبدو أن الذائقةَ العربية حَرَصت على آطّرادِ القاعدةِ فأبْقَتْ للفعل اللازمِ صيغةَ فَعَلَ (هَلَكَ الرجلُ) ونقلتِ المعنى المُتعدّي إلى صِيغة أَفْعلَ مزيداً بالهمـزةِ (أَهْلَكَ الله الظالمين) .

بعدئذ خَضَعَ هذا الفعلُ لتطوُّر ثالث : كان معنى الفعلُ « هَلَكَ » في كلام العربيِّ القديم « مات » ، ثم أصبحَ معناه « مات مِيتة سيّئة » ، جاء في تاج العروس (٧ : ١٩٤ ، السطر ١٠ وما بعده ثم السطر ٢٤ وما بعده) : هَلَكَ : مات ، واختصاصه بِمِيتَةِ السوء عُرْفٌ طارِىء لا يُعْتَدّ به بدليلِ ما لا يُحصى من الآياتِ والأحاديث . ولِطُرُوء هذا العُرْف قال الشِهاب في شرحِ الشفاء : إنه يُمْنَعُ إطلاقُه (أيِ استعمالُ الفعلِ « هلك » بمعنى مات) في حق الأنبياء عليهِمُ السلام : ولا يُعتدُّ بأصلِ اللغة القديمة .

أما الأُسُسُ التي اتّخَذْتُها في تقديمِ بعضِ المداركِ اللغوية والألفاظ الدّالّة عليها على بعضٍ فـأبَ أنْ أجْمَعَها مُوجزةً في ما يلي :

١ ـ اتصالُ التطوُّرِ اللُّغويّ في النُّطق كثيراً أو قليلاً ، فكلّ لُغةٍ مَحْكِيةٍ اليومَ أو مكتوبةٍ تتّصل بلغة قديمة ضاعتِ اليوم .

٢ ـ لا نَعْرِفُ اليومَ اللغةَ التي تكلّمها الإنسانُ الأول ، ولكنّنا نستطيعُ أن نَعْرِفَ **أن بعضَ المعاني كان أقدمَ من بعضٍ في خَيالِ الإنسان القديم** ، وأنّ بعضَ الألفاظِ كان أقدَم من بعضٍ على لسانِ الإنسان القديم .

٣ ـ يُنْتَجُ مِمّا تقدّم أن في كل لغةِ اليومِ بَقِيّةً من اللغة القديمةِ أو اللغاتِ القديمة للبشر .

٤ ـ إن ما نُسَمّيه اليومَ شواذَّ في اللغة إنّما هو بَقايا من اللغة القديمة ، وهذه التي نُسمّيها شواذَّ أقدمُ عهداً من الألفاظِ الجارية على القواعدِ الحاضرة .

٥ ـ الإعلالُ والإبدالُ والإدغام والتضعيف أحوالٌ طارئةٌ على اللسان العربي ، ولقد كانتِ الصيغُ التي نُسمّيها اليـوم مُعتَلّةً ومُضعّفة تجري مجرى صِيَغِ الأفعال السالمة ، فإنّ صِيَغاً مثل : مَـدَدَ ، أجلَل ، سَيَرَ ، أقدَمُ عهداً من الصيغ التي نستعملُها اليومَ : مدّ ، أجلَّ ، سارَ .

٦ ـ إن آعتمادَ الصورة الذهنية في تأريخِ الكَلِماتِ أجدى مِنَ آعتمادِ الألفاظِ والأصوات .

٧ ـ إن تعدُّدَ المداركِ المُتبايِنَةِ أوِ المتفاوتة في الجِذرِ الواحد دليلٌ على قِدَمِ ذلك الجِذر .

٨ ـ عمومُ المعنى وإبهامُه دليل على قِدَمِ اللفظ الدّالّ عليه . أمّا الخصائصُ في اللغة فهي من طوْرٍ متأخِّرٍ مُتَعلّقٍ بتطوُّرِ حاجاتِ الإنسان وبتأنُّقِهِ في التعبير عما كان في خَياله .

٩ ـ يجب أن تكونَ **أكثر الصِيغِ اختصاراً أقدمُها عهداً** . والصيغ الطويلةُ : تَنَزّه ، استقدَمَ ، اخْضَوْضَر ، يجب أن تكونَ قد زادَتْ فيها الأحرُفُ فيما بعدُ حينما بدأ العربي (أو الأعرابيُّ) يتوسّع في أسبابِ الحَضارة وفي التعبير عن أسبابِ الحضارة . ولا

شكّ في أن العربيَّ قد لجأ إلى النَحْتِ فطالتْ بذلك الكَلِماتُ القديمةُ على لِسانِه في مثل « تَلاشى » ومثل « تَمسْكَنَ » وتَمسْلَمَ وتَمتَّعَ . ولا ريبَ في أنّ تنازُعَ اللغويّينَ في تأرْجحَ « وتَمرْجَح » وأمثالِهما إنّما هو خِلافٌ في تعليل نشأة هذه الألفاظ .

١٠ - يبدو أن جميعَ الكَلِمات العربيةَ كانتْ مثلَ الأسماء الخمسة تُعْرَبُ بالحروف . أمّا الأسماءُ الخمسةُ أو الأسماء السِتّة وما يَلْحق بها فهي بقايا من طَوْرِ إعْرابِ الكلماتِ بالأحرُف . وإنّ لفظةً مثل « فَمَوَيْهِما » في قولِ الفرزدق : « هما تَفَلا في فيَّ من فَمَوَيْهما » تدُلّ على الطَورِ الذي بدأ فيه اللسان العربي يخرُجُ بالأسماء من الإعراب بالحركات إلى الإعراب بالحُروف . هذه اللفظةُ تدل على الطَوْرَيْن معاً . ثم إن هذه اللفظةَ قد تقُصّ علينا تاريخاً جديداً : تدُلّ على أن « فَمو » كانتْ في عهدٍ قريبٍ للفَرَزْدقِ لا تزالُ كَلِمةً تتبَعُ قاعدةَ الأسماءِ الخمسة .

١١ - إن خروجَ كلمةٍ من الاستعمالِ وحُلولَ غيرِها مكانَها يدُلّان على أن الكلمةَ التي خرجتْ أقدمُ عهداً ، إذ تدُلانِ على أنّ المدركَ الذِهْنيّ المُتَعلِّق بهما قديمٌ وأنه خَرَجَ من لفظٍ كثيرِ العَمومِ والإبهامِ إلى لفظٍ أكثرَ خُصوصاً ووُضوحاً .

١٢ - إن الجُذورَ التي تَجْمَعُ مداركَ ذِهنيةً مختلفةً تدل على أحد شَيْأيْنِ : إمّا أن تكونَ من طَوْرٍ كانتِ الكَلِماتُ فيه تدُلُّ على مَعانٍ عامّة مُبْهَمَةٍ ، وإمّا أنّ معانِيها اختلطتْ بمعانٍ لجذورٍ قارَبَتْها في اللفظ في أثناء التطوُّر الذي خضع له النُّطقُ العربيُّ أوِ النُّطق الأعرابي .

١٣ - لعل « التاء » قد بدأتْ علامةً على التخاطب ثمّ على العدد آثنَيْن ثم الى الأُنثى ؛ ولعلَّها أقدمُ الألفاظ التي وصلتْ إلينا من اللُّغات الأعرابية ومن اللُّغات الآريّـة . ويلي هذه التاءَ في القِدَمِ مُعْظَمُ الكَلِماتِ المتّصلةِ بمظاهرِ الطبيعة ، والتي نجدُ في حروفها صوتَ « الراء » .

١٤ - إن الكلماتِ التي دَلّت على المدارك الجنسية يجب أن تكونَ قديمةً جدّاً ، **غيرَ أن التعبير عن المعاني الجنسية كان يجري دائما في مجازاتٍ تتبدّل في أوقاتٍ مُتقاربة** ، كلما شعر الإنسان أن المجازَ الذي استعملَه قد قاربَ أن يُصبحَ لفظاً حقيقيّاً دالاًّ دَلالة واضحةً على ما يريد هو أن يتكلمَ عليه من طَرْفٍ خفيّ . ويلحقُ بالألفاظ الجنسية الكَلِماتُ الدالةُ على القراباتِ . ولعلّ الكلمةَ « هنو » التي يجوزُ إعرابُها بالحروفِ وبالحركاتِ مُخضرمةٌ تمثّلُ دورَ الانتقالِ من طورِ إعرابِ الأسماءِ بالحروفِ إلى طورِ إعرابِ الأسماءِ بالحَرَكاتِ وتقومُ دليلاً على أنّ جميعَ الأسماءِ في العربيةِ الأولى كانتْ تُعرَبُ بالحروفِ .

التعقيبات

الدكتور محمد مَهْدي علاّم : بقطع النظر عن رأي الأستاذ المحاضر في الكلمتين « عبده » و« عمرو » ، فإن كل ما جاء خلافَ ذلك من آرائه الاجتهادية جديرٌ بالنظر والدراسة ويفتَحُ باباً في فِقه اللغة . وكل ما أرجوه فوق شُكري له هو الإشارةُ التي أشار إليها وهي أن قُدامى اللغويين كانوا مُكتفين في ألفاظِ الجِنس بالكناية

والتَوْرِيَة ويتجنّبون ذِكْرَها صَراحةً . وقد تأدّب الأستاذُ المحاضر بأدبِهِم فلم يذكُرْ لنا شيئاً منها وجَعَلَنا نفهَمُ ما يَرْمِزُ له بالتخمين والاستنتاج . وأقولُ إن استعمالَنَا لكلمتي « الألفاظ الجنسية » هو من باب الكناية ويُشير إلى المعاني الحديثة التي يستخدمها الكتّاب المُحدَثون .

الأستاذ محمد بهجة الأثري : نحن هنا في مجمعِ اللغة العربية وفي اجتماعٍ عِلْمِيّ ، أرى أنْ لا حياءَ في أن يُسَمِّي الأستاذ المحاضرُ الأشياءَ بأسمائها . إن كل كتبِ اللغة العربية تدُلّ على حيوية خاصّة عند العرب ، فإذا أخذْنا « القاموسَ المحيط » مثلا ، فإننا لا نكادُ نمُرّ بصفحة منه حتى نَجِدَ الكثيرَ من الألفاظ التي تجنّبَ الأستاذُ المحاضرُ ذِكْرَها . فلماذا يحرُمُ علينا ذلك ؟ نحن في سبيل بحثٍ علميّ وهذه الألفاظ التي تَعَرّضَ لها إنما نريدُ بها الاستنارةَ في البحث .

الدكتور محمد كامل حسين : قال المرحومُ الأستاذ العقادُ لا حياءَ في الأدب ، ويقول الأستاذُ الآن لا حياءَ في اللغة ، فما الشيءُ الذي بَقِيَ الحياءُ فيه ؟ ورأيي أنه لا ضَرورة لِذِكْرِها .

مِن مَدارِكِ القاموسْ *

ما زِلتُ أعتقد أن القاموسَ العربيّ ليسَ قاموساً فحسَبْ ، بل هو قاموسٌ ، أيْ قائمةٌ للألفاظِ اللغويّة ، ومُوسِعَة تاريخية ، وصورةٌ للحَضارة ، وصحيفة للعلم ، وكتاب في علم النفس .

وكُنتُ في أثناءِ قراءاتي المتكرّرة للقاموس - وأعْني بالقاموس هنا « القاموسَ المُحيط » للفيروزابادي[1] - أستغربُ كَثْرَةَ الألفاظِ الجِنسية ، حتى خُيِّلَ إليّ أنه لا تخلو مادّة من موادِّ القاموس العربيّ من لفظ جِنْسي دالٍّ على إسْمٍ أو فعلٍ أو حالٍ لذلك الجانبِ من حياةِ البشر وحياة الحيوان .

كان قد لَفَتَ نَظَرِيَ وُرودُ جُملةٍ في كِتابِ « فِقه اللغة للثعالبي »[2] هي : لعلّ أسماءَ النِكاح تبلُغُ مِائَةَ كَلِمَةٍ عن ثِقاتِ الأئِمّةِ ، بعضُها أصْلي وبعضُها مَكْنِيّ » .

* ألقي هذا البحث في الجلسة الثالثة من الدورة السابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية (القاهرة) ، من ذي الحجّة إلى المحرّم ١٣٩٠ - ١٣٩١ (فبراير / شباط - مارس / آذار ١٩٧١ م) .

(١) الطبعة الثانية بالمطبعة الحسينية بمصر ، ١٣٤٤ هـ .

(٢) مطبعة السعادة بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م ، ص ١٨٠ .

وعدَدتُ أنا الألفاظ المتعلِّقة بهذا المدركِ في القاموس فوجَدتُها تزيدُ على ألفٍ ومِائتَيْنِ ، منها في فعل الإنسانِ وحدَه - وفي الجزء الأول من القاموس فقط - سبعون لفظاً على الأقلّ .

وحاولتُ تعليلاً لهذه الكَثْرة فكان أولّ ما خطَر ببالي أن يكونَ القاموسُ قد جَمَعَ هذه الألفاظَ الكثيرةَ من لَهَجاتِ القبائِلِ ، ولكن سَرْعانَ ما بانَ لي أنَّ الكَثْرَة الغالبةَ من هذه الألفاظِ من الفَصيح المألوفِ وليسَ فيها شيءٌ من الغريبِ الذي تتّسِمُ به لَهَجاتُ القبائل عادةً .

وكذلك لم يَستَقِمِ التعليلُ الذي يمكنُ أن يرُدَّ هذه الألفاظَ إلى أنّ العرب كانوا يُحبّونَ هذه الألفاظَ لِذاتِها .

وضَمَمْتُ جُملةَ الثعالبي • إلى عددٍ من الجمل الواردة في القاموس في هذا الباب ، فبانَ لي أنّ جانباً كبيراً جدّاً من هذه الألفاظِ هو من باب الكِناية ، ولم أستطِعْ أن أهْتَدِيَ إلى لفظٍ منها أصْليٍّ أصيلٍ ، أيْ دالٍّ على حقيقةٍ لا على مَجازٍ .

والانتقالُ بالمعاني من الألفاظ الحقيقية إلى الألفاظِ المَجازية جانبٌ من جوانبِ العبقرية العربية في اللغة ، فإن اللفظَ الواحدَ إذا استمرَّ مُدّةً طويلةً في الدَّوَران على الألسنة والأسْماع فقَدَ تأثيرَه البلاغيَّ فَفَقَدَ قيمتَه الاجتماعية .

من أجلِ ذلك كانَ العربيُّ ينتقلُ باللفظِ من مَجازٍ أصبحَ مألوفاً ضعيفَ التأثيرِ إلى مَجازٍ جديدٍ أحسَن وقعاً في النفس وأحسنَ أثراً فيها .

غير أن الذي حدث في الألفاظِ الجنسيةِ كان خِلافَ ذلك تماماً .

كان العربيُّ يَكْني عنِ المدركِ الجنسيّ بلفظٍ مألوفٍ عموماً قليلَ الدلالة على ما قَصَدَ به إلاّ بين المتخاطِبَيْنِ ؛ فإذا اشتهرَ هذا اللفظُ ودلّ على ما كان يَكْني عنه صَراحةً اسْتَحْيا العربيُّ مِنَ الاستمرارِ في استعمالِه ، فانتقلَ إلى كِنايةٍ جديدةٍ غامضةٍ على غيرِ المتخاطِبَيْن .

من أجل ذلك - فيما أظنُّ - كثُرَتِ الألفاظُ الجنسيةُ في القاموس العربيّ هذهِ الكَثْرةَ . ولم تكنْ هذه الألفاظُ من الكِناية عن ذلك المدركِ ألفاظاً عامَّةً في جميعِ الأحوال بينَ جميعِ قبائلِ العرب ، بل كان منها أحياناً ما هو ألفاظٌ خاصّة بأصْقاعٍ أو جماعات . ولعلَّ عدداً من هذه الألفاظ يَرْجِعُ سَكُّها إلى أفرادٍ أو إلى نفرٍ قليلين في بيئاتٍ مخصوصةٍ ؛ فلقد سَمِعْتُ أنا مِراراً للمعاني الجِنسية صِيغاً كثيرةً مُشتقةً من جُذورٍ فصيحةٍ مألوفةٍ ، ثم لم أجدْ هذه الصيغَ لهذه المعاني في القاموس .

* * *

ولَفَتَ نَظَرِيَ في القاموس أمرٌ آخَرُ : صِيَغٌ فُرادى طِوالٌ . والصيغة الفردُ هي الصيغةُ التي ليس لها في القاموس أختٌ من جِذْرِها ، نحو اقعَنْصَر : تقاصَرَ إلى الأرض (٢ : ١٢) ، والقَفَنْزعة : المرأة القصيرة جدّاً (٣ : ٧٢) ، والدَغْشوقة : القصيرة (٣ : ٢٣١) ، والجزولق : القصير (٣ : ٢٢١) ، والقَنْدويل : العظيم الرأس (٤ : ٣٦) .

إن كلّ صيغةٍ من هذه الصِيَغِ وأمثالِها هي الصيغةُ الوحيدة الواردة من جذرِها في القاموس . ثم إن هذه الصيغ تدُلّ في الغالبِ على أقطار الجسم ـ جسمِ الإنسان في الأغلب ـ كالطول والقِصَر والضخامة .

وتَكْشِفُ لنا هذه الصِيَغُ الفُرادى الطِوالُ جانباً آخرَ من خصائص اللغة العربية .

إن المعروف عن اللغة العربية أنها ـ مثلَ أخَواتها الأعرابيات وبِخلافِ اللغاتِ الآرية ـ لغةُ اشتقاقٍ لا لغةَ نَحْتٍ . غيرَ أنّ عدداً من هذه الصِيَغِ نحتٌ لا شكّ في ذلك .

إن لفظة « جَلَنْبَلَق » مثلاً ، هي كما في القاموس : « حكاية صوتِ بابٍ ضَخْمٍ في حال فتحه وإصفاقه ، جلن على حِدَةٍ وبَلَق على حِدَةٍ (٣ : ٢١٨) . ثم أننا نجد في القاموس « بلق » جذْراً مستقلاً معناه « فتح الباب كُلَّه أو (فتحه) فتحاً شديداً وأغلقه » ، وهو من الأضداد (٣ : ٢١٥) . وكذلك نجد في القاموس « جلن » جذراً مُستقلاً معناه : « حكاية صوت باب ذي مِصراعين يُرَدّ أحدُهما فيقول : جلن ، ويُرَدّ الآخَرُ فيقول : بلق (٤ : ٢١٠) . ومثل ذلك « الحيثلوط » ، وهو شتمٌ اخترعه النساء ولم يُفَسِّروه (أي لم يَعْرِفِ العلماءُ معناه) . وكأن معناه : (المرأة) الكَذّابة السَلّاحة (وهُوَ) مركَّبٌ من حلط وحثط أو ثلط (٢ : ٣٥٣) .

ثم إن هذه الكَلِمَة « الحيثلوط » تنقُلُنا إلى مدركٍ ثالثٍ من خصائص اللغة : إلى ارتجـالِ الألفاظ ، وليس في ذلـك ما

يُسْتَغْرَبُ . أليس عَمَلُنا نحنُ هنا* أن نرتجل الألفاظَ لآلاتٍ وأدواتٍ ومِوادَّ ومدارِكَ لم تخطُرْ في بال أسلافِنا أو لم تكن مُسَمَّياتُها من نِطاق عالَمِهم ؟

غيرَ أنّ عملَنا هنا يختلف من عملهم هناك : نحن نجتمعُ ونفكّر ونُناقِش ثم نَضَعُ اللفظَ ؛ وكان أحدُهُم ينفعلُ وحدَه فيجري على لسانه لفظ ، فيُصبحُ هذا اللفظُ جُزءاً من تُراثِنا اللغويّ نُضيفه إلى القاموس .

ولقد وَرَدَ في شعرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَلْت ـ إذا كان له شعرٌ وَصَلَ إلينا ـ ألفاظٌ غريبةٌ كالشينقور مثلاً ، فجاء في القاموس : الشينقور ، هكذا جاء في شعر أمية بنِ أبي الصلت ، ولم يفسِّروه « أي لم يَعْرِفوا معناه) .

وأنا الآنَ لا يُهمُّني أميَّةُ بن أبي الصَلْت ولا ذلك الذي يمكن أن يكون قد وَضَعَ شعراً على لسانِ أُميّةَ بنِ أبي الصلت . ولكنّ اهتمامي يَدورُ على أنّ علماءَ اللغة قد أوْلَوْا هذا اللفظَ وأمثالَه عِنايةً فقَبِلوه وقَبِلوها في كُتُبِ اللغة وَوَضَعوا بذلك قاعدةً لِسَكّ الألفاظ . وإذا كنا نحن إلى اليوم لا نزالُ نُجادل في هذه الألفاظِ التي قَبِلها علماءُ اللغة العربية ـ لأنها أمثلةٌ تحتمل الجِدال ـ فإننا عادةً لا نجادل في القاعدة الموضوعة . ثمّ إن مِنَ الكَلِماتِ التي تَرْبِطُ بينَ هذه القاعدةِ والأمثِلة عليها ما وَرَدَ من قولهم في القاموس (٣ : ٦١) عيّع القومُ تعييعاً : عَيُوا عن أمر قَصَدوه . وفي كتب التصريف

* في مجمع اللغة العربية .

(والكلامُ لا يزال من القاموس المحيط) عايَبْعت عِيَعاً ، ولم يُفسّروه . وقال الأخفشُ : لا نظيرَ له سوى حاحيت وهاهيت .

* * *

ولَفَتَ نَظَرِيَ في القاموس وُرودُ أسماءِ الشعراء . والقاموسُ في الأصلِ فِهْرِسٌ يُفَسِّر ألفاظَ اللغة ، وليسَ من المُنتظر أن يكونَ كتاباً في تاريخ الأدب . ولو أنّ القاموس يكتفي بإيرادِ ألقابِ الشعراء مثل قوله : طَرَفَةُ لَقَبُ طَرَفَةَ بنِ العبد واسْمُه عَمْرُو (٣ : ١٦٧) ، والخليعُ لقبُ الحُسينِ بنِ عبدالله الضحّاكِ الشاعرِ (٣ : ١٩) ، والبَبَّغاءُ لقبُ أبي الفرجِ عبدِ الواحِد بن نَصْرِ المخزوميّ الشاعرِ (٣ : ١٠٣) ، كما يُثْبِتُ نُعوتَ السيف ونعوتَ الأسدِ لجازَ أن يكونَ ذلك كُلُّه من نِطاق القاموس .

ولكنْ حينما نقرأ في القاموس في مادّة أ ن ف (٣ : ١١٩) : « وأنفُ الناقة لقبُ جَعْفَرِ بن قُرَيعٍ أبو بَطْنٍ من سَعْدِ بن زيدِ بنِ مَناةَ لأنّ أباه نَحَرَ جزوراً فقسَم بينَ نِسائه ، فبعثتْ جعفراً أُمُّه ، وقد قَسَمَ (أبو جعفرٍ) الجَزورَ ولم يَبْقَ إلاّ رأسُها وعُنُقُها فقال (له أبوه) شأنَك به . فأدخَلَ (جعفرٌ) يَدَهُ في أنْفِها وجعل يَجُرّه فلُقِّبَ به . وكان (بنو جعفرٍ) يغضَبون من (هذا اللقبِ) . فلمّا مَدَحُهم الحُطَيْئةُ بقولِهِ :

قومٌ هُمُ الأنفُ، والأذنابُ غيرُهُمُ ؛ ومَنْ يُسَوّي بأنفِ الناقةِ الذَنَبا !

« صار اللقبُ مَدْحاً » . فإنّ هذهِ المعارفَ تُصبِحُ تابعةً للتاريخِ وللأدب وتخرُجُ من نِطاقِ القاموس .

ونقرأ في القاموس (١ : ٣٢٠) : « وعيدان السقاء بالكسر

والدُ أحمدَ بنِ الحُسينِ المُتنبي » ، كما نقرأ فيه (٣ : ٣٦) : « وسَبْعينَ قريةً بحلَبَ كانتْ إقطاعاً للمُتنبي من سيفِ الدولة » فنلومُ الفيروزاباديَّ على هذا الاستطرادِ الذي ليس من نِطاق القاموس . ولكنّنا ـ من جانبٍ آخرَ ـ نشكُره لأنّه حلَّ لنا إحدى المشاكلِ الصغيرةِ في حياة المتنبي .

إنّ نفراً من الدارسين قد أضاعوا وقتاً كثيراً في أمرٍ لا يحتاجُ إلى تَضييعِ وقتٍ كثيرٍ لمّا اختلفوا في مكانة أُسْرةِ المتنبي .

فقالَ بعضُهم : إنّ المتنبي كان من أُسْرةٍ وَضيعةٍ ، وكان أبوه سَقّاءً للماء في الكوفة ، وكان يُدعى عَبدانَ السَقّاء[1] . وقال بعضُهم : إنّ المتنبي كان ابنَ أُسرةٍ شريفةٍ ، بدليلِ ما وَرَدَ في بعض شعرِه من الفخر والتمدُّح .

وقد يكونُ المتنبي ابنَ أسرةٍ مشهورةٍ أو مغمورةٍ ؛ والأصلُ المشهورُ أوِ المغمور رُبّما أثَّر على حياةِ الأديب وربما لم يؤثِّرْ . غيرَ أنّ الذي يُهِمُّني هنا أن قراءةَ القاموس واستطرادَ صاحبِ القاموس قد حلّا لنا مشكلةً . إنّ الذي زَعَمَ أن المتنبي كان ابنَ رَجُلٍ يُسمّى عَبدانَ السقّاء ، كان يَسقي الماء في الكوفة لا سَنَدَ له . فالمُجْمَعُ عليه أنّ والدَ المتنبي اسمُه الحُسينُ لا عَبدانَ . ثم إن جُملة الفيروزاباديَّ في قاموسِه تذكُر أمراً معقولاً ، هو أن والد المتنبي كان يُلقّبَ بعِيدان السِقاء ـ ولعلّ ساقَيْه كانتا طويلتين تُشبهان قوائمَ حَمّالةِ جرارِ الماء . ويبدو أن كلمتي عَبْدان السقّاء تصحيفٌ لِكَلِمتي عِيدان السِقاء تصحيفاً غيرَ مقصودٍ أو مقصوداً .

(١) راجع ، فوق ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

هاتانِ القِصّتان : قِصةُ جعفرِ بنِ قريعٍ أنفِ الناقة ، وقِصة عِيدان السِقاء . يجب أن تَنْتَهِيا بنا إلى حُكْمٍ .

في التاريخ نوعانِ من المصادر : المصادرُ المقصودةُ ؛ كالوثائقِ الرسمية والكُتب المُؤلّفة في التاريخ ، ثم المصادرُ المُساعدة كدواوينِ الشعرِ والقواميسِ والكُتب التي لم تُؤلَّفْ في التاريخ ولكنْ وَرَدَ فيها إشاراتٌ تاريخية عَرَضاً . وعِندي أنّ الوثائقَ الرسمية والكتب المؤلَّفة في التاريخ تأليفاً مقصوداً قد يتسرّبُ إليها الخطأ سَهْواً أو عَمْداً . وكثيراً ما تأتي الوثائقُ الرسمية والإحصاءاتُ الدَوْلية أبعدَ ما يكون البعدُ عنِ الحقيقة والواقعِ ، فقد رأينا المأمونَ مثلاً يمحو اسمَ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ عن قُبّةِ الصَخْرة في القُدْسِ ، ثم يُثْبِتُ اسْمَه هو مكانَ اسمِ عبدِ الملك . ولكنّ الذي قام بهذا العمل للمأمون كان غَبِيّاً جِدّاً ـ أو كان ذَكِيّاً جدّاً ـ فترَكَ التاريخ « سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وسَبعينَ » ، بلا تبديلٍ (أما المأمونُ فكان بعد ذلك بمِائةٍ وخمسينَ سنة) .

أما أصحابُ المصادرِ المُساعدة ، كالشُعراء وواضعي القواميس من القُدماء فإنهم يستَطْرِدونَ أحياناً إلى إشارات تاريخيّة عَفْواً ومن غيرِ أن يكونوا خاضعين لأحوالٍ مُعيّنة . وإذا جاز أن يخضَعَ الشاعرُ في بعضِ شعرِه لمثلِ تلك الأحوالِ ، فإنّ واضعَ القاموسِ يكون أقلَّ خُضوعاً لها . من أجل ذلك كانتِ المصادرُ المُساعدةُ ـ والقواميسُ منها ـ ذاتَ قيمةٍ كبيرةٍ في دراسةِ تاريخِ الحضارةِ وفي دراسةِ التاريخ السياسيّ أحياناً .

* * *

ولفت نظري أيضاً ـ في أثناء مطالعاتي في القاموس ـ وفرة الألفاظ الفلكية .

الألفاظ الفلكية تتناول كلّ ما في الجو المحيط بالأرض التي نعيش عليها وكلَّ ما يحدُث في هذا الجوّ : ونحن نَقْسِم ذلك كلَّه قسمين اثنين :

قسماً يتناولُ الآثار العُلوية أوِ الأحوالَ الجوّيّة عامّة ، كالحرارة والبرودة والرياح والأمطار والصواعق والثلج وقوسَ قُزَحَ وما يشبه ذلك ، ثم قسما يتعلق بالقمر والشمس وبسائر الكواكب والنجوم . وقد صرفت النظر في هذا المقال عن ألفاظ القسم الأول واكتفيتُ بالكلام على القسم الثاني .

ثم إن القسم الثاني نفسه ينقسم بدوره قسمين :

قسماً يتناول الأحوال التي تتصل بالأجرام السماوية كطلوعها وغروبها وبالطُفاوة حول الشمس والهالة حول القمر وبالخسوف والكسوف وبالقِرانات ، فصَرَفتُ النظر عن هذه كُلِّها لأنّ هذه الأحوالَ أحوالٌ عارضةٌ تتبدّى للإنسان الواقف على أرضنا وليست في الحقيقة من أحوال الأجرام السماوية على الحصر .

وفي القسم الأخير جانب يتعلق بأسماء الأجرام السماوية . وقد جعلت همِّي هنا هذا الجانب وحدَه .

غير أنني أحببت أن أسرد أوّلاً أسماء الأجرام السماوية التي وردت في القاموس المحيط منسوقة على الأحرف الهجائية قبلَ أن أنظر في شيء من خصائص تلك الأسماء .

أبو عُذرها : نجم إذا طلع اشتدّ الحر (٢ : ٨٦) .

الأبيض : كوكب في حاشية المجرّة (٢ : ٣٢٥) .

الأثافيّ : كواكب بِحيال القِدر (٣ : ١١٦) - راجع القدر .

الأحور ؛ كوكب ؛ المشتري (٢ : ١٥) .

الأخذ : نجوم الأخذ .

الأُدْحِيّ : منزل القمر (٤ : ٣٢٧) .

الأزهر : القمر (٢ : ٤٣) .

الأسد : راجع الزُبرة .

الأشراط : راجع الشَرَطان .

الأزهران : القمران ، أي الشمس والقمر (٢ : ٤٣) .

الأظفار : كواكب قدّام النسر (٢ : ٨١) .

أظفار الذِئبين : كواكبِ صغار قدّام الذئبين (١ : ٦٧) - (راجع الذئبان) .

الأعزل : أحد السِماكين (٤ : ١٥) - راجع السماك .

أعلاط الدراري : الكواكب التي لا أسماءَ لها (٢ : ٣٧٤) .

أعناء السماء : نواحيها (٤ : ٣٦٧) .

الأعيار : كواكبُ زُهْرٌ في مجرى قَدَمَيْ سُهيل (٢ : ٩٨) .

أفراد النجوم : النجوم التي تطلع في آفاق السماء (١ : ٣٢٢ - راجع فرود النجوم) .

الإكليل : منزل للقمر أربعةُ نجومٍ مصطفّة (٤ : ٤٦) .

إلَهة : الهلال ؛ الشمس (٤ : ٢٨٠) . وسميّت الشمس إلهة من « لاه » : علا وارتفع (٤ : ٢٩٫٢) .

أمّ النجوم : المجرة (٤ : ٧٦)

أناهيد : الزُهَرة (١ : ١٦١) .

أنف الأسد = راجع النثرة .

الأنهران : العوّاء والسِماك لكثرة مائهما (٢ : ١٥٠) .

باب السماء = شَرَج السماء .

الباحور : القمر (١ : ٣٦٨) .

البادر = البدر .

البدر : القمر الممتلىء (١ : ٣٦٩) .

البرج : أحد بروج السماء (١ : ١٧٨) .

البرجيس : النجم ؛ المشتري (٢ : ٢٠٠) .

بِرقِع وبُرْقُع : اسم للسماء السابعة أو الرابعة أو الأولى (٣ : ٤) .

بطن الحمل = البُطين .

البطين : منزل للقمر ثلاثة كواكب صغار كأنها أثافيُّ ، وهو بطن الحمل (٤ : ٢٠٢) .

البلد : منزل للقمر (١ : ٢٧٨) .

البلدة : رقعة من السماء لا كواكبَ فيها بين النعائم وسعد الذابح (١ : ٢٧٨) .

بُلَعُ : منزل للقمر وهو نجمان مستويان في المجرى أحدهما خفيٌّ والآخر مُضيءٌ ، يُسمّى بالعاً كأنه بلع الآخر (٣ : ٧) .

بنات نَعْشٍ الصغرى : سبعة كواكبَ أربعةٌ منها نَعْشٌ وثلاثُ بناتٍ (راجع ٢ : ٢٩٠) ، والأول من بنات نعش الصغرى الذي هو آخِرُها قائدٌ والثاني عَناق وإلى جانبه قائد صغيروثانيه عناق

(كذا) وإلى جانبه الصَّيدق وهو السُّهى ، والثالث الحَوَرُ (١ : ٣٣١) .

بنات نعش الكبرى : سبعةُ كواكبَ أربعة منها نعش وثلاث بنات (٢ : ٢٩٠) .

بُوح : اسم الشمس (١ : ٢١٦) .

التحايا : كواكب صغيرة حِذاءَ الهنعة (٤ : ٣٢٢) .

تَحْياة مفرد التحايا (راجع الهنعة ٣ : ١٠٠ ، السطر ٦ من أسفل) .

التِنّين : بياض خفيّ في السماء يكون جسدُه في ستة بروج وذنبه في البرج السابع دقيقٌ أسودُ فيه التواءٌ وهو يتنقَّل تنقُّلَ الكواكب الجواري (٤ : ٢٠٥) .

التوأم : منزل للجوزاء (٤ : ٨٢) .

توائم النجوم : ما تشابك منها (٤ : ٨٢) .

التياسان : نجمان (٢ : ٢٠٣) .

التيماء : نجوم الجوزاء (٤ : ٨٥) .

الثاقب : المرتفع على النجوم ؛ زُحَل (١ : ٤٢) .

الثريّا (تصغير ثروى) : النجم[١] لكثرة كواكبه مع ضيق المحلّ (٤ : ٣٠٨)-راجع العيّوق والفردود .

الثور : برج في السماء (١ : ٣٨٣ - ٣٨٤) .

الجارية : الشمس (٤ : ٣١٢) - راجع الجواري .

الجبهة : منزل القمر ، القمر (٤ : ٢٨٢) .

(١) النجم : الثريا ، أي أن الثريا تعرف باسم النجم .

الجَدْي : الدائر مع بنات نعش ؛ الذي بلزق الدلو ، برج لا تَعْرِفه العرب (٤ : ٣١١) .

الجرباء : الناحية التي يدور فيها فلك الشمس والقمر ؛ السماء (١ : ٤٥) .

الجواري الكُنَّس : هي الخُنَّس لأنها تَكْنِس في المغيب كالظِباء في الكُنس[٢] ؛ أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلاً وتخفى نهاراً (٢ : ٢٤٧) .

الجوزاء : برج في السماء (٢ : ١٧٠) .

الجوناء - الجونة : الشمس (٤ : ٢١١) .

حاجب الشمس : ناحية منها (١ : ٥٢) .

الحاقورة : السماء الرابعة (٢ : ١٢) .

الحباك (جمعها : حُبُك وحُبَك) : طرائق النجوم في السماء (٣ : ٢٩٧) .

حَضار والوزن : نجمان يطلعان قبلَ سُهيلٍ فيظنّ الناظر بكلّ منهما أنه سهيل (٣ : ١٢٩) . ويقال في حَضار والوزن إنهما نجمان مُحَلِّفانِ ، لأنهما يَطْلُعان قبلَ سهيل فيُظَنُّ بكلٍّ منهما أنه سهيل ويحْلِف (إنسانٌ أن ذلك النجم هو) سهيل ويحلف آخَرُ أنه ليس به (٣ : ١٢٩ - ١٣٠) .

الحَمَل : برج في السماء (٣ : ٣٦٢) .

الحوت : برج في السماء (١ : ٤٦) .

الحَوَرُ : الكوكب الثالث من بنات نعش الصغرى (٢ : ١٥) . راجع القائد .

(٢) الكنس (بضم فضم) جمع كناس (بالكسر) : بيت الظبية .

حُمَةُ العقرب ـ راجع الشولة .

الحيـة : كواكب مـا بين الفرقـدين وبنات نعش (٤ : ٣٢٢) .

الخافقات : أيام تناثرت فيها النجوم (٣ : ٢٢٨) .

الخِباء : كواكبُ مستديرة (٤ : ٣٢٣) أي مصطفة على استدارة .

الخنَّسان : النجوم التي لا تغرُبْ كالجَدْيِ والقُطْب وبنات نعش والفرقدين وشبهها (٢ : ٢١) .

الخضيب : نجم (١ : ٦٢) .

الخُنَّس : الكواكب كلها ؛ الكـواكب السيارة ؛ النجـوم الخمسة : زُحل والمشتري والمرِّيخ والزُهَرة وعُطارد ، وخُنوسها أنها تغيب (٢ : ٢١٢) .

الدبّ : اسم الكبرى من بنات نعش ؛ وقيل الصغرى . فإن أُريد الفصلُ بينهما قيل : الدبّ الأصغر والدبّ الأكبر (١ : ٦٥) .

الدبَران : هو النَظْم (٤ : ١٨١) ؛ منزل للقمر (٢ : ٢٧) راجع المُجدَح .

الدجْن : أقطار السماء (٤ : ٢٢٠) .

الدُّرّ : كوكب دُرِّي مضيء . (ويثلَّث) (٢ : ٢٨) .

الدراري = راجع في « أعلاط الدراري » .

الدرِّي = الدري (بكسر الدال أو ضمها وبتشديد الراء) .

راجع : كوكب درِّي (١ : ١٤) .

الدَرْهَرَهة : الكوكبة الوقادة (٤ : ٢٨٣) .

الدَلْو : برج في السماء (٤ : ٣٢٨) .

الذِئبان : كوكبان أبيضان بين العوائذ والفرقـدين (١ : ٦٧) .

الذراع : منزل للقمر (٣ : ٢٣) .

ذراع الأسد = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٨ من أسفل) .

الذراع المقبوضة = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٨ من أسفل) .

ذُكاء : الشمس (٤ : ٢٣٠) .

ذنب الفرس : نجم يشبهه[1] (١ : ٦٩) .

الرئال : كواكب (٣ : ٣٨٠) .

الرُبَع : غير مذكور في ر ب ع ـ راجع العوائذ .

الرُجُم : النجوم التي يرمي بها .

الرِدف : كوكب قريب من النسر الواقع (٣ : ١٤٣) .

الرديف : النجم الذي ينوء إلى المغرب إذا غرب رقيبه[2] (٣ : ١٤٣) ؛ النجم الناظر إلى النجم الطالع (٣ : ١٤٣) .

الرديف : نجم قريب من النَّسر الواقع (غير الردف) (٣ : ١٤٣) .

الرِشاء : منزل للقمر (٤ : ٣٣٤) .

الرقعاء : السماء ، السماء السابعة (٣ : ٣١) .

---

(١) يشبهه : يشبه ذنب الفرس (لعله النجم المذنب) .

(٢) و(٣) يكون الكوكب رقيباً إذا بدأ بطلوعه في المشرق وكان ثمة في المغرب كوكب قد بدأ بالانحدار إلى المغيب .

الرقيب : نجم من نجوم المطر يراقب نجماً آخرَ ؛ النجم الذي يطلع في المشرق يراقب الغارب .

ومنازل القمر كل منها رقيب لصاحبه (١ : ٧٥) .

رمُح السِماك = راجع السماك الرامح .

زُبانيا العقرب : قرناها ، وكوكبان نيّران في قَرْنَيِ العقرب (٤ : ٢٣١) .

الزُبرة : كوكب من المنازل ، وهما (كذا) كوكبان نيِّران بكاهِلَيِ الأسد ينزلهما القمر (٢ : ٣٧) .

زُحَل : كوكب من الخُنَّس (٣ : ٣٨٨) .

الزمهرير : القمر (٢ : ٤١) .

الزُهَرَة : نجم معروف في السماء الثالثة (٢ : ٤٣) .

الزوائل : النجوم (٣ : ٣٩١) .

السابحات : النجوم (١ : ٢٢٦) .

الساهور : القمر (٢ : ٥٤) .

سِدْرة المنتهى : في السماء السابعة (٢ : ٤٦) .

السِراج : الشمس (١ : ١٩٣) .

السَرَطان : برج في السماء (٢ : ٣٦٤) .

سعد ـ سعود النجوم عشرة ، أربعة منها منازل للقمر (١ : ٣٠١) هي :

ـ سعد الأخبية .

ـ سلع بُلَع (راجع بلع) .

ـ سعد الذابح : كوكبان نيِّران بينهما قِيد ذراع ، وفي نحر أحدهما نجم صغير لقربه منه ؛ كأنه يذبحه (١ : ٢٣٠) .

ـ سعد السعود :

ومنها ستة ليست من منازل القمر كل منها كوكبان بينهما في المنظر نحو ذراع (١ : ٣٠١) .

ـ سعد البارع .

ـ سعد البِهام : من المنازل (٤ : ٨٢)[1] .

ـ سعد مَطَر .

ـ سعد ناشرة .

ـ سعد الهُمام .

السُلَّم : كواكب في أسفل العانة عن يمينها (٤ : ١٣٠) .

السِماك الأعزل : لا سلاح معه (٤ : ١٥) راجع الأعزل .

السِماك الرامح : نجم قدام الفكة يقدمه كوكب يقال له رمحه (١ : ٢٢٣) .

السما كان الأعزل والرامح : نجمان نيران أو هما رِجْلا الأسد (٣ : ٣٠٧) .

السَمَكة : برج في السماء (٣ : ٣٠٧) .

السُنبلة : برج في السماء (٣ : ٣٩٨) .

السِنِمَّار : القمر (٢ : ٥٣) .

السنيق : كوكب أبيض (٣ : ٢٤٧) .

السُها : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى (٤ : ٣٤٦) ؛ والسُهى (بالألف المقصورة أيضاً) ويسمى الصَّيْدق إلى جانب عَناق (١ : ٣٣١) . ـ راجع عناق .

---

(١) مع أن صاحب القاموس قد ذكر قبلا أن منازل القمر أربعة .

سهم الرامي : كوكب (٤ : ١٣٤) .

سُهيل : نجم عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القَيْظ (٣ : ٣٩٨) ـ راجع الفحل ، راجع أيضاً حَضار والوزن .

الشارق : الشمس حين تشرق (٣ : ٢٤٩) .

الشامة : نكتة (كلف ؟) القمر (٤ : ١٣٧) .

الشاهد : النجم (١ : ٣٠٦) .

الشاة : كواكب صغار (٤ : ٣٥) .

الشَرَج : مَجرّة السماء (١ : ١٩٥) .

الشَرَطان : نجمان من الحمل هما قرناه ، وإلى جانبه الشمالي كوكب صغير . ومنهم من يَعُدُّ (هذا الكوكب الصغير) معهما فيقول : هذه المنزلة ثلاثة كواكبَ ويُسمّيها الأشراط (٢ : ٣٦٨) ـ راجع الأشراط .

الشِّعْري العَبور والشِّعري الغُميصاء : أختا سُهيل (٢ : ٦٠) . والغميصاء إحدى الشِعريَيْن . ومن أحاديثهم أن الشِعري العبور قطعتِ المجَرّة فسُمِّيَتْ عبوراً وبَكَتِ الأخرى على أثرها حتى غَمِصت ، ويقال لها أيضاً الغُموص (٢ : ٣١٠) .

الشمس : معروفة (٢ : ٣٢٣) .

الشِهاب : شعلة من نار ساطعة وجمعها شُهُب (١ : ٩٠) .

الشُهُب : الدراري (١ : ٩٠) .

الشهر : الهلال ، القمر ، أو هو (القمر) إذا ظهر وقارب الكمال (٢ : ٦٥ ـ ٦٦) .

الشوارع : النجوم الدانية إلى المغيب (٣ : ٤٤) .

الشَوْلة : كوكبان نيّران يَنْزِلهما القمر . يقال لهما حُمَة العقرب (٣ : ٤٠٤) .

الصَرْفة : منزلة للقمر نجم واحد نيّر يتلو الزُبرة (٣ : ١٦٠) .

الصقعاء : الشمس (٣ : ٥١) .

الصَيْخد : عين الشمس (١ : ٣٠٦) .

الصَيْدق : السُها ـ راجع القائد .

الضاجع : النجم المائل للمغيب (٣ : ٥٥) .

الضِباع : كواكب كثيرة أسفل من بنات نعش (٣ : ٥٤) .

الضِحّ : الشمس (١ : ٢٣٦) .

الضُحى : الشمس (٤ : ٣٥٤) .

الضِيقة : منزلة للقمر (٣ : ٢٥٥) .

الطارق : كوكب الصبح (٣ : ٢٥٧) .

الطالع : الهلال (٣ : ٥٩) .

الطَرْف : كوكبان يقدمان الجبهة سُمِّيا بذلك لأنهما عينا الأسد ينزلهما القمر (٣ : ١٦٧) .

الطَوْس : القمر (٢ : ٢٢٧) .

الظليم : نجمان (٤ : ١٤٦) .

العانة : كواكب بيض أسفل من السعود (٤ : ٢٥١) .

العبور = الشعري العبور .

عَجُز الأسد = راجع القصر .

العجوز : الشمس (٢ : ١٨١) .

العذراء : برج السنبلة أو الجوزاء (٢ : ٨٦) .

العُذرة : خمسة كواكب في آخرِ المجرَّة (٢ : ٨٦) .

عرش السِّماك = راجع القصر .

عُطارد = راجع الخُنَّس .

عَـطَرّد : نجم من الخنَّس في السماء السادسة (١ : ٣١٥) .

العقرب : برج في السماء (١ : ١٠٧) .

العلياء : الشمس (٤ : ٣٦٥) .

عَناق = راجع القائد .

العَناق والعَناقة : الوسطى من بنات نعش (٣ : ٢٦٩) - راجع القائد .

العَنان : نواحي السماء (٤ : ٢٥٠) - راجع أعناء السماء .

العَوّاء : (ويقصر) : منزل للقمر (٤ : ٣٦٨) .

العَوَّاء : خمسة كواكب أربعة منها كأنها كتابة ألف (٤ : ٣٦٨) .

العوائذ : أربعة كواكبَ بتربيعٍ مختلفٍ في وسَطها كوكب يسمى الرُّبَع (١ : ٣٥٦) .

العوكلان : نجمان (٤ : ٢٠) .

العوهقان : كوكبان إلى جنب الفرقدين على نسق ، طريقاهما مما يلي القطب (٣ : ٢٧٠) .

العين : الشمس (٤ : ٢٥١) .

عينا الأسد = راجع الطرف .

العَيّوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها (٣ : ٢٧٠) .

الغاسق : القمر (٣ : ٢٧٢) .

الغُرَف : السماء السابعة (٣ : ١٨٠) .

الغَموص = الغميصاء = راجع الشعري .

الغَوْرة : الشمس (٢ : ١٥٠) .

الفاثور : قرص الشمس (٢ : ١٠٧) .

الفارطان : كوكبان أمام بنات نعش (٢ : ٣٧٧) .

الفَحْل : سهيل لاعتزاله النجوم كالفحل فإنه إذا قَرَع الإبِلَ اعتزلها (٤ : ٢٨) .

الفَرْدود : كواكب مصطفة خلف الثريا (١ : ٣٢٢) .

فَرْغ الدلو المقدَّم و(فرغ الدلو) المؤخر : منزلان للقمر كل واحد كوكبان بين كل كوكبين في المرأى قدر رمح (٣ : ١١١) .

الفرقد : النجم الذي يهتدى به وهما (وهو) فرقدان ، وجاء في الشعرُ مثنىً ومُوحَّداً (١ : ٣٢٣) .

الفرقدان = راجع الحية .

الفرقود = الفرقد .

فرود النجوم = أفراد النجوم .

الفروغ : الجوزاء (٣ : ١١١) .

الفُكَّة : كواكب مستديرة (مصطفة) في شبه دائرة خلف السماك الرامح تسميه الصبيان قصعة المساكين (٣ : ٣١٦) .

الفلك : مدار النجوم (٣ : ٣١٦) .

الفلك : مدار النجوم (٣ : ٣١٦) .

القائد : الأول من بنات نعش الصغرى الذي هو آخرها قائد والثاني عَناق ، وإلى جنبه قائد صغير وثانيه عَناق ، وإلى جانبه

الصَّيدق ، وهو السُّهى ، والثالث الحَوَر (١ : ٣٣١) .

القِدر : كواكب مستديرة (راجع الفُكة) (قرب الأثافي) (٣ : ١١٦) .

القُرص : عين الشمس (٢ : ٣١٢) .

القَرْن : نجم (٤ : ٢٠٥) .

قدمى سهيل = راجع الأعيار .

القرن : كوكبانِ حيال الجَدْي (٤ : ٢٥٨) .

قرن الشمس : ناحيتها ؛ أعلاها ؛ أول شعاعها (٤ : ٢٥٧) .

القصر : أربعة كواكب صغار أسفل من العوّاء يقال لها عرش السماك وعَجُز الأسد والجنازة (٢ : ٢٧٨) .

قصعة المساكين = الفُكّة .

القُطب : نجم تبنى عليه القبلة (١ : ١١٨) .

القلادة (من منازل القمر) : ستة كواكب مستديرة تشبه القوس (١ : ٢٧٨) .

قلب العقرب ـ راجع النياط والهرّاران .

القمر : يكون في الليلة الثالثة (٢ : ١٢١) .

كاهل الأسد = راجع الزبرة .

الكَتَد : نجم (١ : ٣٣٢) .

كَحْلة (معرفة) والكَحْل وكَحْل (؟) : اسم للسماء (٤ : ٤٤) .

الكُنّس : الجواري الكنّس ـ الخُنّس لأنها تَكْنِيسُ في المغيب

كالظباء في الكُنُس ؛ أو هي كل النجوم لأنها تبدو نهارا وتختفي ليلا (٢ : ٢٤٧) .

الكواكب الجواري = راجع التِّنّين .

الكوكب والكوكبة : النجم (١ : ١٢٤ ـ ١٢٥) .

كوكب دُرّي (بالفتح والكسر والضم) ودرّىء بالكسر والضم : مضيء (٢ : ٢٨) ، راجع (١ : ١٤ ، ١٤٢) .

الكوكبة = راجع الدرهرهة .

المِجْدَح (ويقال المجدح بضم الميم) : الدبران (١ : ٢١٧) .

المجدح : نجم صغير بين المجدح (السابق ؟) والثريا (١ : ٢١٧) .

المجرّة : باب السماء أو شَرَجها (١ : ٣٨٨) .

المرزمان : نجمان مع الشِعريين (٤ : ١٢٠) .

المريخ : نجم من الخنس (١ : ٢٦٩) .

المشتري : نجم (٤ : ٣٤٨) = برجيس = النجم .

المَعَرّة : كوكب دون المجرة (٢ : ٧٨) .

المعلف : كواكب مستديرة متبددة (٣ : ١٧٨) .

مَقْبِض القوس = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٨ من أسفل) .

منكِب الجوزاء الأيسر = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٩ من أسفل) .

منكبا الجوزاء = راجع الهقعة (٣ : ٩٩ ، السطر ١٣) .

منزل : بنات نعش (٤ : ٥٧) .

المَيْسان : نجم من الجوزاء ؛ كل نجم زاهر ؛ أحد كوكبي الهقعة (٢ : ٢٥٣) .

النازعات غرقاً : النجوم التي تنشط من برج إلى برج (٢ : ٣٨٨) .

الناعقان : كوكبان من الجوزاء (٣ : ٢٨٦) .

الناقة : كواكب مصطفة بهيئة ناقة (٣ : ٢٨٧) .

النثرة : كوكبان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب ، وهي أنف الأسد (٢ : ١٣٨) .

النجم : الكوكب ، الثريا (٤ : ١٧٩) .

نجوم الأخذ : منازل القمر ؛ الكواكب التي يرمى بها مسترقو السمع (١ : ٣٥٠) .

النحسان : زُحَلُ والمِرّيخ (٢ : ٢٥٣) .

النسر : كوكبان = النَّسر الطائر والنسر الواقع (راجع ٢ : ١٤١) .

النسر الطائر = راجع النسر والنسر الواقع .

النسر الواقع : نجم كأنه كاسرٌ جناحَيْهِ من خلفه حِيال النسر الطائر قرب بنات نعش (٣ : ٩٦) .

النظم : ثلاثة كواكب من الجوزاء ؛ الثريا ؛ الدَّبَران (٤ : ١٨١) .

النعائم = راجع البلدة .

النعائم : من منازل القمر (٤ : ١٨٢) .

النياط : كوكبان بينهما قلب العقرب (٢ : ٣٨٩) .

الهرّاران : النسر الواقع ؛ قلب العقرب (٢ : ١٦٠) .

الهقعة : ثلاث كواكب فوق منكبي الجوزاء كالأثافي (٣ : ٩٩) .

الهلال : غرة القمر لليلتين (أو أكثر قليلا) (٤ : ٧٠) .

الهَنْعة : منكب الجوزاء الأيسر خمسة أنجم مصطفة ينزلها القمر (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : كوكبان أبيضان مقترنان في المجرة بين الجوزاء والذراع المقبوضة (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : ثمانية أنجم في صورة قوس بينهما مقدار سوط بأثر الهقعة في المجرة (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : ثمانية أنجم في صورة قوس وتُسمّى ذِراعَ الأسد في مَقْبِض القوس نجمان يقال لهما الهنعة (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : كوكبان أبيضانِ بينهما مقدار سوط بأثر الهقعة في المجرة . وإنما ينزل القمر بالتحايا وهي ثلاث كواكبَ بحذاء الهنعة واحدها (كذا ، ثلاث كواكب ، واحدها) تَحْياة (٣ : ١٠٠) .

الوبّاص : القمر (٢ : ٣٢١) .

الوزن : نجم يطلُعُ قبل سُهيل فتظنه إياه (٤ : ٢٧٥) - راجع حضار والوزن .

الوَكس : دخول القمر في منزلٍ يُكْرَهُ ، منزل القمر الذي يكسف فيه (٢ : ٢٥٨)

يُوح ويوحى : الشمس (١ : ٢٥٦) .

ملحق :

الأشراط - راجع الشرطين .

الجنازة ـ راجع القصر .

رجلا الأسد ـ راجع السماكين .

السعود ـ راجع العانة .

القوس : برج في السماء (٢ : ٢٤٣) .

وقد غَفَلَ القاموس عن عدد كبير من أسماء الأجرام السماوية فلم أعثر فيه على ذي الأعنّة ـ السفينة ـ الشهاب (مع ورود هذه الكلمة في القرآن الكريم) الغول ـ الفرد أو قلب الشجاع ـ الميزان . وكذلك غفل عن عدد من أفراد الأجرام السماوية ، فقد ذكر الفُكة والشِعري ، ولكنني لم أهتد فيه إلى الفُكة الجنوبية والفكة الشمالية ولا إلى الشِعري الشامية والشعرى اليمانية .

وذكر القاموس عدداً من أسماء الأجرام السماوية عَرَضاً مثل « عُطارد » عده مع الخُنّس أي الكواكب الخمسة السيارة (٢ : ٢١٢) ولكن لم يذكره في فصله وبابه (في مادته أو جذره) لما ذكر هنالك عَطَرَّداً . وكذلك الرُّبعُ ذكره مع العوائذ (١ : ٣٥٦) ولم يذكره في ر ب ع .

وسلك صاحب القاموس في أسماء الأجرام السماوية مسلَكَ رُواةِ اللغة ـ معَ أن الألفاظ الفلكية باب من العلم لا باب من الاجتماع وعلم النفس كالألفاظ الجنسية وألفاظ الصناعات . فقد قال مثلا إن منازل القمر من السعود أربعة (١ : ٣٠١) : سعد الأخبية وسعد بُلَع وسعد الذابح وسعد السعود ، ثم ذكر أن سعد البِهام من المنازل (٤ : ٨٢) . ولما تكلم على الكواكب الخُنّس قال (٢ : ٢١٢) الكواكب كلها والكواكب السيارة ، والنجوم الخمسة

(زُحَلُ والمشتري والمِرّيخ والزُّهرة وعُطارد) وخُنوسها أنها تغيب . وجعل الخُنَّسَ (٢ : ٢١٠) النجوم التي لا تغرُب كالجَدْي والقطب وبنات نعش والفرقدين وشِبْهِها ، وهذا صحيح . فالخنوس عنده غياب الكواكب مرة وبقاؤ ها ظاهرةً لا تغيب مرة أخرى . وصاحب القاموس لا يفرّق في الاستعمال بين النجم والكوكب .

أما على الصعيد العلمي عند العرب فإن أسماء الأجرام السماوية عربية خالصة سوى ألفاظ يسيرة جدا مثل أناهيد من الفارسية للزُّهرة والبِرْجيس من الفارسية في الأغلب للمشتري . ولعل عدداً من الأسماء الفلكية لا يزال في صيغ أعرابية مثل **بوح أو يوح ويوحى ثمّ** الباحور والفاثور والمِرّيخ .

وفي السماء نجومٌ ثنائية أو مُزدوجة يتألّف كل نجم منها في الحقيقة من نجمين اثنين . ويكونُ أحدُ هذين النجمين صغيراً والآخر منهما كبيراً ، ثم إن كل واحد منهما يدور حول صاحبه . وبما أن النجوم المزدوجة بعيدة جداً فإنها ترى في رأى العين نجوماً مُفردةً ، ولكن أدوات الرصد الحديثة ـ وهي قوية دقيقة ـ استطاعت أن تكشف هذه الظاهرة الفلكية النادرة الغامضة .

أما أولُ نجم مزدوج عرفه العلم الأوربي فهو العَناق أحد بنات نعش في مجموعة الدب الأكبر ، عرفه ريتشولي عام ١٦٥٠ للميلاد غير أن العربَ كانوا قد عَرَفوا عدداً من هذه النجوم بالعين المجردة منذ جاهليتهم . إنهم عَرَفوا أن العَناق نجمٌ مُزْدَوِجٌ فسَمَّوْا العَناق نفسه عَناقاً وسَمَّوْا شريكه الصغير السُّها . وعَرَف العربُ خفاء هذا النجم (السُّها) فقالوا هو كوكب خفيٌّ يمتحن الناسُ به أبصارَهم .

والفرقُد كان معروفاً عند العرب بأنه كوكبٌ ثنائي مزدوج . وقد جاء في الشعر مُثنًّى وموحَّداً . وقد قال الشاعر :

وكـلُّ أخٍ مَفـارِقُـه أخـوه ـ لَعَمْرُ أبيك ـ إلا الفرقدانِ !

وأُحبُّ أنْ أستعْرض أشياءَ من الألفاظ الفلكية في « المُعجَمِ الوسيط » مُقارنةً بما في القاموس المحيط .

في القاموس المحيط ألفاظ فلكية أخذها المعجم الوسيط بالحرف الواحد ، ثم ألفاظ أخذها بشيء من الاختصار ، كما أن هنالك ألفاظاً توسع في معانيها وفي ما تدل عليه . وكذلك نجد في القاموس المحيط ألفاظاً فلكية لا نراها في المعجم الوسيط . وليس في هذا كُلّه ما يمكنُ أن يكونَ مأخذاً ، لأنّ المؤلّف يشترط أحياناً على نفسه شروطاً ويَخُطّ منهجاً . والتأليفُ الجيّد هو أن يَفِي المؤلف بما شَرَط على نفسِه في النِطاق الذي خطّه لكتابه . ولكنْ مما يُعَدّ مأخذاً أن يذكر المؤلفُ في الكتاب الواحِد أمراً واحداً في مكانينِ مختلفين على وجهين مختلفين :

جاء في الصفحة الثانية والسبعين من المعجم الوسيط : « وبنات نعش : النجوم المنتشرة في السماء » : ثم جاء على الصفحة الثانية والأربعين بعد التسعمائة : « وبناتُ نعش : سبعةُ كواكبَ تُشاهَدُ جهة القطب الشمالي ، شُبِّهتْ بِحَمَلَة النعش » .

والمعجم الوسيط ، كالقاموس المحيط ، لا يُفرّقُ بين النجم والكوكب ، ففي الصفحة ٩١٢ : « النجم أحدُ الأجرام السماوية المُضيئة بذاتها ، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة ومنها الشمس . والنجم عَلَمٌ على الثريا خاصَة . والنجم الكوكب » . وعلى الصفحة

٧٩٩ : « الكوكب النجم في السماء ، والكواكبُ أجرام سماوية تدور حولَ الشمس وتستضيء بضوئها ، وهي تسعة : زُحَلَ والمشتري والمِريخ وعُطارِدُ والزُهْرة والأرض وأورانوس ونبتون وبلوتو » (بهذا النسق الخطأ) .

وعلى الصفحة ٢٥٨ : « الخُنَّس الكواكب السيارة دون الثابتة . والخنّس الدراري الخمسة : زُحَل والمشتري والمِريخ والزُهَرَة وعطارد ، والخُنَّس : الكواكب كلها .

ثم يقول المعجم الوسيط على الصفحة ٨٠٦ : « كَنَستِ النجومُ كُنوساً : استمرت في مجاريها ثم انصرفت راجعةً ، فهي كانسة وجمعها كُنَّس ، والجواري الكُنّس : الكواكبُ الخمسة : المريخ وزُحَلُ وعُطارد والزُهرة والمشتري (بهذا الاضطراب في الضمائر : كنست النجوم فهي كانسة وجمعها كنس ؛ وبهذا الاضطراب في سرد أسماء الكواكب الخمسة) لأنها تكنس كالظباء : تغيب وتستتر ؛ أو هي (الجواري الكنس !) النجومُ كلُّها لأنها تبدو ليلاً وتَخْفى نهاراً » .

وفي القاموس المحيط (١ : ٣٢٢) : « أفراد النجوم وفرودها : الدراري التي تطلُعُ في آفاق السماء . . والفردود : كواكبُ مصطفة خلف الثريا » ، وجاء في المعجم الوسيط (ص ٦٨٦) : « وأفراد النجوم : الدراري التي تطلع في آفاق السماء . . . والفرود كواكب زهراتٌ حول الثريا ، وفرود النجوم : أفرادها » .

من المفروض أولا أن تُعَدّ الكواكبُ مرتَّبة ترتيباً واحداً ؛ ثم

يجب أن تُعَدّ مُرَتّبَةً ترتيباً صحيحاً ، وكذلك لا يجوز في قاموس عامٍّ غير تاريخي أن يُعرَّفَ الكوكبُ بأنه النجم وأن يُعَرّف النجمُ بأنه الكوكب ، وإذا جاز الجمعُ بينَ الرواياتِ المُخْتلفةِ والمتضاربة في إيراد المدارك النفسية والاجتماعية ـ لأن الخلاف في مدلولاتها لا يزالُ مستمراً لاستمرارِ الاختلاف بين طبائع البشر وثقافتهم ـ فإن هذا الجمعَ لا يجوزُ في المدارك العلمية .

الجيمُ البدَويّة وتقلّبها في الألفاظ العربيّة

يبدو أنّ الجيم الأعرابية القريبة في اللفظ من القافِ حرفٌ قديم أصيلٌ نَجِده في اللغات الأعرابية غيرَ العربية الفُصحى وفي اللغات الآرية في آسِيَة وأوروبّة . وكذلك يبدو أنّ تعطيش الجيم قد حَدَث بينَ العرب في الجاهلية القديمة ، نَعْرِفُ ذلك من الشعر الجاهلي ومن القِراءات في كتاب الله . أمّا الأمثلة المُفرَدة والأبيات المتفرقة التي يُسْتَشْهَدُ بها على أنّ هذه الجيم كانت تُلفَظُ أحياناً قافا أو شِينا أو ياءً أَوْ غيرَ ذلك ، فإنّما هي شواهدُ على شواذَّ قَبَليةٍ أو محلِّية .

ويحسُنَ أن نفرّق في البحث بين الصوت وبين الحرف الدالّ على الصوت في اللغة العربية وفي غير اللغة العربية ، حتى الضادُّ التي يظُنّ جُمهُور الباحثين أنها حرف قاصرٌ على اللغة العربية موجودٌ لفظه في معظم اللغات ، وإن كانتِ اللغة العربية وحدَها هي

(*) بحث ألقي في مجمع اللغة العربية (القاهرة) في حادي عشر ذي القعدة من سنة ١٣٨٨ (١٩٦٩/١/٢٩ م).

التي اختصّته بحرفٍ مستقلّ . إنّ كثيرين منّا يَعْرِفُون أنّنا نقول بالتركيّة طولْدورمق أي التعبئة ، ومنها التسمية المشهورة يَلَنْجِي طولمه ؛ وكذلك طونْدورمق ، أي التجميد ، ومنها تسميةٌ أكثرُ شهرةً طونْدورمه . ثمّ هنالك طقوز أي تسعة ، ثمّ طورمق أي الوقوف . وكلّ هذه الكلمات تلفظ في التركية بالضاد الواضحة وتكتب بالطاءِ . بعضها يكتب الآن بالدال نحو دوندورمه .

ثمّ إنّ الكَثْرة الغالبة منّا تَعْرِفُ أننا نقول donc بالفرنسية ، و done بالإنكليزية ، و Dorf بالألمانية ، و donde بالإيطالية والإسبانية (نكتُبها كلّها بالدال ونلفظها ضاداً واضحةً كثيراً أو قليلا . وأحْسَبُ أن (داوْ) و(دايْ) (الطريق ، العظيم) باليابانية لا تخرُجانَ عن هذه المَحَجّة .

ولعلّ من أكثر الأصوات تَحَيُّرا في اللغة العربية « الجيم » وقد أخذتُ الأمثلة التالية على تحيُّرها من المعجم الوسيط . من ذلك مثلا :

- فَلَجَ الأرضَ : شقّها للزراعة وفَلَحها (ص ٧٠٦ ، ٧٠٧) .
- جبأ عن الشيء : هابه وتوارى عنه وأجبأ مالَه : أخفاه عن جابي الزكاة وخبأه (ص ١٠٤ ، ٢١٢) .
- جُدِفت يدُه : قُطعت . وشَدَفَه : قَطَعه (ص ١١١ ، ٤٧٨) .
- الجَبْر ـ الشجاع . أزْبَر : شَجُع (ص ١٠٥ ، ٣٨٩) .

- جرف وغرف (ص ١١٨ ، ٦٥٦) .
- أمّا انقلاب الجيم قافاً فكثير : جدّ وقدّ ، الجَبِيل والقَبِيل ، لجَبيلة والقبيلة (١٠٦ ، ٧١٩ ، ٧٢٠) .
- ثم هنالك انقلاب الجيم كافاً وهو كثير جداً : جَرَع وكرع ، ، جدّ وكدّ ، جَلَم وكلم ، جَهَر وكهر .
- الجَبَاب : القحط الشديد (ص ١٠٤) واليَبَاب : الخراب ، والمكان الخالي لا شيء فيه . يقال : أرض يباب (ص ١٠٧٥) .

من المعقول أن نبدأ درسَ الألفاظ التي يقع فيها حرف الجيم بحرفِ الجيم نفسه ، ذلك الحرف الذي يُقال فيه إنّه مقطوع من كلمة جَمَلٍ . وقد أدّى أسْلافنا الأعرابيون لفظَ « جَمَل » كما يُؤدّيه عددٌ كبيرٌ من إخواننا العربِ اليومَ في لَهَجاتهم المَحْكيّة بالجيم الأعرابية القديمة . أما لغتُنا الفُصحى فلا تَعْرِفُ الجيمَ إلاّ مُعطّشة .

والجَملُ (بفتح الميم وبسكونها) كان يُطْلَقُ على الذكَر وعلى الأُنثى من الإبِلِ (تاج العروس ٧ : ٢٦٢) . وكلمة جمل موجودةٌ في جميع اللغات الأعرابية وهي تَقَع في هذه اللغات كلِّها على الذكَر الأنثى أيضا . وذلك معقولٌ لأن الكلمة في الأصل كانت تدلّ على الحَمْل ، ويبدو أن مدركَ التذكير والتأنيث متأخِّرٌ في اللغات .

وجَعَل العربُ الجيم في الجمل عربية معطّشة . ولكنّهُمُ استفادوا من تحيّر الجيم الأعرابية : استفادوا منها في سلك ألفاظٍ

ذات ظلالٍ من المعاني تتعلّق بالجَمَل . وأهمّ هذه الألفاظ الجَمال والكَمال (بقَلْبِ الجيم كافاً) ، فالجَمال يدلّ على الحُسن والبهاءِ المادّيين في الوجوه ، بينما الكمال يدلّ على الحسن المعنوي من تمام الخَلْق والخُلُق . وكما نقولُ جمالٌ وكمال نقولُ أيضاً جَميلٌ وكَميل « القاموس ٤ : ٤٦) .

ونقل العرب الجيم إلى الذالِ أختِ الـدال فقالوا : ذَمَل البعير : سار سيراً سريعا لينا فهو ذامل وذَمول ، وهي ذاملةٌ وذمول (ص ٣١٥) .

وكذلك نقلوا الجيم إلى الزاي أختِ الراء حينما جعلوا الزَمْل بمعنى الحَمْل ، والزاملة مؤنّث الزامل : ما يُحمل عليه من الإبلِ وغيرها . غير أن المعجم الوسيط (٤٠٢ - ٤٠٣) يُهمِلُ التخصيصَ في هذه المادّة أحيانا ، ولكنّ في القاموس المحيط (٣ : ٣٩٠) : الزَوْملة : سَوْق الإبلِ ، والعِير عليها أحمالُها . وإذا عَمِل الرجلان على بعيرهما فهُما زميلان ؛ فإذا كانا بلا عمل فهما رفيقان . وفي تاج العروس (٧ : ٣٦٠ ، ٣٦١) الزميل : الرديف على البعير . والمزاملة : المعادلة على البعير .

وتنقَلِبُ الجيم هنا أيضاً شينا . ولكنّ المعجم الوسيط يُهْمِلُ التخصيصَ في هذه المادّة . فإذا نحن رجَعنا إلى القاموس المحيط (٣ : ٤٠٣) وجدنا ناقةً شَمِلّة وشِمال وشِملال وشِمليل (سريعة) ، وزاد تاج العروش (٧ : ٣٩٨) جَمَلٌ شِمِل وشِمليل وشِملال .

ومن أسماءِ الجَمَلِ « يَعْمَلٌ » والناقة « يَعْمَلَةٌ » ، **ولعل ذلك**

حدث في أثناءِ انقلاب الجيم ياء . واليعمَلُ واليعملَةُ ليستا صِفتين يُنْعَتُ بهما الجملُ والناقة ، بلِ آسمانِ . وليست هذه المادّةُ أيضاً في المعجم الوسيط (راجع ٦٣٤ و١٠٧٨) ، بلْ نَجِدُها في القاموس المحيط (٤ : ٢١) : **اليعملة** : الناقة النجيبة المعتمِلة (بكسر الميم) المطبوعة . والجمل : يعملٌ (بضمّتين) ، ولا يوصف بهما ، إنّما هما اسمان . وناقة عَمِلة كفرحة بيّنة العَمالة (بالفتح) فارهة . وقد عملت (الناقة) بأذنيها : أسرعت .

وكل هذه الظِلالِ من المغاني عند تقلُّب الجيم في أصوات مختلفة في لفظة « جمل » عربيةٌ بَحْتٌ لا نَجِدُها في اللغات الأعرابية .

وفي الجذور الأعرابية ج ب ر . وهذا الجِذر - بخِلاف ج م ل - أقدَمُ في الاستعمال لأن « الجبر » (الرجل) يجب أن يكونَ أقدمَ في الحاجة إلى الاستعمال من « الجمل » (الحيوان) . وقدِ استغنى العربُ في فصيحهم عن « جبر » للرجل واعتاضوا عنها بصيغة من جذر ر ج ل ، ذلك الجِذر الذي ظلّ في اللغات الأعرابية مقصوراً على القَدَم .

وإذا نحن تأمّلنا الجِذر ج ب ر وجدنا له خاصتين بارزتين : أُولاهُما أن الجيم فيه تقلّبت في أصوات كثيرة كما اتّفق للجيم في جمل . ثمّ إنّ المعانيَ التي نشأت من هذا التقلُّب متداخلةٌ ، وخصوصاً إذا نحن استعرضنا معانِيَ ج ب ر ومعانيَ ك ب ر .

في الجذر ج ب ر نجِدُ من المداركِ الأساسية : ربط ، ثبّت ، فتل ، نسج ، ثم مدرك الزيادة في العدد والطول أو العرض

وفي المِساحة والقَدْر والسِنّ وفي القوة والسيطرة . ومن معاني « الجبر » في اللغات الأعرابية : الرجُل ، الذكر ، الزوج ، ثم القويّ والجُنديّ والمُحارب والبطل والجبّار ، ثمّ الطويل القامة والسيّد في قومه والشهير والعظيم ، والواسع ، ثمّ هو اسم من أسماءِ الله الحُسنى .

ومُعظَمُ هذه المداركِ الأساسيةِ المنطوية في الجِذر ج ب ر وفي الجذر ك ب ر معروفةٌ في اللغة العربية . ولا يزال للفظة « الجبر » في اللغة العربية من المدارك القديمة : الرجل ، الغلام (الذي اشتدّ) ، القويّ ، الشُجاع ، العظيم ، العاتي ، الطويل ، وكذلك لا يزال فيها معنى السَّيْل (تعاظم المياه ، وهو معنىً أعرابيٌّ قديم) .

وهنا نَلْمَحُ أيضاً أن انتقال الجيم إلى الكاف ينقل المدرك المادّيّ في الكلمة إلى المدرك المعنويّ نحو : الرجلِ الجَبّار (الجبار ـ مدرك ماديّ) ثم المكرِ الكُبّار (الكُبّار ـ مدرك معنوي) في قوله تعالى « ومكروا مكرا كبّارا » . وهنالك : التجبّر في مقابل التكبّر ، ثمّ جدّ في مقابل كدّ ، ثم أجْرأشَّتِ الإبلَ ؛ امتلأت بطونُها وسَمِنت (ص ١١٤) في مقابل استكرش : عَظُم بطنُه وأخذ في الأكل (ص ٧٨٩) .

غيرَ أن هذا التقلُّب في المعاني من المدرك المادّيّ إلى المدرك المعنوي يحتاج إلى درْس أشمَلَ وأعمقَ وأدقّ ، فإن مثل هذا الدرس يَكْشِفُ عن « عبقرية في اللغةِ العربية » وعن « قُدرة » على الحياةِ والبقاءِ والتوسّع تَنْدُران في اللغات غير العربية .

وهنالك لفظة في هذا الباب تستحق الدرس هي لفظة « جار » والمدرك الأول في الفعل « جار » مال إلى « المكان » وعَطف عليه (حقيقة لا مجازاً) . وهذا المدرك متّصل بالفعل « حار » بالحاءِ المهملة ، كما في قول طَرَفَةَ :

عَدَوْليّةٌ أو من سَفينِ ابن يامنٍ   يجور بها الملاّحُ طَوْراً ويهتدي

أو يحور بها الملاّح . ثم هي متّصلة بالجذر « زار » (مال) ، والشواهد عليه كثيرة . وكذلك هو متصل بالجذر صار (مال ، اتجه) ، قال البحتري :

صُورٌ إلى صورةِ الدُلْفين يُؤنِسُها   منه آنزواءٌ بعَيْنَيْهِ يُوازيها !

ومن المدارك الأصلية في الجذر « جار » : المُكث ، وسُكنى الرجل بُرهةً في غير الوطن على أنه غريبٌ أو ضيف . والجار هو الذي يسكُن معَ آخَرَ أو آخرينَ في مكان واحد . والجار المَوْلى (العبدُ المعتق أو غير المعتق) ، والجيران العِيال والخَدم والغُرباء . والجار من نَزَل في حِماية رجلٍ أو جماعة . والجار العابدُ الذي اعتكفَ في الهيكل أو المسجد أو البلد المقدس ؛ فهناك التعبيرُ المعروف : جارُ الله وجارُك !

ومن المدارك في الجِذر « جار » الهَرب (بمعنى الميل عن مكان الخوف) لاتّصال الجذر « جار » (أو جَور) بالفعل وَجِرَيْجَرُ (من باب فرح) . ومن المدارك فيه أيضا « تجمّع » لاتّصاله بالجذر « أجَر » .

وأرى ألاّ أستطرد هنا إلى الجذر « زَوَرَ » .

ولكلمة « جار » في الشعر الجاهلي معانٍ :

١ ـ الجار : الذي يُجاورك بيتَ بيت :

وأمنع جارَ البيت ممّا ينوبه (أبو مِحجَن) .

ولا أقول لجارِ البيت يَتْبعُني : نَفِّسْ مَحلَّك ، إنّ الجوّ محلولُ[1]

(طفيل الغنوي)

٢ ـ مَنْ يكونُ في المحلّة ليس قريباً من بيتك ضَرورةً :

ثُمّت أطعمتُ زادي ، غيرَ مُدَّخِرٍ أهلَ المحلّة من جارٍ ومن جادِ[2]

(سِنان بن أبي حارثة)

بل لا نقولُ ، إذا تبـوّأ جيـرةٌ إنّ المحلّة شَعْبهـا مكـدودُ

(معاوية بن مالك)

٣ ـ من الجوار ما يقرُبُ من منزلك أو منزل أهلك :

ديارُهُم إذ هُمْ لأهلك جيرةٌ (النابغة)

ـ أجدَّكما ! لم تعلَما أنّ جارنا أبا الحِسْل بالصحراءِ لا يَتنوّر[3]

(حماسة أبي تمّام)

---

(١) الجوّ : مكان مخفض في البادية ، ينبع فيه ماء ، ويكون مرغوبا في السكنى . محلول : يحلّه ، ينزل فيه ، يسكنه (أناس) .

(٢) جاد اسم فاعل من جدا (أعطى) . والجادي (هنا) : طالب الجدوي (العطاء) .

(٣) أبو الحسل (الضبّ : دويبة تشبه الحرذون ، وهي أكبر منه) . تنور (هنا) : أزال الشعر من أماكن معيّنة من جسمه بالنورة (بضم النون : الكلس) .

مُجاوِرُ قومٍ لا تَزاورَ بينَهم ؛ ومن زارهم في دارِهم زارَ هُمّدا[1]

(حماسة أبي تمّام)

ـ وهُمُ ربيعٌ للمجاور فِيهِمُ (لبيد) .

٤ ـ وليس من الضروريّ أن يكونَ الجِوار دائماً متّصلاً :

فقد جاورتُ أقواماً كثيـراً فلم أرَ مثلَكم حَزمًا وباعا[2]

(مُسهِر بن النعمان)

لَعَمْري، لقد جاورتُ في حيٍّ عامرٍ لِأُدرِك ثأري منهُمُ ـ حُجُجاً خَمْسا[3]

(حماسة البحتري)

نَزَلْتُ على عمروبنِ درماءَ بُرهةً(؟) ؛ فيا حُسْنَ ما جارٍ وياحسن مافعلْ!

(امرؤ القيس)

وقد حاذروا ماالجارُ والضيفُ مُخبرٌ ، إذا فارقاه ؛ كلٌّ بذلك مُولَعُ

(طفيل الغنوي)

٥ ـ وقد يلتقي الجارانِ في مكانٍ ما :

أجارتَنا ، إنّـا غريبـانِ ههُنا وكلُّ غريبٍ للغـريبِ نسيبُ

(امرؤ القيس)

٦ ـ الجار : الذي يأتي ليُجارَ (ليستجير) :

---

(١) همّد جمع هامد (ساكن ، لا يتحرّك) : ميت (بسكون الياء) .

(٢) حزما (فصلا في الأمور) . باعا (سعة صدر) .

(٣) الحجّة : السنة .

وكنتُ إذا جاري دعا لِمَضنّة ... أشمّرُ حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئزري[1]

(المعجم الوسيط بالفتحة) ... (الهذلي) في تاج العروس

وجارٍ سار معتمداً إليكم ... أجاءَتْه المَخافةُ والرجاء (زهير)

ـ نحمي حقيقتَنا ونمنعُ جارَنا ... (عبيد بن الأبرص)

ـ فما قاتلوا عن ربّهم وربيبِهم ... ولا آذنوا جاراً فيظعَنَ سالما[2]

ولا فعلوا فِعلَ العُويرِ بجاره ... لَدى بابِ هندٍ إذا تجرّدَ قائما[3]

(امرؤ القيس)

٧ و٨ ـ زوجُ الرجل (امرأته) وحبيبته :

أيا جارتا ، بِيني فإنّك طالقهْ ... ومَوْمُوقةٌ ـ ما دُمْتِ فينا ـ ووامقهْ[4]

(الأعشى)

ـ يا جارتا ، ما أنتِ جارهْ ... بـانَتْ لتَحْزُنَنا عَفـاره

(الأعشى)

آذنتْ جـارتي بِبَيْنِ رَحيلي ... باكراً جاهرتْ بِخَطْبٍ جليل

أزمعتْ بـالفِراق لَمّا رأتْني ... أتْلفُ المالَ لا يَذُمّ دخيلي[5]

---

(١) مضنّة (بفتح ففتحْ) : الشيء يضنّ أو يبخل به ـ إذا دعاني أحد إلى مساعدة في أمر صعب) أشمّر . . . (أبذل الجهد في مساعدته) .

(٢) ربّهم : سيّدهم (الملك عليهم) . الربيب (الذي تربّى معك ، عاش معك) . طعن : رحل .

(٣) هند (عمرو بن هند ؟) تجرّد قائما (في الدفاع عن أتباعه) .

(٤) بان : ابتعد ، فارق . موموق : محبوب . وامق : محبّ .

(٥) لا يذمّني دخيلي (الذي استجار بي) لأنني أكرمه .

أرْبَعي ، إنّما يَـريبُـك مِنّي ... .[1]

(المرقّش الأصغر)

ألا أمُّ عمرٍو أجمعتْ واستقلَّتِ ... . . .[2]

فَـواكِبِدي على أميمـةَ بعدَمـا ... طَمِعْتُ، فهَبْها نعمةَ العيشِ زلّت

فيا جارتي ، وأنتِ غيرُ مُليمةٍ ... . . .

فبِتْنا كأنّ البيتَ حُجِّرَ فوقَنا ... بِرَيْحانةٍ رِيحتْ عِشاءً وطُلّت[3]

(الشنفرى)

ـ ألا بانَ الخليطُ ولم يُزاروا ، ... وقلبك في الظعائن مُستعار[4]

أُحـاذِرُ أن تَبينَ بنو عقيلٍ ... بجارتنا فقـد حُقّ الحَـذار

وفي الإظعـانِ آنسـة لَعـوبٌ ... . . .

فبِتّ مُسهَّـداً أرِقـاً كـأنّي ... . . .

(بشر بن أبي خازم)

ـ ولا شكّ في أنّ كلمة « جار » للحبيبة نشأتْ من « الجِوار » وكَثْرة المخالطة :

غَنِيَتْ بذلك إذ هُمُ لك جِيرة ... منهـا بعطف رِسالـة وتَـودّد

ولقد أصاب فؤادَه من حُبّها ... . . .

(النابغــة)

---

(١) ربع : أقام واطمأن . رابه : أدخل الشكّ في نفسه .

(٢) أجمع (عزم) واستقلّ (ذهب ، ورحل) .

(٣) . . . جمع فوقنا الريحان (نبات طيّب الرائحة) . ريحت (اشتدت رائحته ؟) . طلّت : أصابها الطلّ (الندى) . ـ أصبح مسكننا طيّب الرائحة باردا بليلا .

(٤) بان : ابتعد . الخليط : الساكن معك . الظعينة (المرأة المسافرة) .

٩ ـ الجار الغريب :

ينتـابهنّ كِـرامٌ مـا يَـذُمُّهُم ۔ جارٌ غريب ولا يُؤذي لهم حَشَمْ[١]

(زياد بن حمل)

ـ فالضيفُ والجار الغريب كأنما ۔ هَبَطا تَبالةَ مُخْصِباً أهدابُها[٢]

(لبيـد)

١٠ ـ الجارتان . تُرفَعَ القدْر فوق النار على ثلاثةِ حِجارة يُقال لكلّ حجر منها أُثْفيةٌ .

فالحجران . المتقابلان جارتان ؛ والحَجَر الثالث (الخلفي) ثالثة الأثافيّ (بتشديد أو بلا تشديد) :

أقامتْ على رَبْعَيْهِما جارتا صَفا ۔ كُمتِ الأعالي جَوْنتا مُصْطلاهما[٣]

(الشماخ)

١١ ـ الجيرتان : الكَفالة والتَلاء (الولاية والذِمّة أو الجوار)

جِـوارٌ شاهـدٌ عَدْلٌ عليكم ؛ ۔ وسِيّـان الكَفـالـةُ والتَـلاءُ

بـأي الجيـرتَـيْـن أجَـرْتُمـوه ۔ فلم يَصْلُحْ لكم إلاّ الأداء[٤]

(زهيـر)

---

(١) الحشم : الحاشية ، الاتباع ، الخدم .

(٢) تبالة : اسم مكان . الأهداب (الأطراف) . ـ . . . . ينزل الصيف عليهم في خصب كثير .

(٣) كميت : أحمر . الجون : الأسود . المصطلى : المكان تصل إليه النار . الصفا : الصخر ـ . . .

(٤) الأداء : دفع المتوجّب على الإنسان . ـ . . . عليكم أن تقوموا نحو هذا الجار بما كنتم قد وعدتموه به .

١٢ ـ الخليط المجاور :

فظلّ عُفاتي مُكْرَمِينَ ، وطابخي ۔ فريقان منهم بَيْنَ شاوٍ وقادِرٍ[١]

شآمية لم يتخذ له حاسر الطـ ۔ ـبيخ ولا ذمّ الخليط المجاور[٢]

(حاتـم)

١٣ ـ الجار ذو القُربى والجار بالجَنْب وردتا في الشعر ، راجع أيضاً القرآن الكريم في سورة النساء (٤ : ٣٥) :

١٤ ـ المستجير : المستغيث :

المستجيرُ بعمرٍو عنـد كَربتـه ۔ كالمستجير من الرَمضاءِ بالنار[٣]

١٥ ـ قد يكون الرجل جاراً في قوم ثم يَعْقِدون له عَقْداً ويُعاهدونه تأكيداً للدفاع عنه :

إذا عَقَـدوا لجارٍ أخفـروه ۔ كما غُرّ الرِشاءُ من الـذَّنوبِ[٤]

(بشر بن أبي خازم)

١٦ ـ الجار المجاور :

ولا أنتمي إلاّ لجارٍ مُجاوِرٍ، ۔ فما آخرُ العيش الذي أتَنَظر!

(عروة بن الورد)

---

(١) العافي : طالب المعروف . الشاوي : الذي يشوي اللحم . القادر : الذي يطبخ

(٢) (اللحم) في القدر (يسلقه) .

. . .

(٣) الرمضاء : الرمل الحار .

(٤) أخفروه : نقضوا عهدهم له . غرّ (بالبناء للمجهول) : قطع . الرشاء : الحبل الذي يستخدم في الاستقاء من البئر . الذنوب : الدلو العظيمة . ـ . . . . إذا قطع الحبل من الدلو بطل أن يكون الدلو آلة لسحب الماء من البئر .

هذه الشواهد ، في الجار ، مجموعة من حماسة أبي تمام ، حماسة البحتري ، مختارات الشجري ، المعلقات (الزوزني) ، المفضليات ، جمهرة أشعار العرب ، بعض سيرة ابن هشام ، خمسة دواوين العرب ، ثم من الدواوين التالية : امرىء القيس ، عَبيد بن الأبرص ، النابغة ، طُفيل الغَنويّ ، عامر بن الطفيل ، عنترة ، زهير الخِرنِق أخت طَرَفَة ، أبو مِحْجَنٍ الثقفي ، عَلْقمة الفَحْل ، بِشْر بن أبي خازم ، عُروة بن الورد .

ثم إن هذه الشواهد في « الجار » مجموعة عندي منذ عام ١٩٣٢ ، ولكني أضَفْت إليها بيتين أو ثلاثة من ديواني بشر بن أبي خازمٍ وعُروة بن الورد .

والغاية من هذا المقال كلّه محاولةُ دراسةِ الكلماتِ دراسة قائمة على الصِلة المعنوية بين الجذور ، لا على ظاهر الرسم للأحرف . ولعل الهدف الأقصى لمثل هذا العمل إنما هو إيجادُ قاموس مبني على القَرابة بين جذور اللغة ثم الكشفُ ما أمكن عن المدارك الأصلية في اللغة وعن الجذور التي كانت تعبر عن تلك المدارك .

غير أن هذا المقالَ قد يَكْشِفُ عن مشكلتين . أما المشكلة الأولى فهي تداخُلُ الجذور . وذلك أنني أتخيَّل جذورَ اللغة نَهْراً كبيراً تَصُبّ فيه ، في أثناءِ سيره الطويل ، روافدُ مختلفةٌ تأتيه من مُنْحدراتٍ قريبةٍ وبعيدة ، كما تنفصل منه غُدرانٌ كثيرة : بعضُها يَضيع وَشِيكاً ، وبعضها يُصبح روافدَ لأنهار أخر ، وبعضُها الآخرُ يعود أدراجه إلى نهره ولكن بعدَ أن يكون قد تبدَّل قليلاً أو كثيراً بعواملَ لا تُعد ولا تحصى .

من أجل ذلك نرى أن عملَ واضعِ القواميس ، أو عمَلَ دراسِ اللغات،عملٌ ذو أوجه متعدّدة : إنّ على كل واحدٍ منهما في بعض تلك الأوجه أن يُميز ماءَ النبع الأصليّ من مياه الروافد المختلفة . وإذا لم يكن من شأنه هو أنْ يُعْنى بالغُدران ـ إلا ليُحَدِّدَ الزَمَن الذي مات فيه عددٌ من الألفاظ والجُذور ثم خَرَجَ من الاستعمال ـ فإنَّ عليه أن يميّز أيضاً بين الروافدِ الحقيقيةِ والروافدِ التي كانتْ من قبلُ غُدراناً .

تلك بلا ريب مشكلةٌ معقّدة .

وأما المشكلة الثانيةُ فهي أشدُّ تعقيدا :

إذا كانتِ اللغةُ العربية لغةً أعرابية ، فكيف نَجدُ فيها جُذوراً ليست في ما بقِيَ لنا من مصادرِ اللغات الأعرابية الأخرى ؟

ـ أنكتفي بأن نقولَ إنّ اللغاتِ الأعرابية الأُخرى قد ضاع منها أشياءُ كثيرةٌ ؟

ـ أيكفي أن نقولَ إن هذه الجُذور قد نبعت في لُغتنا العربية مستقلةً عمّا قَبْلَها وعمّا حولها ؟

ـ أيجوز أنّ نقولَ إن اللغة العربية قدِ استعارت ألفاظاً غيرَ أعرابية ثم عرّبتها حتّى أصبحت تبدو عربية خالصة ؟

ـ أيحسُنُ ألّا نرى في الموضوع مُشكلة وأن نقول عن هذه الجذور : هكذا وردت !

ـ أيمكن أن نَجد بعدَ محاولةِ الجواب على هذه الأسئلة أساساً لحلّ نوعٍ آخَرَ من المشاكل في تعليمِ اللغةِ وصَرفِها ونَحوِها فنُزيلَ

كثيراً من الشكاوى التي تُضمَرُ وتُعْلَنُ ـ بشأن صُعوبة اللغةِ العربية ـ حقّاً أو باطلاً ؟

إنّ أمامَ مجمعِ اللغة العربيةِ اليومَ ـ وَهُوَ في سبيل وضعِ المعجم التاريخي ـ فرصةً سانحة لدراسة هذه المشاكل ولدراسة مشاكلَ أُخَرَ ، فعسى أن تَتوفّرَ الجُهودُ على مثل ذلك وأن يكونَ المعجم التاريخيّ* فجراً جديدا للدراسات اللغوية عندنا .

(*) أصدر مجمع اللغة العربية (القاهرة) الجزء الأول من « المعجم الكبير» (حرف الألف) ، عام ١٩٧٠ م .

مراحل القياس* في تاريخ اللغة العربية

اللغة من نِطاق الرِواية من جيلٍ سابقٍ إلى جيل لاحقٍ على الألسنة . وعند تقليب النظر في ألفاظ اللغة وتراكيبها وصرفها ونحوها يجب علينا أن نقبلَ هذه كلَّها كما وَرَدَتْ ثم وَصَلَتْ إلينا .

وإذا نحن سألنا ـ ونحن نَرْجِعُ البصَرَ في وجه من وجوه اللغة ـ وقلنا : لماذا ؟ فإننا نَقْصِدُ أن نسأل كيفَ آتّفق ذلك ، ولا نَقْصِدُ أن نَعْرِفَ سَبَبَ ذلك .

والذي عليه العلماء أن نشأة اللغة بألفاظها وتراكيبها ثم تفرُّعَها لغاتٍ لم يخضَعْ (في الأكثر) لنظامٍ منطقيّ ولا لاتجاه عقلي . وإنما كانتْ نشأة اللغة وتشعُّبُ اللغاتِ أمراً متعلقاً بالأحوال النفسية والاجتماعية للإنسان عامةً ولكل جماعةٍ من الجماعات اللغوية خاصة . ولو أن اللغاتِ كانت خاضعةً لقواعدَ من المنطق لَوَجَبَ أن يكون لكل لفظٍ عام في عددٍ من اللغات معنىً واحدٌ في

(*) بحث ألقي في مجمع اللغة العربية (القاهرة) ، في السادس عشر من شوّال من سنة ١٣٨٣ (٢٩ / ٢ / ١٩٦٤ م) .

تلك اللغات ، ولَمَا وجدنا مثلاً أن كلمة « رَاز » تعني في العربية : قَدَرَ ، اخْتَبَرَ ، وهي في الفارسية « سِرّ » وهو المفرد من « أسرار » ، ثم هي في الفرنسية « حَلَق » . ولقد كان من بابٍ أوْلى ألاّ نَجِدَ في اللغة الواحدة لفظاً واحداً يدل على مَعانٍ كثيرةٍ متقاربة في المعنى أو مختلفة المعاني أو متناقضة المعاني ككلمة « عين » أو كلمة « خال » في اللغة العربية مثلاً .

ولكن يبدو أن كل لغة قدِ اتّخذتْ في بعض أدوارها المتأخرةِ جانباً من المنطق الصِناعيّ نشأتْ به قواعدُها . إن مجيءَ كل فاعلٍ مرفوعاً حُكْماً ، وكلِّ مفعولٍ منصوباً ، وكلِّ مسبوقٍ بحرف جر مجروراً ، دليل على وجود نظام منطقيّ تفرقت به تلك الأحوال من الإعراب . ولا ريبَ أيضاً في أن تلك الأحوال كانت في أوّلِ الأمر لا تفاوت فيها ، ثم حَدَثَ التفاوُتُ فيما بعدُ .

وبما أن اللغةَ في الأصل من نِطاق العالَمِ الاجتماعيّ والنفساني للإنسان ، لا من نِطاق العالَمِ العقلي المنطقي ، فإن المنطق كان قليلَ الأثرِ في سَكّ الكلمات وبناء التراكيب عند أمْنِ اللَّبْس في نقل المعنى المراد من القائل إلى السامع . إن الشاهد اللغوي : « دخل الخاتَمُ في إصْبَعي » ، أو « خرق الثوبُ المسمارَ » ليس لُعبةً مِنَ ابتكار النُحاة ، ولكنّه دليل على اتجاه في الوضع اللغوي للتعبير عن المدارك والمعاني . وتطرَّفَ نفَرٌ من النحاة فقالوا بجواز نصْبِ الفاعل ورفع المفعول إذا أُمِنَ اللبسُ في مثل قولنا : بل الماءُ الورقُ أو أكل الطفلُ الذئبَ ، ذلك لأن المعنى المراد واضح مهما تتقلبْ كلماتُ الجملة في أحوال الإعراب ومهما تتخالفْ في الترتيب تقديماً وتأخيراً .

ويبدو أن الإنسان قد أدركَ هذه الخاصّةَ في اللغة فأخذَ منذ زمنٍ بعيد جداً يفارق المنطق ، لأن ذلك المنطق كان يُورِثُ اللغة تطويلاً لا حاجةَ إليه في التعبير عن المُراد ثم يورثها أيضاً قساوَةً في ذلك التعبير .

وفي مفارقةِ ذلك المنطقِ جعل الإنسانُ يميلُ إلى الاختصار والموسيقى . وفي هذا الانتقال من المنطق إلى الموسيقى خاصّةً نشأ ما نسميه « القِياس » . لقد أرادَ الإنسان أن يُقَطِّعَ ميدانَ المنطق الواحدِ الشامل وَحَداتٍ خاضعةً لأوجهٍ من المنطق أضيقَ نِطاقاً في اللغة ، إذا كان ذلك التضييق يمكّنه من أن يجعل تعابيرَه أقلَّ تطويلاً وألين تُرْتُبَةً من غير أن تَفْقِدَ تلك التعابيرُ شيئاً من دِقّة الأداء أو من قوة الأداء : لقد فضّل الإنسان في لغته الموسيقى على المنطق ما أمكن .

وندرس نحن انتقالَ الإنسان في لغته من المنطق إلى الموسيقى - وهو ما أحببتُ أن أُسَمِّيَ به القياس - فإذا بنا نجده يقع في اللغة العربية في ثلاثة أطوار أساسية :

١ - هنالك الطورُ السابقُ لتاريخنا والذي خرجتْ في أثنائه لغتنا من أن تكون أعرابية إلى أن تُصْبِحَ عربية .

٢ - الطور الجاهلي ، وهو الذي تعرّضت اللغةُ العربية في أثنائه للتحلُّلِ من عددٍ من قواعدِ الطور الأول كثيراً أو قليلاً . في هذا الطور بلغ العاملُ الموسيقي أوجَ أثرِه . ونحن نجد صورةً لغتنا العربية في طورها الجاهلي هذا في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم . غير أن الجانبَ القرآنيَّ من تلك الصورة أصدقُ من

الجانب المحفوظ لنا في الشعر الجاهلي ، ذلك لأن الشعر الجاهلي قد خضع في أثناء روايته خلالَ القرون الثلاثة التي امتدت من نهاية الجاهلية إلى غَمْرة العصرِ العباسي لمؤثِّراتٍ كثيرة .

إن هذين الطورين كانا طورين عربيين خالِصَيْن خضعتْ في أثنائهما اللغةُ العربية لعبقرية العرب وحدَها وللذوق العربيّ وحدَه . إن اللغة التي رُوِيَتْ لنا من ذَيْنِكَ الطورين كانت لغة البادية البعيدة عن عوامل العُجمة التي كانت تتمثل في لغات القُرى (المدن) وفي لغات القبائل التي خالطتِ الأعاجم أصْلاً كالفرس والروم أو خالطت الأعاجم حُكماً كالأحباش والآراميين .

٣ ـ الطور المتأخر بعد الإسلام ، وهو الذي يجوز لنا أن نسميه الطور الأعجمي ، لأن المسوِّغَ الأولَ للقياس في هذا الطور كان طُروءَ اللحن على اللغة العربية من تكاثُرِ غيرِ العرب في البلاد الإسلامية . أضف إلى ذلك أن علماءَ اللغة ، في ذلك الطور ـ وفيهم الذينَ اهتموا بالقياس ـ كانوا من غير العرب في الأكثر . ونحن ، وإن كنا لا ندفع أولئك العلماءَ الأعلامَ عن البراعة في علم اللغة ، فإننا لا نستطيع أن نجعل قيمة عملهم على مستوى واحد مع عمل العرب أنفسهم في الطورين السابقين ، هذا إلى جانبِ أنّ العملَ في الطورين السابقين كان عملاً جَماعياً للأمّة العربية بينما هو في الطورِ اللاحقِ المتأخّرِ عملُ أفرادٍ معدودين .

ولقد رأيتُ أن أقصُرَ أنا بحثي على الطورين الأولين ، إلّا إشارةً واحدةً عامّةً إلى القياس العباسي .

١ ـ في القياس الأول القديم . . . طور ما قبل العربية .

إذا كان الفعل ثلاثياً فالمنطق يقضي أن تبقى الأحرف الثلاثة ظاهرة في جميع تصاريف ذلك الفعل ، وأن يَجْرِيَ التصريفُ مجرىً واحداً في جميع الأفعال ، فكما نقول فَعَلَ يَفْعُلُ ونقول قياساً على ذلك نَصَر ينصُر ، فيجب أن نقول : هو تَلَوَ ، هي تَلَوَتْ ، هم يَتْلُوُون ، كما لا يزال الأحباش يقولون أو قريباً من ذلك . ولا غرابةَ في ذلك ، فنحن العربَ لا نزال نقول : هما تَلَوا ، هما تَلَوَتا ، هن تَلَوْنَ ، وكذلك يقضي المنطق أن نقولَ : رَمَيَ ، يَرْمِيُ ، يَرْمِيُون ، والأحباش ـ وهم أعرابيون مِثْلَنا ـ يقولون مثل هذا أيضاً . ونحن العربَ لا نَزالُ نقولُ في الفعل الناقص : رَمَيَا ، يَرمِيَان ، تَرْمِيَان . ويبدو لي أن هذه القاعدة المنطقية قد عاشت إلى الجاهلية القريبة ، وإلا فكيف نعلل الرسم في السورة الواحدة والتسعين من المصحف (سورة الشمس) ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ والشمسِ وضُحيٰها ، والقمر إذا تليٰها ، والنهار إذا جلّيٰها ، والليلِ إذا يَغْشيٰها ، والسماءِ وما بنيٰها ، والأرضِ وما طحيٰها ، ونفسٍ وما سوّيٰها ، فألْهَمَها فُجورَها وتَقْويٰها ، قد أفْلَحَ من زكّيٰها وقد خاب من دَسّيٰها . كذبتْ ثَمودُ بطَغويٰها ، إذِ انبعثَ أشقيٰها ، فقالَ لهم رسولُ اللّهِ : ناقَةَ الله وسُقيٰها . فكذّبوه فعَقَروها فدَمْدَمَ عليهِمْ ربُّهُمْ بذنبهِمْ فسويٰها ، ولا يَخافُ عُقبيٰها ﴾ .

في هذه السورة الكريمة نجدُ الواوَ والياءَ في الاسم المنقوص وفي ماضي الفعل الناقص ومُضارِعِه مُثْبَتَتَيْنِ ياء بلا استثناء . ثم إنّ نفراً من القُرّاء يَقْلِبون هاتينِ الواوَ والياءَ ألِفاً ، بينما

نفرٌ آخرونَ منهم يجعلونهما مُمالتَيْنِ بينَ الألِفِ والياء . وسورةُ الشمسِ ليستِ السورةَ الوحيدَةَ التي تضُمُّ مثلَ هذه القِراءة .

فالعربُ ، إذَنْ قد ظلوا إلى الجاهلية يُجْرونَ الأفعالَ الناقصةَ مَجْرى الأفعالِ السالمة في التصريف أو قريباً من ذلك ، ولا يقدَحُ في هذا الحُكْمِ أنْ يكونَ ذلك لُغَةً في قبيلةٍ أو قبيلتين .

غيرَ أن الذَّوْقَ العربيَّ قدِ اختارَ منذ الزمن الأبعدِ أن يُجانِبَ المَنطِقَ في بعض اللغة ويميلَ إلى الموسيقى في اللفظ في كلِ لفظٍ تُكْسِبه تلك الموسيقى خِفَّةً وجَمالاً . وهكذا صِرْنا نقول : تَلا ، تَلَتْ ، تَلَوا ، تَلَوْنَ ، ثم أصبحَ هذا القياس في الفعل الناقص قاعدة في العربية نقولُ على أساسها : رَمَى ، رَمَتْ ، رَمَوْا ، - عَدَا ، عَدَتْ ، عَدَوْا ، سَمَا ، سَمَتْ ، سَمَوْا ، الخ . ولا تجوزُ المخالفة في ذلك ، لأنّ هذا القياسَ هو الذي خَرَجَ بتلك الأفعال من الاشتراك مَعَ عددٍ من اللغاتِ الأعرابية إلى الانفرادِ في لُغة العرب .

وكذلك اختارَ الذوقُ العربيُّ ، ومنذُ الزمنِ الأبعدِ أيضاً ، أن يفتَحَ حرفَ المُضارعة فنحن اليوم نقول : أَنصُر ، تَكتُب ، نَشْربُ ، يَذهبون . أما الأشوريون فوصَلَ إلينا حرفُ المضارعة مُفَرَّقاً عندهم بين الفتح والكَسر . والأحباشُ اختاروا الإمالة ، والعِبريون اختاروا الكَسْرَ في الأكثرِ والإمالة أحياناً . واختار الآراميون الشرقيون الكَسر . أما الآراميون الغَرْبيون المعروفون بالسُّريان فاختاروا الإمالة .

وأما نحن العربَ ، فنجعَلُ القاعدة اللازمة في حرفِ المضارعة الفَتْح فقط قياساً لازماً وإذا قيل لنا إن قبيلة عربية كانت تخالف ذلك ، أو لا تزالُ تخالفُ ذلك كبني تميمٍ الذين يَكْسرون حرفَ المضارعة ، فإننا نعد ذلك من تلك القبيلة العربيةِ عملاً شاذّاً لا يُقاس عليه وغيرَ مُلْزِمٍ لنا في لُغَتِنا الفُصحى في شيءٍ ، إلاّ في فعل واحد « إخال » فإننا نَكْسِرُ فيه حرفَ المضارعة .

وفي اللغة العربية أمورٌ كثيرةٌ جِدّاً فارَقَ العربُ فيها المنطقَ إلى الموسيقى ، منذ الزمن الأقدمِ كالمَبْنيات والمَمْنوعات من الصَرْف والمقصورِ والمنقوصِ والمُعتَلِّ والكلماتِ التي وَقَعَ فيها الإبدال والإدغام ثم المُثنى والجُموع السالمة للمذكر والمؤنث . إن هذا الذي اتّفقَ للمَبْنياتِ وللممنوعاتِ من الصرف وللمعلولاتِ ولجمعِ المؤنّث السالم كان مُفارقةً للمنطقِ وخُروجاً على القاعدة العامّة حبّاً بالموسيقى وبالتآلُف في اللفظ ، أو هو في عُرْفِنا « خطأ » . ولكن هذا الخطأَ لمّا عمّ قصداً ثم تناول جانباً مُعَيّناً من اللغة لم يُغَادِرْ في نِطاقه شيئاً يدخُلُ في نِطاقٍ آخَرَ كان قاعدةً فرعيةً صادقةً وبطَلَ أن يكونَ خطأً فعدَدْناه نحنُ قياساً وقاعدةً جديدةً . والدليل الشكلي على أن ذلك لم يكن خَطأً أنّ العربيَّ كان يعلَمُ في أثناءِ ذلك أنه يخالفُ القاعدةَ في سبيلِ شيءٍ له قيمةُ القاعدة . ولما جاء النُحاة يُخرّجون أوجهَ إعرابِ هذه الكَلِماتِ كانوا واعِينَ ذلك وعْياً تامّاً . إن قولَ النحاة في إعراب « كتابي جديدٌ » : كتاب : مبتدأٌ مرفوعٌ بالابتداء ، وعلامةُ رفعهِ الضّمةُ المقدَّرةُ على ما قَبْلِ الآخِرِ مَنَعَ من ظُهورها اشتغالُ المحَلّ بحَرَكةٍ مُناسبةٍ ، أو بالحَرَكةِ المناسبةِ للياءِ ، وهي الكَسْرة ، قولٌ لخص لنا مفارقةَ المنطِق في سبيلِ

الموسيقى تلخيصاً بارعاً جدّاً ودلّ على أن العربيَّ القديمَ لما اختار أن يقول كتابي كان يُدْرِكُ أن حقَّ الباء في « كتابي » هو الضمّ ، ولكنه مالَ عنِ الضّمِ إلى الكسرِ عَمْداً في سبيلِ تسهيل اللفظِ وتحسينه في رأيه .

ووقفت العبقرية العربية ، في الزمن الأبعد أيضاً ، من الفعل المضعف عدّ ، فرّ ، قصّ ، حلّ ، سنّ ، الخ . موقفاً أعطانا ثلاث قواعد فرعية .

(أ) إدغام المُضاعفين ، فنقول مثلاً : عدّ ، عدّا ، عدّوا ، يعُدّون ، لن يعدَّ ، لن يعُدّوا ، لا غيرَ فيها وفي مثلها .

(ب) فكّ المضاعفين ، فنقول مثلاً : هنّ يَعْدُدْنَ ، أنتما اعدُدَا ، أنتن اعْدِدْنَ ، لا غيرَ فيها .

(جـ) ترك الحرية في الإدغام وفكه ، فنقول مثلاً : لم يُعدّ ولم يعدُدْ ، أو لم يُعِدَّ ، ولم يُعْدِدْ ، وعُدّو واعْدُدْ أو أعِدَّ وأعْدِدْ .

ويأتي الشاعر الجاهلي قَعْنبُ بنُ أمِ صاحبِ التميمي ، وهو في الحماسة شاعر إسلاميّ من شعراء العصر الأموي (الحماسة ١ : ١٧٩) فيقول (سيبويه ١ :٨) :

.... إني أجودُ لأقوام وإنْ ضَنِنوا

ففك الإدغام في « ضننوا » حيث لم تفكّه العبقريةُ العربية الأولى ، فنجعلُ نحن فكّ الادغام هنا خطأ شخصيّاً لا يُسامَح قائلُه ، حتى إن أبا تمام لما اختار لقعنبٍ الأبيات التي منها هذا البيت حذف هذا البيت لورود كلمة « ضننوا » فيه ، على ما أعتقد .

ولما خرج الفعل « هَلَكَ » من النِطاق الأعرابي العام إلى النطاق الخاص حدث فيه نزاع يتعلق بعين الفعل . إن الفعل « هلك » معناه في الأخوات الأعرابيات : ذهب مضى ، سار . وعلى هذا يُنْتَظر ، جرياً على القاعدة العامة ، أن يكون من باب « نَصَرَ » أو من باب « ضرب » لأن المعنى فيه متعلق بحركة ماديّة . ولكن الفعل الأعرابيَّ « هلك » تبدل في اللغة العربية بمعناه الحقيقيّ الأول معنىً مجازياً جديداً هو : مات ، اندثر ، الخ . من أجل ذلك كان من المُنتظر أن تتغيرَ حركةُ عينِ الفعل في الفعل « هلك » مَعَ تغيُّر معناه . لذلك نجد في القاموس (٣ ، ٣٢٤) أن الفعل هلك من باب ضَرَبَ ومَنَعَ وعَلِمَ . غير أن الأفصح أن يكون من باب ضرب وعلى هذا الباب ورد هذا الفعل في القرآن الكريم مرات منها قوله تعالى في سورة الأنفال (٨ : ٤٣) « ﴿ **لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنة** ﴾ . أما العامّة فاختاروا أن يجعلوا هذا الفعلَ من باب علم . وهكذا نجدُ أن الفصاحة تمسّكَتْ بحركة العين في هذا الفعل كما كانت في الأصل ، ثم أجازت تبدل الحركة بحسب المعنى الجديد . أما العامة فاختاروا أن يتقيدوا في عين الفعل من « هلك » بالمنطق الجديد فهم يقولون هَلِكَ يَهْلَكُ من باب علم * .

(٢) في القياس الجاهلي :

وفي الجاهلية القريبة منا خالف العربُ المنطقَ في اللغة . وسأترك ما ورد في ذلك في الشعر الجاهليّ لأنه قد يكونُ خطيئةً من

(*) راجع ، فوق ، ص ٤٨ ـ ٥٠ .

شاعر ، كما كان الشأنُ في كلمة « ضننوا » أو خطأ في الرواية ثم أكتفي بما ورد من ذلك في القرآن الكريم .

في الممنوع من الصَّرْفِ كَلِمةُ « أشياء » ولا وجهَ ظاهراً أو خفيّاً لمنعها من الصرف . وإذا نحن راجعنا ما جاء في شأن منعها من الصرف واكتفينا بما جاء في القاموس للفيروزابادي ثم في تاجِ العروس للمُرتضى الزَبيديّ أدركنا تعثُّرَ اللغويين والنحاة في تخريج منعها .

يقول الفيروزابادي (١ : ١٩ - ٢٠) :

قول الجوهري إن أصل « أشياء » أشائي بالهمز خطأ . . . . وحكى أشايايا ، وأشاوه غريبٌ ، لأنه ليس في « الشيء » هاء . . . . وحكاية الجوهري عن الخليل أن أشياء فعْلاء (بسكون العين) وأنها جمعٌ على غير واحدةٍ كشاعرٍ وشعراءَ ، حكايةٌ مختلّة . . . . وأما الكسائي فيرى أن صرفها تُرِكَ لكَثرة الاستعمال .

ولقد ردّ الفيروزابادي كل هذه الأقوال ، ولكنه لم يذكُرِ الوجهَ في منع « أشياء » من الصرف أو لم يعتقد لمنعها من الصرف وجْهاً (راجع أيضاً استعراض المرتضى الزبيدي لهذه الآراء ، (تاج العروس ١ : ٨٣ - ٨٥) .

وكلمة « أشياء » وردت ممنوعة من الصرف في سورة المائدة (٥ : ١٠١ أو ١٠٤) في بعض المصاحف **﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكُمْ تسُؤكم ﴾** . وهي لم تَرِدْ في القرآن الكريم على هذا الوجه في غير تلك الآية . ولا أحسَبُ أنّني رأيتُها في شعر جاهلي . فإذا نحن نظرنا إلى كلمة « أشياء » في الآية

الكريمة وجدناها تقع بين كلمتين تنتهي كل كلمة منهما بنونٍ ساكنة . فلو أجريتِ الآيةُ على منطقِ النحو العربي لكانت : **﴿ ولا تسألوا عنْ أشياءٍ إنْ تُبْدَ لكم تسُؤكم ﴾** . ومجيء النون الساكنة طرفاً في ثلاثِ كَلِماتٍ متواليةٍ مُنافٍ للموسيقى ومكروهٌ في قِراءةِ القرآن . ولا أزالَ أذكُرُ من عهد طفولتي أن الأستاذَ الذي كان يُقْرِئنا القرآن كان إذا سَمِعَ تلميذاً يشُدُّ النونَ ثم يمدُّها ضَرَبَ المِنضَدَةَ بعصاه ، وقال غاضبًا : يا ولد ، لا تْؤَنْئِن، « فمنعُ أشياءَ » من الصرف هو عندي - إذا لم تكن تلك الكلمة قد جاءت على هذا الوجه في غيرِ القرآن الكريم - إنما عُدِلَ إليهِ في الآيةِ الكريمة لِعلّةٍ عارضةٍ من اللفظ فقط .

من أجل ذلك نحن نمنَعُ « أشياءَ » من الصرف لأنها مُنِعَتْ في القرآن الكريم ، ولا نمنَعُ « أبناءً » و« أسماءً » ، كما قال الفيروزاباديُّ (القاموس ١ : ٢٠) ، وإنْ لم تكن كَلِمةُ « أشياء » أحقَّ منهما بالمنع . غيرَ أننا منذ ذلك الحين نمنَعُ كلمة أشياءَ من الصرف . قال المُقَنَّعُ الكِنْديّ ، وهو شاعرٌ أموي :

يُعاتبني في الدَّيْنِ قومي ، وإنما ديونيَ في أشياءَ تُكْسِبُهم حمدا !

وفي القرآن الكريم قِراءاتٌ وردتْ فيه لأنها من لُغاتِ العرب الصحيحة ، وكلها مقبولةٌ في القرآن الكريم . ونحنُ لا نتعرض هنا ، فيما يتعلق بهذه القِراءاتِ ، للمَدْرك الديني أو للمدركِ اللغويّ في سَبَبِ وُرودِها ما دامَ الإجماع واقعاً في المدركين معاً عند رجال الدين ورجال اللغة على أنها لغاتٌ عربية لا شكَّ في ذلك . غيرَ أن هذه القراءاتِ ليستْ على عُلُوٍّ واحدٍ في طَبَقاتها فإن

منها المتواترَ وإن منها الشاذَّ . واللّهُ تعالَى قد خاطبَ العربَ بهذه اللغاتِ كُلِّها لأنها كانت معروفةً في الجاهلية : ولا ريبَ في أن القراءات المتواترةَ تمثّلُ كلماتٍ كانت أوسع انتشاراً في القبائل من الكلماتِ التي تمثّلُها القِراءاتُ الشاذّةُ .

هذه القراءات التي أشرت إليها تنقسم صنوفاً .

(أ) هنالك قراءاتٌ مثلَ نُكْرا ونُكُرا ومثل زكيّةً وزاكية ومثل تحسّسوا وتجسّسوا . هذه كلُّها صِيَغٌ فصيحة لا يمنَعُ مانعٌ مِن استعمالها وهي لا تدخُلُ في نِطاق بحثنا .

(ب) ثم هنالك قراءاتٌ متواترةٌ حُذِفَتْ فيها الياء المتطرفة في الآيات الكريمة التالية :

- **﴿ ذلك ما كنا نَبْغِ ﴾** (مكان : نبغي) .
- **﴿ سواء العاكف فيه والبادِ ﴾** (مكان : البادي) .
- **﴿ فإياي فاعبدونِ ﴾** (مكان : فاعبدوني) .
- **﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالوادِ ﴾** (مكان : بالوادي) .
- **﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتليه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمنِ ﴾** (مكان : أكرمني) . **﴿ وأما إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهاننِ ﴾** (مكان : أهانني) .

إن هذه الكلماتِ وأمثالَها يجب أن تكونَ من لُغاتِ القبائل التي كانت مُجاورةً للآراميين في العراق وفي الشام . إن الآراميين يُثبتون الياء متطرفةً في الخط ويُسْقطونها في اللفظ وذلك قديمٌ فيهم : إن الانجيل الذي بأيدي الناسِ يذكُرُ أن المسيح قال :

آلوه ، آلوه ، لموشْبَقْتَنْ ، مكان : إلٰهي ، إلٰهي ، لموشبقتني (أي لِمَ تركتني) .

ولغتنا الفصحى تَعْرِفُ ذلك في المنادى شِبْهَ مُطَّرِدٍ ، فنحن نقول : يا ربّي ويا ربِّ (بالكسر أو الضم) كما نقول : يا صاحِ مكان يا صاحبي ، ويا أمِّ مكان يا أمي .

في كل هذه الشواهد نجد العربيَّ يَعْدِلُ عن المنطق إلى الموسيقى لا غيرَ .

(جـ) ثم هنالك في القرآن الكريم أيضاً قِراءاتٌ مثل : **﴿ إن هذانِ لساحرانِ ﴾** ، ومثل : **﴿ وأسرّوا النجوى الذين ظلموا ﴾** . إن هذه قراءاتٌ تمثل كَلِماتٍ كانت قد بدأتْ في الجاهلية تجانبُ القاعدةَ المقبولةَ ، ولكنّ القرآن الكريم نزلَ قبلَ أنْ تعُمَّ تلك المجانبةُ في المنطق ذلك الصنفَ كلَّه ، من الكلمات . من أجل ذلك بَقِيَتْ تلك القراءات قاصرةً على الكلماتِ التي وردت كذلك في القرآنِ الكريم شاهداً مُفْرَداً لا قاعدةً يجوزُ القياسُ عليها .

٣ ـ الطور الإسلامي :

وفي العصر العباسي نشأ علم القِياس : لقد أراد العرب ، أو المسلمون على الأصحّ، أنْ يجعلوا من اللغةِ علماً كعلم الفِقه وعلم الكلام . وإذا كان الصرفُ والنحو في اللغة يمكنُ أنْ يُضْبَطا بقواعدَ واسعةِ النِطاق أو ضيقةَ النِطاق ، فإن اللغة نفسَها لا يمكن أن تخضَعَ للقواعدِ المصنوعةِ لأنها من نِطاقِ الاستعمال المتأثر بعواملَ اجتماعيةٍ ونفسية . والذي يراجع آراء العباسيين في القياس لا يغيبُ عنه أنّ أصحاب القياس اللغويِّ الذين كان أكثرُهم من غير العرب قد

حاولوا بعِلم القياس أن يُسوِّغوا الأخطاءَ اللغوية التي كانتْ تتسرَّبُ إلى اللغة العربية معَ اللَّحْنِ الطارىء على الألْسِنَةِ بين البَدْوِ قليلاً وبينَ الحضر كثيراً .

وبما أنني لم أقْصِدْ منذ مطلع مقالي هذا أن أعالجَ هذه الحِقبة العباسية من حِقَبِ القياس ، فإنني سأقف بمعالجة الموضوع هنا .

وبعد فما النتائج التي نريد أن نصلَ إليها من كل ما مرّ بنا ؟

إن تطورَ اللغاتِ صعوداً وهُبوطاً يبدأ مَعَ نشأة اللُّغة ثم لا يقفُ ما دامتِ اللغة تُروَى حِكَايةً أو كِتابة . واللغاتُ لا تتبَعُ في تطوِّرِها خطًّا منطقياً متصلَ المعالمَ ، ولكنها تخضَعُ في الفَيْنَة بعدَ الفينة لعواملَ اجتماعيةٍ ونفسية تطْرُؤ على غيرِ نظام . من أجل ذلك يجب علينا في لُغتنا :

أولا ـ أن نقبَلَ كلَّ تطوُّرٍ داخليٍّ في اللغة يَجْعَلُ من كلِّ مجموع من الوجوه المتّفقة فيما بينَها قواعدَ عامةً كأن تكونَ علامةُ الرفع واواً ونوناً أو ضَمَّةً ظاهرةً أو مُقدَّرة . ثم إننا نقبل الشواذَّ من ذلك الطورِ أيضاً ، تلك الشواذُّ التي هي بقايا القاعدة الأصلية كالأسماء الخمسة وكالواو في عمرو وكالضمّة والفتحة والكسرة التي تأتي قبل الهمزة في كلمة « امرىءٍ » . في هذا الصنف من الأحوال نقيسُ على القواعدِ العامة ونقبل الشواذَّ وحدَها كما وَرَدَتْ ولا نقيسُ عليها غيرها : إننا لا نُعْرِبُ الراء قبلَ الهمزة في مُقرىء كما نُعْرِبُها اليومَ في كلمة « امرىءٍ »* ولا نُلحِقُ الواوَ بكلمة مَعْنٍ قياساً على

(*) نقول : امرؤ (بضم الراء والهمزة) وامرأ (بفتحهما) وامرىء (بكسرهما) .

الواو المرسومة والملفوظة في كلمة « عبدو » أو قياساً على الواو المرسومة غير الملفوظة في كلمة « عمرو » .

ثانيا ـ أن الأحوالَ التي شذَّت في الجاهلية قريباً من الاسلام ، قبل الاختلاط الواعي للعرب بغيرِ العرب نَقْبَلها على أنها شواذٌّ عن القاعدة : نقلُبها وحدَها كتأنيثِ كلمة ضوضاء(في معلقة الحارث بن حِلِّزة) وكمنع كلمة « أشياءَ » من الصرف من غير أن نمنع كلماتٍ غيرَها قياساً عليها مثل كلمة أسماء التي هي جمع اسم وكلمة أبناء أو أنباء أو أزياء . أمـا الأخطاءُ الشخصية مثل كلمة « ضننوا » فتبقى عندنا أخطاء لا تدخُلُ في نظامنا اللغوي .

ثالثا ـ أما المَقِيسات التي نشأتْ في العصر العباسي والتي حكّمَ الرُّواةُ فيها أقوالَ الرجال والمنطق فيجب ألا تقيِّدُنا إلا بمقدارِ ما لها من نفعٍ في الاستعمال ، وليس من الضروريّ أن نحاولَ فَرْضَ كُلِّ المَقيساتِ المتخيَّلة على القَواميس ، سواءٌ أكان لها مُسَوِّغٌ نظريٌّ أم لم يكن لها مُسَوِّغٌ .ثم إن ما نقبلُه من هذه نقبلُه وحدَه ولا نقيسُ عليه ، وإنما نقيسُ دائماً على القاعدة العامة .

يجب ألا نَحْمِلَ لُغتَنا على قواعدِ اللغات الأجنبية . ليستِ اللغةُ العربية في صِلتها باللغة الأعرابية الأُمّ كاللغات الإفرنسية والإيطالية أو الإنكليزية والألمانية في صلتها باللاتينية أو الجرمانية . إن لغتنا قادرةٌ على الحياة والبقاء بنفسِها وقادرةٌ على تعريب ما هي بحاجة إليه . لما خرج العربُ إلى الحضارة العباسية واحتاجوا إلى صِناعةِ تبديلِ العِملة في الأسواق احتاجوا بطبيعة الحال إلى اللفظ الدالّ على ذلك ، فأخذوا الكلمة اليونانية « صرّافوس » ثم قطعوا

منها علامةَ الإعراب اليونانية وجعلوها تتبدل (بتلك السين : علامة الإعراب في اليونانية) علامةَ الإعراب العربية . واتفق أن اللغة العربية كانت تحوي الجذر « صرف » فعُربت كلمةُ « صرافوس » اليونانية ثم أُجْرِيتْ مَجرى الجذرِ العربي في صِيَغِهِ ، فإذا عندنا صرافٌ وصرافون وصَيارفة وصَرَفَ ويَصْرِفُ وصِرافة ، وكأنّ كلمة صرّاف لم تكنْ في يومٍ من الأيام يونانيةً غيرَ عربية :

إن كلامي هذا قد يثير سؤالاً وجيهاً :

ما قيمة العمل الذي يقوم به مجمعُ اللغة العربية ، بل كلُّ مجمعٍ للغة ، في وضعِ المصطلحات العلمية والفنية ، إذن ؟

إن عمل المجمعِ من بابٍ آخَر ، وهو عملٌ مُهِمٌ في ذاتِه وقيّم ، وهو ينفع اللغةَ العربية ولا يضرّها . ثم إنه لا يدخل في موضوع النقد الذي نُجمله هنا لأن هذه المصطلحاتِ التي تُعرَّب أو تُولّد في المجمعِ ستظلُّ من حيزِ العلم وفي قاموس أهلِ الاختصاص ؛ وقلّ أن تَنْزِلَ إلى ساحة اللغة اليومية .

إن المصطلحاتِ العلمية في كل لغةٍ تظلّ مدركة بتعريفها فقط ولا تنتسج في لُغة الحديث ولغة التعبير العامة . مثال ذلك : أن كلمة « الحَذْف » التي أقرّها المجمعُ في مُصطلحات علم الرياضة والهندسة (راجع مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرّها المجمع ، الجزء الأول ، ديسمبر ١٩٥٧ ص ٢٠٦) في مقابل كلمة Elimination لا بأسَ بها ، وإن كنت أنا أفضّل كلمة « الحطّ » . ولكن سواءٌ علينا استعملنا كلمةَ الحذف أو كلمة الحط فإن هذه الكلمة ستظلّ مرتبطة بالتعريف الذي اختارته مجموعةُ

المصطلحات العلمية والفنية ، أي : نتيجةَ حذفِ جُملةِ مجاهيلَ من جملة مُعادلاتٍ والحصولَ على معادلةٍ لا تحتوي على هذه المجاهيل . هذه الكلمة بهذا التعريف ستظلُّ في قاموسِ دارسِ الجبر ، أقْصِدُ الجبرَ الذي هو فرعٌ من علم الرِياضيّات لا الجبرَ الذي هو من فروع علم الكلام ومن أصول الدين . وربّما احتاج عالمُ النبات وعالم الحيوان أو عالم الموسيقى إلى هذه الكلمة نفسِها فاستعملها في معنىً آخَرَ بتعريفٍ آخر . والواقع أن هذه الكلمة Elimination تُستَعْمَلُ في الكهرباء للدلالة على ملء بطارية بالتيار من مجار كهربائية عامّة .

أما الرجلُ العاديُّ والأديبُ الوُجدانيّ والكاتبُ الوّصاف والمؤرخ القَصّاص فإن كلَّ واحدٍ منهم سيظلُّ غافلاً عنِ المعنى الذي أفرغنا عليه الحذف إفراغاً جديداً ، وسيستمرّ في استعمال كلمة الحَذْف وكلمة الحطّ كلما احتاجَ إلى واحدةٍ منهما في معانٍ لا صِلَةَ لها بالمعاني الموضوعة لهما في فروعِ العلوم والفنون .

أما إذا وصلنا إلى « الغِلاف الهندسي من الصنف الثاني » (ص٢٠٦) ، وإلى « الدالّة الصريحة » وإلى « المُتَسلسلة الأُسّية » (ص ٢٠٨) ، فإننا نَصِلُ إلى تعابيرَ لا صِلة لها البتّةَ بلُغتنا اليومية .

من أجل ذلك يجبُ أن نقبلَ كلَّ هذه المصطلحات العلمية والفنية ، وإن كان بعضُها بعيداً عنِ المعنى اللغويّ المقصود ، لأن الاستعمال هو الذي سيقرّبُها في النهاية من المعنى المُراد . غيرَ أننا يجب أن نتشدّدَ في القِياس الذي يدفع بالكلماتِ والتعابيرِ إلى

الاستعمال العامّ . يحسُنُ برجالِ العلم أن يتوسعوا في المصطلحاتِ العلمية والفنية لأنّ التوسع في تلك المصطلحات يسهِّلُ طريقَ العلم أمام رِجال العلم . ولكن يحسُنُ بالأدباء والكُتّاب أن يقتصدوا في التسامحِ في القياس ، ذلك لأن لُغتَنا العربيّةَ خاصّةً ليست لغةً للتخاطب فحَسْبُ ، بل هي مَجْلَى حضارةٍ وثقافةٍ أيضاً ، ثم هي جامعٌ دينيّ وقوميّ وسِياجٌ حولَ وَحْدةٍ ثقافية وحول شعور سياسي . وكلما كانتِ الأسسُ اللغوية أشدَّ ضبْطاً وأقلَّ تفرُّعاً وأوضحَ صِلةً بالقديم كانتْ وَحدَةَ الشعوبِ المتكلمةِ بتلك اللغةِ أصحَّ وأمتنَ وأبرزَ .

تعقيبات

الأستاذ زكي المهندس الرئيس النائب : نشكر الأستاذ المحاضر على بحثه القيم ، ومن له تعقيب من السادة الأعضاء فليتفضل .

الأستاذ محمد بهجة الأثري : عرض السيد الزميل الدكتور عمر فروخ لموضوع القياس في محاضرته اللطيفة من ناحيته التاريخية القديمة في الجاهلية وصدر الإسلام على نحو ما سمعتم منه ، وليس لي ما أقوله فيما عرض له غير أن أزجي إليه الشكر على مجهوده في محاولته الجديدة في بحثه ، وأدع التعقيب عليه لمن يشاؤه من السادة الزملاء المحترمين وأعرج على بعض القضايا التمهيدية لمسائل القياس من ناحيتها العملية .

إن مجمع اللغة العربية منذ تأسيسه قبل ثلاثين عاماً مضى جاداً في بعث اللغة العربية وتوجيهها في الطريق السوي المستقيم

توجيهاً أصاب فيه حظوظاً كبيرة من التوفيق . وتبدو لي في إنتاجه الغزير المتنوع ظاهرتان كبيرتان : توفره على إمداد العلوم والفنون بالمصطلحات العلمية والفنية الحديثة ترجمة وتعريباً بالطرق اللغوية المعروفة ، واجتهاده في تحرير الضوابط القياسية ، وقد تناولها ضابطاً ضابطا ، فحرر زهاء مئتي ضابط من قيودها وأثقالها مع مراعاة خصائص العربية والتزام عمودها الأصيل المستقيم ، وبذلك سن الإفادة التامة من الاشتقاق منها والقياس عليها في يسر وسهولة . وكلتا هاتين الظاهرتين مقدورة حق قدرها عند الباحثين والعارفين بمزايا هذا الاجتهاد الرصين الذي يجتهده في قضايا اللغة في تعمق واستقصاء وأناة . غير أنني ألاحظ أن الظاهرة الثانية أعني ظاهرة اجتهاده في تحرير الضوابط القياسية ضابطاً ضابطاً ، هي ظاهرة فرعية كان ينبغي - فيما أرى - أن يسبقها شيء أخطر شأناً ، وأجدر بأن تقدم مسائله وتقال فيها الكلمة الجامعة الفاصلة . كان ينبغي أن يبادر إلى تحرير كليات الأصول القياسية العامة التي تتفرع منها هذه الجزئيات قبل أن يعنى بهذه الجزئيات وفق منهج مرسوم ، لأنها مناطها في البناء عليها ، والأصول مقدمة على الفروع في الأحوال ، وأحسب أنه لو فعل ذلك وانتهى إلى تأصلها تأصيلاً جديداً لخطا إلى غاياته البعيدة خطوات فساحاً . فلعل هذه الأصول الجديدة التي تنبثق من الجهاد الحر المتعمق والمستأني كانت تختصر له الزمن وتسني له الإنتاج أضعافاً مضاعفة ، وتجعل هذه الفروع التي حررها في نجوة من جواز إعادة النظر فيها وفيما بني عليها بعد أن يحرر كليات أصول القياس .

كلمة عرب
تحدّرها وتطوّرها واستقرارها على معناها القوميّ

من المألوف أن تنتسبَ الأممُ والشعوب إلى أسلافٍ لها حقيقيين أو خُرافيين فيتألف من ذلك الانتساب جماعاتٌ قَبَلِيَّة صغيرة أو كبيرة ، كما عَرَفنا في تاريخ العرب من انتسابهم إلى عدنَانَ أو قحطانَ ثم تقسُّمِهم بكراً وتميماً وأسداً وعبْساً وشَيْبانَ أو طَيِّئاً وخُزاعة وأزْداً وعَنْساً وهَمْدانَ . ومثل هذا كان شأنُ الهنودِ واليونان والجِرمان .

وإذا اتّفقَ أنِ اتخذتِ الأممُ أسماءً جامعةً فإما أن تُشير إلى نفسِها بأنها « الشعب » أو « الأمة » وإما أن تتخذ أسماءً « كريمة » . إن سكان شمالي غربي إفريقية يسمون أنفسَهم « الإيمازيغن » أي الأشراف ، والجرمان يدّعون أن اسمهم محرف من « هرمان » ، أي السيّد ، وكذلك الإفرنسيون يزعمون أن اسمهم معناه « الأحرار » .

غير أن جميعَ الأسماءِ المشتهرة على الأمم في التاريخ إنما هي من صُنع جيرانِها ، أعداءً كانوا أو أصدقاء . إن سكان شماليّ غربيّ إفريقية سماهُمُ الرومان البربرَ ، وهذا هو الاسم الذي أشارَ بهِ

إليهِمُ آمروء القيس في شعرِه . ويبدو أن الغاليينَ هم الذين سَمَّوُا الجِرمان باسمهم هذا اشتقاقاً من كلمة « غير » (بإمالة الياء) ، بمعنى الجار . والإفرنسيون سُمُّوُا بذلك لأن سِلاَحَهم القَبَليّ الخاصّ بهم كان يسمى « فرانكا » أي عَنْزَة . والعَنَزَة هي الرمح القصير . والصينيون سمّاهُمُ التجار القادمون إلى بلادهم من الشمال والجنوب أسماء كثيرة : صين ، ثين ، شين ، سيريس ، كاثاي ، لا ندري اليومَ ما معناها . والهنودُ يزعمون أنهم ينتسبون إلى بهارتا فارشا ، وقد أطلقوا على بلادِهِمْ بعدَ استقلالها اسم « بهارتا » ، مَعَ أن اسمهم المشهور في الشرق والغرب قديماً وحديثاً « الهند » اختصار من التسمية الفارسية : ما وراء النهر ، نهر الهند المحرف اسمه عن الكلمة السَّنْسِكْريتية « سند » ومعناها النهر عامة ، وتطلق على نهر السند خاصة . ولقد أطلق الفرسُ اسمَ « الهند » في العالم الشرقي ، كما جعل اليونان كلمةَ الهند « إندس » ، على مُقتضى لَفْظهم وإعراب الكَلِماتِ في لغتهم ، ثم أطلقوا الاسم في العالم الغربي : إنديا .

وما كان اسم العرب بِدْعاً في أسماء الأمم ! .

يبدو أن سكانَ ما بين النهرين القدماء ، البابليين والأشوريين ، كانوا على حقٍّ لمّا أطلقوا على أقاربهم الأعرابيين وجيرانِهِمْ إلى الغرب والجَنوب الغربي اسم « أ - ري - بي » .

ولا مَعْدًى لنا عن الرجوع بهذه الصيغة « أريبي » إلى الجذر « ء - ر - ب » . غير أن هذا الجذرَ هجينٌ جداً في لفظه وفي معناه ، إن الهمزة في هذا الجِذر تأتي في الصيغ التي يقال إنها

مشتقة منه مفتوحة ومُمالة ، وربما جاءت مكسورة ، والباء فيه في الأصل باء تنفرج عنها الشفتان بيُسر ، ولكنْ قد تَرِدُ في عددٍ من مشتقات هذا الجذر باء مهموسة أو منفوثة .

وكذلك معاني المشتقّات التي يُقال إنها من هذا الجذر كثيرةٌ جِدّاً . ثم هي مزيج غير مؤتلف في بعض الأحيان ، ويبدو أن المعنى الأصيل لهذا الجذر « الغَرْبُ » الذي يقابل « الشرق » . ثم تناول هذا الجذر مَعانِيَ تتصل بجهة الغربِ من قُرْبٍ ومن بعدٍ . من هذه المعاني غُروبُ الشمس والمساءُ والعَتْمةُ . ثم هنالك الغُراب لأنّ لونَه يشبه لونَ العَتْمة . ومن المعاني المتعلقة بهذا الجذر من بعد ، الجَرادُ لوُجودهِ في تلك المِنطقة الغربية بالإضافة إلى سُكّان ما بين النهرين ، ومن معانيه أيضاً القَفْر (الصحراء) لطَبيعة تلك المِنطقة عُموماً . ويُهاجِرُ هذا الجِذْرُ من بلاد ما بين النهرين بمشتقاته غَرْباً فيسلُكُ طريقينِ أساسيتَيْنِ إحداهما تنحرفُ شمالاً والثانية تتّجه جَنوباً .

في أثناء هذه الهِجرة ينخفِضُ مَبْعَثُ الهمزةِ في الحُنجرة فتصبحُ هاء مرةً نحو « أيكلو » التي تصبح هيكل ، ثمّ عيناً مرةً ثانيةً نحو « أنزو » التي أصبحتْ « عنزة » . وتُصبحُ أيضاً غيناً مُعجمةً مرةً ثالثة نحو « أريبي » فإذا هي (غُروب) . وأحياناً تبقى الهمزة نحو « أرْبا » بفتح الهمزة وأمالتها بمعنى أربعين ، وقد تتحيّر الهمزة أحياناً فنجدُ في القاموس العربي كَلِمات مثل : أرِبَ ، وعَرِبَ ، وذَرِبَ ، بمعنىً واحدٍ هو فَساد المعدة . وأحياناً يذكُرُ القاموسُ مثل هذه الجملة : « الأُرْبان بضَمّ الهمزة لغةً في العُربان بالعين » (تاج ١ : ١٤٧) .

ليس في ما مر تعرُّضٌ للّغة التي أخذتْ من أختها ، إذِ الغاية مما مرّ أن ندُلّ على أن كلمةَ « عَرَبَ » تَشْرَكُ كَلِماتٍ كثيرةً تبدأ بغير العين في لُغة مُضَرَ التي نتكلّمُها ونكتُبُ بها . من أجلِ ذلك وجب أن يكون الجذر الذي جاءتْ منه هذه الكَلِمةُ جذراً هَجيناً غيرَ خالص .

ونمرُّ بالشعرِ الجاهلي الذي وصل إلينا فلا نجدُ فيه صيغة من جذر « ع ـ ر ـ ب » للدلالة على معنىً قوميّ يتعلق (بالعِرق من النسب الجامع) ولا على معنىً يتعلق باللغة التي نتكلّمها . وهذا أمرٌ له تعليلُهُ من تاريخنا السابق على الإسلام . لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القَبَلية فلم يكن لديهم ، فيما لدينا من التُراثِ اللغويّ ، ما يدُلّ على المدرك القوميّ الجامع . ولكنْ لما وَقَفَ الجاهليون في أعقابِ العصر الجاهليّ وَجْهاً لوجه أمام الفُرس على حدودِهِمُ الشرقية ثم كَرِهوا الحُكْمَ الفارسيَّ الذي كان قدِ استطال في شِبه الجزيرة ، بدأوا يستشعرون شيئاً من البُغضة للفرس ، وشَعَر عنترةُ بهذه البُغضة فقال في معلقته عن ناقته :

شَرِبتْ بماء الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحت زَوْراءَ تَنْفِرُ عن حِياض الدَّيْلمِ[1] **.**

إن عنترةَ قد أحسّ بالدافع القوميِّ الجامعِ ، ولكنْ لم يجدِ الكلمةَ التي تعبِّر عنه فاضْطُرَّ إلى أن يدورَ حولَ المعنى ببيتٍ كامل من الشعر .

وجاء الإسلامُ ونزَلَ القرآنُ الكريم مُنَجّماً في ثلاثٍ وعشرين سَنَةً في مكّةَ والمدينةِ فلم يَرِدْ فيه من الجذر « ع ـ ر ـ ب » إلا ثلاثَ

(1) راجع لسان العرب (مادة « دلم ») .

صِيَغٍ : « عُرُباً » جمع عَرُوب (بفتح العين) نعتاً للمرأة المُتحبّبة لزوجها في قولِهِ تعالى « عُرُباً أتْرَاباً » (٥٦ الواقعة ٣٧) . ثم جاءتِ الصيغةُ « أعراب » عَشْرَ مراتٍ في سور مَدَنيةٍ فقط ، منها سِتُّ مرّاتٍ في سورة التوبة وحدَها . ولا حاجَةَ للإستشهادِ على أن كَلِمَة « أعراب » تدل في القُرآنِ وفي غيرِ القرآن على البَدْو .

أما الكلمةُ الفاصلةُ في هذا الشأن فهي كلمة « عربيّ » التي وردتْ في القرآن الكريم إحدى عَشْرَةَ مرّةً ، في سُوَرٍ مدنيةٍ وفي سُوَرٍ مَكية أيضاً ، غيرَ أن هذه الكلمةَ قد وَرَدَتْ عشْرَ مرّاتٍ نعتاً لِلّغةِ التي نَزَلَ بها القرآنُ بأنها لغةٌ واضحةٌ بيّنة ، كقولِهِ تعالى : ﴿ **إنا أنزلْناه قُرآناً عربيّاً لعلكم تَعْقِلون** ﴾ (١٢ يوسف ٢) ، أيْ تفهمون . ويبدو أن هنالك مكاناً واحداً آستُعْمِلَتْ فيه الكلمةُ « عربيّ » لِتَنْعَتَ شخصَ الرسولِ ﷺ ، في قولِه تعالى : ﴿ **ولو جعلناه قرآناً أعجَميًا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته ، أأعْجَميّ وعَرَبيّ ؟** ﴾ (٤١ السجدة ٤٤) أي أكتابٌ أعجميّ اللغةُ ، ونبي عربي ؟

إن استعمالَ كَلِمةِ عربيّ في القرآن الكريم دلّتِ الشعراءَ على التعبير الذي لم يقعْ عليه عنترةُ . ومنذ السنةِ الثالثةِ للهجرة قال كعبُ بنُ مالكٍ يذكُرُ رسولَ الله :

بدا لنا فاتّبعناه نُصدّقه وكذّبوه ، فكُنا أسعدَ العَرَبِ .

وبعد ذلك بمدّة يسيرة ، فيما يبدو ، قالَ حسانُ بنُ ثابتٍ يُقَرِّعُ بني هُذَيْلٍ لما اشترطوا على الرسولِ أن يُحِلَ لَهُم الزنا حتى يدخلوا في الإسلام :

سالتْ هُذَيْلُ رسولَ الله فاحشةً ؛ ضلّتْ هذيلُ بما قالتْ ولم تُصِبِ
سالوا رسولَهُمْ ما ليسَ مُعْطِيَهُمْ حتى المماتِ ، وكانوا سُبّةَ العَرَبِ

وهكذا بدأ في الشعر العربيّ مدركٌ لم يكن معروفاً من قبلُ ، هو أن العَرَبَ جماعةٌ واحدةٌ ذاتُ نِطاقٍ من الوَحْدة الجامعة . غيرَ أن مدركَ العُروبة يومذاك ، أوِ المدركَ القوميَّ العامَّ على الأصحّ ، كان يُعَدُّ والإسلامَ شيئاً واحداً . بعدَ غزوةِ الخندقِ ، في السَنة الخامسةِ للهجرة » وإجلاءِ اليهودِ من بني النَضِير وبني قُرَيظةَ ، رثى شاعرٌ من بني الأشهلِ اسمُه الضحاكُ لحالِ أولئك اليهودِ. من أجلِ ذلك هجا حسانُ بنُ ثابتٍ هذا الشاعرَ ، وذكّره بأن نفراً من قَبيلته بني الأشهل ، قد كانوا مُسلِمين حقّاً ، منهم إياس بنُ أوسِ بنِ عَتيكٍ الذي استُشْهِدَ في غزوةِ أُحُدَ ، وأنسُ بنُ أوسِ بنِ عتيكٍ الذي استُشْهِدَ في غزوةِ الخندق . وهكذا قالَ حسانُ بنُ ثابتٍ للضحّاك هذا :

أتُحِبُّ يُهْدانُ[1] الحِجاز ودينهم ،
كبِدَ[2] الحمار ، ولا تُحِبُّ مُحمَّدا ؟
لو كنتَ مِنا لم تُفارِقْ دينَنا
وتَبِعْتَ دينَ عتيكَ حين تشهّدا .

وسَرعانَ ما برزتْ كَلِمةُ (عرب) في مقابلِ كلمة (روم) وكلمة نَبيط (آرامِيّين) واكتسبتْ بذلك معنىً قوميّاً واضحاً . جاء

(1) يهدان جمع يهود .
(2) في شرح القاموس ـ مادة هود (عبد) بدل (كبد) .

في الأغاني (دار الكتب ١٤ : ٨٧ ـ ٨٨) :

بعد فتحِ مكّةَ ، في السَنة الثامنةِ للهجرة ، قَدِمَ قيسُ بنُ عاصمٍ وعمرُو بن الأهتم ابنُ عمّهِ على الرسول . فلما صارا عنده تسابّا وتهاترا . ثم قالَ قيسُ بنُ عاصمٍ للرسول عنْ عمرٍو وقومه : « واللّهِ ، يا رسولَ الله ، ما هُمْ منا ، وإنهم لَمِنْ أهلِ الحِيرة » ، فقال عمرُو بنُ الأهتم : « بل هُمْ ، والله ، يا رسول الله ، من الرومِ وليسوا منا » . ثم قال عمرُو بنُ الأهتم مُخاطباً قيسَ بنَ عاصمٍ :

إن تُبغِضونا فإن الرومَ أصلُكُمُ والرومُ لا تَمْلِكُ البغضاء للعَرَبِ

ولقد نَهى الرسولُ ﷺ قيْساً وعمْراً عن هذا التّلاحي ، وأفْهَمَهُما تلميحاً أن الإسلام قد أغرق العَصَبياتِ كلَّها .

وفي أثناءِ الفتوح العربية ، أو الفتحِ الإسلاميّ على الأصحّ ، في أيامِ عُمَرَ بنِ الخطاب ، بلَغَ الشعورُ العربي من الناحية القوميّة مبلغاً يتمثَّلُ في البيتِ التالي لِيربوعِ بنِ مالكٍ ، والذي أوْرَدَه الطّبريّ (١ : ٢٥٣٦ ليدن) ، وهو :

إذا العَرَبُ العرْباءُ جاشتْ بحورُها
فَخرنا على كلِّ البحورِ الزواخرِ .

ثم تَقلّبتْ كلمةُ « عرب » بعدَ ذلك بينَ المدركِ القوميّ الخالص والمدركِ المتّصل بالإسلام اتصالاً وثيقاً ، وجَرَى

المدركانِ جَنْباً إلى جنبٍ عُصوراً ، والشواهدُ على ذلك كلّه كثيرةٌ تحتاجُ إلى دراسةٍ مستقلة .

هذا كلُّه من الناحيةِ اللغويّةِ في تاريخ كلمة « عرب » . ولكن يبدو لنا أيضاً أن الإسلام هو الذي جعل لكلمةِ « عرب » هذا المقامَ في شعورِ الجماعةِ ، ولكن نَهَى عن أنْ يكونَ هذا الشعورُ عاملاً مُفَرِّقاً بينَ صفوفِ الأمّة التي وَحّدَها الإسلامُ .

الأمثال معالم للحضارة

الأمثال في لغة كلّ أمّة من معالمِ الحضارة ندرُس فيها تاريخَ الأمّة (ونَعْرِفُ منها كيف تقلّبت بها الأحوال ثمّ هي تدُلّنا على طريقة التفكير في الأمّة .

والأمثال طَبَقات : منها أمثالٌ مفردةٌ عارضة في تاريخ الأمم ـ لأنّها من أختبار الشعوب في كلّ مكان ـ وهي لا تُوجب حُكماً عامّاً . فمن هذه الأمثال في اللغة العربية : أبعَدُ من النَجْم ـ أسْرَعُ من الريح ـ أبْدَأُهُمْ بالصُراخ يَفِرّوا (وهو مثل يُضرب للرجل الظالم يبدأ بالشكوى ويُظهر أنه هو المظلوم وأنّه ما فعل الذي فعله إلاّ لأنّه خافَ العُدوان من غيره فيسكتُ الناس عنه . وربّما ضُرِب لغير ذلك أيضاً : للرجلِ الضعيف يبدأ بالصُراخ فيظنّه الناس قويّاً فيخافونه) ـ الحديد بالحديد يُفْلَحْ (أي أنّك لا تستطيع أن تتغلّب على أمرٍ إلاّ بشيء أشدّ منه أو مِثْلِه) . وفي اللغة العربية مثل هو « خير الأمور أحْمَدُها مَغَبّةً (نهاية ، نتيجة) » نَجِدُه عُنواناً لمسرحيّةٍ لشكسبيرَ : كلّ أمرٍ حسنٌ إذا (هو) انتهى نِهايةً حسنةً !

وهنالك طَبَقةٌ من الأمثال وضعها العقلُ الإنسانيّ (لا الاختبارُ وحدَه) . من هذه الأمثال : آفة العِلم النِسيانُ ـ اذْكُرْه غائباً يقتربْ (والعامّة يقولون : اذكر الذيب وهيّىء القضيب) ـ إذا اشتريت فاذكُرْ السوق (أي لا تشتر شيئاً بثمن غالٍ إذا أعجبك فقط ، بل ادفع في الشيء الذي تشتريه ثمناً إذا أنتَ بِعْتَ ذلك الشيءَ يوماً بِعْته بأكثرَ من الثمن الذي دفعتَه أو بمثلِ ذلك الثمنِ على الأقل . إنّ معنى ذلك أن يفكّر الإنسان دائماً في الأمور التي يعالجها وفي فائدة الأعمال التي يعملها) .

وفي هذه الطَبَقَة من الأمثال : إذا ترضّيت أخاك فلا أخَا لك (أي إذا كان لك رفيقٌ يغضَبُ منك لكلّ شيء ثمّ تحتاج إلى أن تسترضِيَهُ حتّى يظلّ رفيقاً لك ، فإنّ هذا الرجل ليس لك بأخٍ صديقٍ ولا برفيقٍ صالح) . ومن هذ الأمثال : ظَنُّ العاقلِ خير من يقينِ الجاهل (ذلك لأنّ الرجل العاقل قد بَلَغَ من العلم والاختبار حَدّاً أصبح معَه قادراً على الوقوف على حقائق الأمور من غير جُهْد . وذلك باب من أبواب علم النفس) . ومن هذه : المَعَاذِرُ مكاذِبُ (فإنّ الإنسان لا يعتذر من عمل إلاّ إذا كانَ قد أخطأ فيه . فإذا وعد إنسان إنساناً بأمرٍ ثمّ لم يَفِ به ، فإمّا أن يكونَ المعتذرُ عاجزاً عن الوفاء بما وعد أو أن يكونَ قد وعد وهُوَ لا يَقْصِدُ الوفاءَ أو أن يكون قد وعد ثمّ نَسِيَ ذلك الوعد . ومن ذلك أيضا قولُهم : « كاد العروس أن يكونَ مَلِكاً » . فالعروس (وهذا اللفظ يُطلق على الرجل والمرأة ، والمقصود هنا الرجل) في يومِ عُرْسِه هو أهمّ الناس في العُرس لأنّ الناس قدِ اجتمعوا لمناسبةٍ هو سببُها وصاحبُها . ويجب أن يكون هذا المعنى قديماً في الحياة الإنسانية وفي التفكير الإنساني ، فقد

جاء في الإنجيل مرارا ، لا بمعنى العروس (في الإنجيل : العريس) على الحقيقة بل على المجاز (الرجل المُهمّ في أمرٍ ما . ويبدو أن الإشارة في مطلع الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متّى راجعة إلى المسيح نفسه) .

المعالم العربية في أمثال العرب

ثمّ هنالك طَبَقَةٌ من الأمثال العربية هي صور للحياة العربية البَدْوية في الجاهليّة خاصّة . هذه الأمثال لا تزال ذاتَ صِلة بحياتنا نحن العربَ إلى اليومِ ، منها الحَسَنُ ومنها غير الحسن .

من هذه الطبقة في أمثال العرب :

(١) آخرها أقلُّها شُرباً (أي أن الإبِلَ التي تَرِدَ إلى حِياض الماء في آخرِ الواردين لا تستطيعُ أن تشربَ كثيراً لأنّ الماء في الحوض المورودِ يكون قد قلّ كثيراً) . هذا المثل عربيّ بَدْوِيّ أصيلٌ كان قولُه في شِبه جزيرة العرب ، ولا يمكن أن يكونَ قد قِيل (كما يمكن أن يُقال مثلُه) في مِصرَ أوِ العراق أو هُولندَةَ أو البرازيل ، لأنّه صورةٌ لِقِلّة المياه .

(٢) أوسعتهم سَبّاً وأودَوْا بالإبِلِ (أي أنّ قوماً غَزَوْني وأخذوا إبِلي فجعلتُ أشتُمهم شتماً كثيرا) . هذا المثل يُضرَبُ للذي يعدو عليه خصومُه فيسلبونه أمواله وحُقوقه ويكتفي هو بالصُراخ والاحتجاج . وهذا مثل بَدْوي أصيلٌ أيضاً لأنه يصوّر الحياة البَدْويّة حيثُ الحقُّ للقوّة وحيث الفردُ القويّ هو واضعُ القانون . وهو يضرب أيضا للشخص الذي لا يَمْلِكُ في الدِفاع عن حقّه إلاّ الكلامَ !

(٣) إن تَرِدِ الماءَ بماءٍ أكْيَسُ (أعقل) . وهذا أيضا من هذه الطبقة . الماءُ في شبه جزيرة العرب قليل . وعلى المسافر في كلّ مكانٍ إذا سافرَ أن يسافرَ ومَعَه زادُهُ من طعامٍ وشراب . أمّا في شبه جزيرة العرب فعلى المسافر أن يكون أكثرَ احتياطاً وبُعْدَ نظرٍ ، حتّى إنّه إذا ذهب ليستقيَ ماءً من نبع أو حوض أن يحملَ ماءً معه ، فَلَعَلّه إذا وصل إلى النبع الذي يَقْصِده وجده جافّاً . هذا المثل يضرب للرجلِ الذي لا يثق بأمرٍ غائبٍ عنه خوفاً من المفاجئات : إذا كان موعدك الساعةَ العاشرةَ وكانت المسافة بينَك وبين مكانِ الموعد ساعةً فانطلق من مكانك قبلَ ساعتين . وإذا كنت محتاجا في رِحلة لك إلى مائة دينارٍ فَلْيَكُنْ معك مائتان . وإذا كانت حرب خصمك تحتاج إلى ألف جنديّ فجهّزْ لحربه ألفين .

(٤) الناس كإبلٍ مائَةٍ لا تَجِدَ فيها راحلةً . معنى المثل : قد يكون لك مائَةُ جمل ثمّ تريد أن ترحل (تسافر) فلا تجد في المائَةِ الجملِ جملاً شديداً قادراً على الأسفار الطويلة . وكذلك الناس : قد يكون معك منهم في موقف شديد ألفُ رجل ثمّ لا تجد واحداً من هؤلاء الرجال الألفِ يمكن أن يكونَ لك في موقفك ذلك عوناً أو ذا نفع .

أمثال وراءها قِصص .

والمثل عادةً لا ينشأ ارتجالا ، بل هو نتيجةُ اختبارٍ طويلٍ لفَرْدٍ أو لجماعة أو لشعب أو لأُمّة . في مثلِ هذه الحال يكونُ المَثَلُ مرتبطاً بواقعةٍ من الوقائع (حادثة من الحوادث) من هذه الطَبَقة من الأمثال :

(١) إنْ يَبْغِ عليكَ قومُك لا يَبْغِ عليكَ القمرُ .

قيل إنّ جماعة من بني ثَعْلَبَةَ بنِ سعدِ بنِ ضَبّةَ في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلةَ أربعَ عَشْرَةَ . فقالت طائفة : تطلُع الشمس (في الصباح) والقمر لا يزال يُرى (في الغرب) ؛ وقالت طائفة أخرى بل يغيب القمرُ قبل طلوعِ الشمس . فتراضَوْا على رجُلٍ جعلوه بينَهم (حَكَماً) . فقال رجل منهم إنّ قومي يَبْغُون (سيبغون) عليّ (سيظلمونني) . فقال له الحَكَم : إنْ يَبْغِ عليك قومُك لا يَبْغِ عليك القمر (أي إذا كان قومُك، وهم بشرٌ يتأثّرون بالعواطف وبالأحوال والمُناسبات فلا يأخذون برأيك أحياناً ، فما عليك إلاّ أن تراقبَ القَمَر « وهو جِرمٌ حجريّ »لا يتأثّر بما يتأثّر به البشر) في صبيحةِ ليلةِ أربعَ عَشْرَةَ فترى ما يكونُ من شأنه وشأن الشمس .

هذا المثل لا يزال حَيّاً إلى يومنا هذا . ففي كلّ سَنَةٍ قمرية يختلفُ عددٌ من بلاد العرب في رؤية الهلال في أول الشهر ، فمنهم من يقول : رأينا الهلالَ ، ومنهم من يقول لم نَرَهْ ! وحلّ المُشكِلة أن ينتدبوا لرؤية الهلال رجُلاً صحيحَ البصر وله علم بشيء من مطالع الأجرام السماوية .

(٢) أبصر من زرقاء اليمامة .

زرقاء اليمامة امرأة كانت في الجاهلية الأولى اختلف الرواةُ في اسمها ولكنّهم ذكروا أن عَيْنَيْها كانتا زَرقاوَيْنِ وأنها كانت من أهل اليمامة (أواسِط شبه جزيرة العرب) . ولقد كان بَصَرُها سليماً حادّاً ، زعموا أنّها كانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيام (نحو مِائَةِ

كيلومتـراً للسائر المعتدل الذي يسير ثمانيَ ساعاتٍ في اليوم) وتُمَيِّزُ الأشياء . وفي هذا مُبالغةٌ شديدةٌ ، فإنّ حَدَبَةَ الأرض تمنَعُ الإنسانَ من أن يرى شيئاً يبعُدُ عنه أكثرَ من عِشرينَ كيلومتراً) .

أمّا القِصّة التي وراء هذا المثل فهي التي تلي :

إنّ جَديسَ وطَسْماً (وهما قبيلتان قـديمتان من العـرب البائدة : الذين انقرضوا) تحاربتا فتغلّبتْ جديسُ وأكثرتِ القتلَ في طَسْمٍ . فخرج رجل من طسم واستنجد بحَسّانَ بنِ تُبَّعٍ مَلِكِ حِمْيَر (اليمن) . وجاء حسّانُ بجيشٍ وأحبّ أن يسترَ مسيرَه عن جَدِيس فأمَر كلَّ جُندي أن يحملَ شجرةً (غصنَ شجرة) . واتّفق أن زرقاء اليمامة كانت يوماً على سَطْحِ بيتِها تنظُر إلى الأفق فراتِ الجيش السائرَ يحمِلُ أغصانَ أشجار ، فقالت لقومِها : تهيّأوا للحرب ، فإنّ جيشَ حِمْيَرٍ قادمٌ عليكم يحمل أشجاراً ، ولكأنّي أرى « الشجر يدبّ على الأرض » . ونظروا حيث كانت تنظر فلم يَرَوْا شيئاً فلم يصدّقوها . وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ وصل جيشُ حسّان بنِ تُبَّعٍ وقاتل بني جديَس قتالاً شديدا .

قد تكون هذه القِصّة صحيحةً أو غيرَ صحيحة ، ولكنّها مَحْكيّةٌ مَرْوِيّة منذ زمنٍ قديم . ويبدو أن هذه القِصّةَ قد وصلتْ إلى الغَرْب فأخذَها شِكسبيرُ وحاكَها في إحدى العُقَدِ من رِواية « ماكبث » .

(٣) رميةٌ من غير رامٍ .

معنى هذا المثلِ : رميةٌ بالسهم أصابتِ الهدف من رجلٍ لا يَعْرِفُ الرماية . ومؤدّاه : قد يُخطىء العالِمُ بالشيء وقد يُصيب

الجاهلُ أحياناً . وقِصّةُ هذا المثل :

خرج الحَكَمُ بن عبدِ يَغُوثَ المِنْقريّ (في حديث طويل) هو وابنه المُطْعِمُ ، وكان المطعمُ حَدَثاً (صغير السنّ) ضعيفاً لم يتعلّم الرماية بعدُ . فلمّا سارا في البادية مرّت مَهاةٌ (ظبية) فرماها الحَكَم فأخطأها . ثم مرّت بهما مَهاةٌ أخرى فرماها الحكم أيضا فأخطأها . فقال المُطْعِمُ لأبيه : يا أبتِ ، أعْطِني هذه القوسَ . فأعطاه أبوه القوسَ فرمى المَهاة فأصابها . فقال الحكمُ والدُ المُطْعِمِ عندئذٍ : رَميةٌ من غير رامٍ .

إن الأمثالَ في كلّ أُمّة تَكْشِف عن حياة الأمّة . وإذا نحن درسنا الأمثالَ دِراسةً فيها مُقارنةٌ ومُوازنةٌ رأينا بين أمثالِ الأمم تشابُهاً كبيراً ، ذلك لأنّ المجرى العامّ في حياة الناس أفراداً وجماعاتٍ تَتَشابَهُ كثيراً . ولكنّ ذلك موضوع آخر .

النجوم
في شعر ابن المعتز

ليس هذا المقال مقالاً أدبيّاً ، وإن كان له عُنوانٌ أدبيّ . إنه مجاولةٌ لفهم الأدب فهما عِلْمِيّاً جِدّيّاً ؛ فالأدب ليس تغريراً بالعاطفة وحدَها ولكنّ له مَغْرَزاً في جانبٍ من جوانب الدِماغ أيضا .

أُغْرِمَ الشعراءُ بالسماء ونجومِها منذ عهد هوميروسَ في اليونان ، ولا شكَّ في أن شعراءَ الأمم قبلَ اليونان قد أُغْرموا بذكر النجوم والكواكب في أشعارِهم أيضاً . ولكن يبدو لي أن العَرَبَ يَجبُ أن يكونوا أشدّ فِتنةً بالسماء ونجومها لأن سماءَهم أوسعُ فَضاءً وأكثرُ صفاء وأقلُّ سَحابا وأندر ضبابا .

وذِكرُ النجومِ في الشعر العربي قديمهِ وحديثِهِ يجري على نحوين :

على نحو لُغويّ بَلاغيّ لا دلالةَ علميةً فيه البتّة ؛

ثم على نحو ذي دَلالةٍ علميـة فلكية صحيحة أو شبه صحيحة ، قريبة أو بعيدة .

ولكن بما أن الشعراءَ عامةً وشعراءَ العرب خاصةً قد قالوا في السماء والنجوم وأكثروا ، فقدِ اكتفيتُ هنا بابنِ المعتز وحدَه ، إلا في مُقدِّماتٍ مُمَهِّداتٍ لا غنىً عنها لِفَهْمِ قواعِدِ البحث .

وعلم الفلك في ديوان ابنِ المعتز بارزٌ جدّاً ، فكلام ابن المعتزّ في السماء والشمس والقمر والنجوم والكواكب أكثرُ من أن يُحصى . وكذلك لحظ ابنُ المعتزّ في ديوانه[1] توقُّدَ كوكب المِرّيخ (ص ١٥ ، ٢٧٦) . والمِرّيخ نجمٌ جميلٌ يلمع في السماء لَمَعَانًا أحمرَ ضعيفاً أو شديداً ، بحسبِ اقترابه من الأرض أو ابتعاده عنها دورًا بعد دور .

ولكن دَعْنا نأتِ أولاً إلى أبياتٍ من الشعر القديم لنرى ما نَقْصِدُ بالاستعمال اللُّغَويّ البلاغي وبالدَلالة العِلمية الفَلَكية . وهنا أيضاً لا بدّ مِنَ الاكتفاء بنجمٍ واحدٍ ، أو بعُنقودِ نجومٍ على الأصح هو الثُّريَّا ، حَصْرًا للموضوع .

لامرىء القيس بيت في معلقته يقول فيه :

كأنّ الثريّا عُلِّقت من مَصامِها   بأمراسِ كتّان إلى صُمِّ جَنْدلِ

يَقْصدُ امرؤ القيس أن يقول إن الثريا تظهر هادئة جامدة في السماء لا تتحرّك (كناية عن طول الليل الذي كان امرؤ القيس يشكو منه في أيام شبابه وغرامه) . وليس لاستعمال « كلمة » الثريّا هنا دَلالَةٌ علمية ما . لقد كان لامرىء القيس في هذا البيت غُنيةٌ عن استعمالِ كلمة الثريا بغيرِها من أسماء النجوم وغيرِ أسماء النجوم .

---

(١) دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ .

وكان امرؤ القيس نفسُه يَعْرِفُ ذلك ، فقال في بيت سابق على البيت المذكور في معلقته أيضا :

فيا لك من لَيْلٍ كأن نجومَه   بكلِّ مُغارِ الفَتْل شُدّتْ بيَذْبلِ

ففي هذا البيت يذكُرُ الشاعر أن النجومَ كلّها (والثريّا معَها طبعاً) تظهر وكأنها مربوطة بحِبالٍ ومشدودة بتلك الحِبال إلى جبل يذبُلِ فلا تستطيعُ أن تتحرك لتغيبَ وينتهي الليل الذي كان الشاعر يشكو (في أيام حبّه) من طوله .

وتتخطّى العصورَ كلّها حتّى نصل إلى أحمدَ شوقي فنراه أيضاً يذكر الثريا ذِكراً لُغَويّاً بَلاغيّاً فيقول في مطلع إحدى قصائده :

أيُّها المُنتحي بأسوانَ داراً   كالثريا تُريد أن تنقضّا!

في هذا البيت يريدُ شوقي أن يَصِفَ تلك الدارَ بأنّها عاليةٌ جِدّاً حتّى لَتَبْدُوا وكأنّها لا تستندُ إلى شيء فكأنّها على وَشْكِ السقوط في كل ساعة . ولقد كان لشوقي في هذا البيت غُنيةٌ أيضاً بكلمة أخرى نحو سُهيل ، العَذارى ، الأثافي ، الخَبايا ، الزَباني وغيرِها . وكلّ هذه من أسماء الأجرام السماوية وهي تَفِي بغرضِ شوقي وامرِىء القيس من قبلِهِ وَزْنًا ومعنىً .

لِنَرْجعِ الآنَ إلى آمرِىء القيس في بيتٍ آخر من معلّقته :

ذَهَبَ امرؤ القيس ذاتَ يوم إلى زيارة حبيبته فاطمةَ أو عُنَيْزةَ ، واتّفق أن رأى الثُريّا أو أن الثريا خطرت له فتطلّع إليها ووصفها فقال :

إذا ما الثريا في السماء تَعَرّضَتْ   تعرُّضَ أثناءِ الوِشاح المُفصّلِ

إن امرأ القيس قد وصف عنقودَ الثريا كما بدا له في تلك الليلة ، فيما اعتقد ، فأرّخ لنا زِيارته مَعَ أنه كان هو حريصاً على ألاّ يعلَمَ بمجيئه أحدٌ .

إن الثريا عنقودٌ لا يبدو لنا دائماً في مكان واحد . فإذا نحن نظرنا في ألفاظ البيت وهي تدور على الفعل تَعَرّض (تصدّى ، بدا بأعراضِ جوانبه في مكان ظاهر من السماء) ثم صدّقنا أن امرأ القيس لما دخل على حبيبته كانتْ تخلَعُ ثيابَها استعدادا للنوم وأن السُمّار الساهرين كانوا لا يزالون في كلامهم ، أي في أولِ الليل ؛ ثم علمنا أيضاً أن امرأ القيس كان يعيش في الجزء الشّماليّ في بلاد العرب ، وَجَبَ أن تكونَ تلك الزِيارة في فصل الشتاء ، وفي خِلال شهر كانونَ الأول (ديسمبر) .

لعلّ استنتاجي ليس دقيقا ، ولعلّ وصف امرىء القيس ليس دقيقا أيضا ؛ ولكنّ البيت نفسه ذو دَلالةٍ فلكية ، لا شكّ في ذلك .

وقبل أن نأتيَ إلى ابنِ المعتز يحسن أن نمُرّ بعُمَر بن أبي ربيعةَ مَرّاً خفيفا . كان عُمرُ بن أبي ربيعةَ يتعشّق الثريّا بنت علي بن عبد الله (١ :٢٢٢ ـ ٢٣٥) فأكثر من زِيارتها ومن ذِكرها في شعره . وأراد أهلُ الثريّا أن يقطعوا ألسنةَ الناس فزوّجوا ابنتَهم لأمير أُمويّ هو سُهَيْلُ بنُ عبدِ العزيز بن مروان على أن يَحْمِلَ سهيلٌ هذا زَوجته ويذهَبَ بها إلى مِصْرَ حيث كان أبوه واليا ، أو إلى الشام حيث كان هو يسكن .

ولم يكن عمر بن أبي ربيعةَ مسروراً بهذا التغيير فقال أبياتاً يُعَرِّض فيها بذلك الزَواج فقال مُستغرباً :

أيُها المُنْكِحُ الثريّا سُهيلاً ، عَمْرَكَ اللّهَ كيفَ يَلْتقيانِ!

ثم أنه استطرد من اسم الثريا بنت علي إلى عنقود الثريا ، ومن اسم سهيل بن عبد العزيز إلى النجم المعروف باسم سهيل وقال :

هي شاميةٌ إذا ما استقلّتْ، وسُهيلٌ إذا استقلّ يَماني !

وقد قصد ابن أبي ربيعة أن مطلع الثريا وفَلَكَها شاميّان (شَماليّان) ، وأن مطلع سهيلٍ وفلكه يمانيّان (جَنوبيان) . والواقع أن سهيلا نجمٌ ، جَنوبيٌّ وهو لا يرى في البلاد الواقعة شَمالَ خط العَرْض من الدَرَجةِ السابعةِ والثلاثين . وهو لا يرى دائما بطبيعة الحال في البلاد القريبة من ذلك الخط جَنوباً . ومعظم البلاد العربية تقع في تلك المنطقة .

ونأتي الآن إلى ابن المعتزّ .

كان ابن المعتزّ أميراً عبّاسيّاً وُلِدَ سَنَةَ ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) وعاش في بغدادَ عيشةً مُترفة تَخلّلها ، وخصوصاً في أواخرها ، تنغيصٌ كثير . ثم إنه بُويع بالخِلافة سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) . غير أنه بقي في الخلافة يوماً وليلةً ثم خُلِعَ . وقُتِلَ بعدَ ذلك بنحوِ عشرينَ يوماً .

وكان ابن المعتزّ شاعراً متين السبك رقيقَ المعاني وَقَفَ مُعْظَمَ شِعره على الخمر والوصف . واشتهر بوصف الأزهار والنجوم . ولعلّ شعره الناضجَ المَرِحَ الذي نحن بسبيله قد نظم في نحو خمسَ عَشْرَةَ سنة ، بين سَنَةِ ٢٧٠ وسَنَة ٢٨٥ هـ (٨٨٢ ـ ٨٩٨ م) .

إن علم الفلك في ديوان ابن المعتزّ بارزٌ جِدّاً ، فشعر ابن المعتزّ في السماء والشمس والقمر والنجم والنجوم والكوكب والكواكب أكثر من أن يُحاط بتفصيله . وفي ديوان ابن المعتز إشارات ظاهرة عارضة ، لا دلالة خاصة لها ، إلى الزبانين (ص ٤٩) وبنات نعش المعروفة باسم الدب الأكبر (ص ٢٠ ، ٢٠٤) وإلى النسر والفرقدين ونجوم الأسعد (ص ٥٩) وإلى النسر أيضا والعيّوق (ص ٣٣٣) ، والجوزاء (ص ٢٢١) ، والمشتري (ص ٢٤٩) والمجرّة (ص ٣٦٧ ، ٤٧٣) والسِماك الأعزل (ص ٣٦٧) والدَلْو (ص ٤٥٧) . ولعلّ في « الكوكب الفرد » (ص ١٧٧) إشارة إلى أن الكوكب إذا كان كثير التوقّد واللّمَعان بدا منفرداً (إذ تختفيَ النجومُ التي حولَه من أثرِ نورِه) . ولعلّ في هذا أيضاً إشارة إلى الفردود ، وَهِيَ نجومٌ مُصطفّةٌ خَلْفَ الثريّا (القاموس : ١ : ٣٢٢) . غير أنّ الأليقَ أن يكونَ الكوكبُ الفرد المذكورُ في شعرِ ابنِ المعتزّ هو « الفرد » أو فرد الشجاع[1] . ومن أسمائه الشجاع وعنق الشجاع وسهيل الفرد وسهيل الشام . وسميّ (هذا) النجم بالفرد لانفراده من أشباهه وتنحّيه إلى ناحية الجَنوب . وهذا النجم يُشار إليه بالرقم ٢١١ وبالحرف أ من صورة التنين ، وهو يلمع لمعانا واضحا في منطقة من النجوم الخفية[2] . وهكذا أصبح من اليسير اجتلاء الصورة التي أراد ابن

---

(١) الشجاع هو الثعبان ، وهنا التنّين (أحد عناقيد النجوم) .

(٢) القاموس الفلكي تأليف الأستاذ منصور جرداق ، بيروت ١٩٥٠ ، ص١٠٣ ، راجع ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٨٨ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ .

المعتزّ أن يجعلها للخمر (ص ١٧٧ ، البيت ٣) :

يُمجّ سُلافَ الخمر في عسجديّة   تَوَهّجُ في يُمناه كالكوكب الفردِ!

وفي ديوان ابن المعتزّ بيتان في الخمر هما (ص ٧٩) :

ألا فاسْقِنيها قد نَعى الليلَ ديكُه   . . .

وقد لاح للساري سُهيّل كأنه   على كلّ نجمٍ في السماء رقيب

إن ابن المعتزّ يذكر هنا أن النجم سهيّلاً يكون في آخر الليل رقيباً على النجوم كلّها . والرقيب في النجوم هو النجم الذي يبدأ بالظهور من المشرق حينما يبدأ نجم آخر في الغروب في المغرب . فإذا كان سهيل رقيباً على « كلّ نجم في السماء » ، فمعنى ذلك أنه النجم الذي يبدأ بالظهور في المشرق حينما تبدأ أواخر النجوم الاختفاء وراء الأفق الغربي . وهذا يصدق على سهيل في المنطقة التي نعيش فيها .

وهنالك في ديوان ابن المعتزّ بيتُ آخرُ (ص ٢٠٠) :

ويوم من الجوزاء أصليت ناره   وقد ستر الكنّاس إذ بان مشترى

وفي حاشية الديوان أن عَجُزَ البيت غامض . والواقع أن البيتَ كلّه كما ورد في الديوان (بفتحة على اللام من « أصليت » ، و« ستر » في العجز غامض) .

أما الشطر الأول فالأمر فيه يسير ، أنه يجب أن يكون : « ويوم من الجوزاء أُصْلِيتُ (بالبناء للمجهول) نارَه . والمعنى واضح مشهور : إن كواكب الجوزاء تكون في أواسط الصيف ، وعلى ذلك قول أبي نواس : « أنضجَتْنا كواكبُ الجوزاء » .

وأما الشطر الثاني : « وقد ستر الكنّاس إذ بان مشترى » . . .

وإذا كان ناشر الديوان قد أثبت الأحرف (بقطع النظر عن النقاط والحركات) صحيحة ، فإننا نستطيع أن نقرأ هذا الشطر هكذا : وقد سُيِّر (بالياء وبالبناء للمجهول) الكنّاس ـ إذا بان ـ مشترى ، أو : وإذ (لمّا) بان (ظهر) الكنّاس (الكوكب في النظام الشمسي) مشتري (المشتري) وقد سيّر (ظهر عليه سيران أو خطّان أسودانِ) . ومن المعروف أن الكوكب المشتري يحيط به حزامان داكنان عند الوسط . وإذا كان هذان الخطّان لا يُريان إلا بمنظار ، فإنّهما لا يحتاجان على كلّ حال إلى منظار كبير . ثم أن رجلا أميرا عالما مثل ابن المعتزّ يعيش في مدينة بغداد لا يبعد أن يكون قد رأى القبة الزرقاء من خلال الاسطرلاب مرارا .

ونأتي بعد ذلك إلى بيتين آخريْنِ لابنِ المعتزّ (ص ١٤٤) :

شربتُها ، والديك لم ينتبهْ   سكرانُ من نومته طافحُ ؛
ولاحتِ الشِعرى وجَوْزَاؤُها   كمثل زجٍّ جرّه رامحُ !

وقد جاء في حاشية الديوان المنشور : الشعري والجوزاء من الكواكب . الزُجّ حديدة في أسفل الرمح . إن التفسير اللغويَ صحيح ، ولكن لا صِلَة له بالصورة الفلكية .

يخبرنا الشاعر في البيت الأول أن الليل لم ينتصفْ بعدُ، فإن الديك لم يزَلْ نائما ، والديك يَصيح للمرة الأولى ، فيما يقال ، قبيلَ مُنْتصفِ الليل .

يبدو أن الشاعر كان سهرانَ في تلك الليلة ، في النصفِ الأول من شهر آذارَ ، إلى نحو منتصف الليل ، لأنّ هذا الوقتَ من

ذلك التاريخ يجمع السِماكَ الرامحَ والجوزاء والشِعرى اليمانية في مجال النظر ، ولكن يبعدُ فيه السِماك الرامحُ عن الجوزاء والشِعرى في رأي العين كثيراً . ولبعد ما بين السِماك الرامحِ وبينَ الشِعرى والجوزاء في سمائنا يصعُبُ استجلاءُ الصورة التي تبدّتْ للشاعر ، أو لخَيال الشاعر ، منذ أحدَ عَشَرَ قرناً . وحبّذا أن نظَلّ ذاكرين لهذه الملاحظةِ حتى نصل إلى آخر المقال .

الثريّا خاصة

والثريّا مجموعة نجوم كانت محبّبة إلى ابن المعتزّ ، كما كانت محبّبة أيضاً إلى غيره من الشعراء العرب والإفرنج . ولابن المعتز في الثريا بضعةُ أوصاف عارضة (ص ٣٦ ، ١٣٨ ، ٣٤٢ ، ٤٦٧) . ثم إنّ له أوصافاً ذاتَ دَلالاتٍ يمكن أن تكونَ مهمّة . فابن المعتزّ يُكثر من ذكرِ وجودِ الثريا في الجانب الغَرْبِيّ من السماء ، فهو يقول مثلاً (ص ٤٠٢) :

إذ ترومُ الثريّا   في الغروب مَراما

وهي في الغرب مُضيئة أيضا (ص ٢٢٦) :

والثريا كَنَوْرِ غُصن   على الغرب قد نُثِرْ

ثم إنها تتلألأ وهي متّجهةٌ نحو الغَرْب (ص ١٣٦) ، وكان ابنُ المعتز يراها كأنها تمثّل ناقةً عليها هودجٌ :

كأنّ الثريا هودجٌ فوق ناقةٍ   يحُثّ بها حادٍ إلى الغرب مُزعِجُ .
وقد لمعتْ حتّى كأن بريقَها   قواريرُ فيها زِئبقٌ يترجْرجُ !

لم يَصف ابنُ المعتزّ الشكلَ العامّ للثريا فقط ، بل ذكر أيضاً

تبدُّلَ شكلِها وهي تتّجه في مسيرها نحو الغرب . قال يُشبِّهها بالفَروقِ (الخائف) الذي يَميل بعُنقهِ من غير التفاتٍ ليسمعَ ما يُقالُ من غيرِ أن يفطَنَ لاستراقه السمعَ أحدٌ (ص ٣٤٣) :

وقد مالتْ إلى الغرب الثريّا   كما أصغى إلى الحِسّ الفَروقُ

وكذلك يبدو أن الثريا تميل قليلاً إلى اليسار وهي تتّجه غرباً (أو نحن نراها كذلك وأرضُنا تدورُ بنا على مِحْورِها من الغرب إلى الشرق) . وهذا ما رآه ابنُ المعتزّ .

إن ملاحظة ابن المعتزّ في مكانها . نحن نعرف من النظر إلى السماء أن عناقيد النجوم ، وخصوصاً ما عظم منها كالدبّ الأكبر والتِنّين ، تبدّل أماكنها بين ساعة وساعة من الليل (من أثر دَوَرانِ الأرض بنا من الغرب إلى الشرق) ، وقد تتبدّل أشكالُها أحياناً إذا أصبح نظرُنا إليها من زاويةٍ غيرِ الزاوية التي كنا ننظر إليها قبل ذلك . فإذا ظهر عنقودٌ في المشرق بأحدِ جانبيه إلى الشَمال ، فإنه يصل إلى الغرب وذلك الجانب مائل إلى الغرب أو إلى الجَنوب .

حينما يبدأ الليل في سمائنا فإن المَجَرّة (درب التّبان ، وتسمّى أيضا بابَ السماء وأسماءً أخرى) تكون مستعرضة من الشَّمال إلى الجَنوب . فإذا نهض أحدُنا بعدَ مُنْتَصَفِ الليل وكَرّ النظرَ إلى السماء فإنه يرى المَجَرّة قدِ استطالتْ متّجهة من الشرق إلى الغرب . والثريّا بطبيعة الحال تفعل ذلك ، ولكنْ بما أن حجمَها في رأي العين ، وفي الواقع أيضاً ، أصغرُ من حجم المجرة جدّاً ، فإننا لا نرى ذلك بوضوح . ولكنّ ابنَ المعتزّ رأى

ذلك ، ورأى أيضاً أن الثريّا تكون أحيانا في مكان من السماء يكاد يخلو من النجوم . فقد قال (ص ١٥٩) :

وترى الثريّا في السماء كأنّها   بَيْضٌ بـأُدْحِيٍّ يلوم بفَـدْفَـدِ

والأدحيّ هو المكانُ الذي يَبيض فيه النَعامُ في الرمل . والفدفد هو الفلاة أو المكان المرتفع أيضا . ولكنّ الذي يبدو أن ابنَ المعتز قد قَصَد بالفدفد الفلاةَ ، كنايةً عن خلاء ما حولَ الثريّا من النجوم ، يؤكّدُ ذلك قولُه (ص ١٧٧) :

قمْ ، يا نديني ، نَصطبحْ بسوادٍ ؛   قد كاد يبدو الصبحُ أو هو بادِ
وأرى الثريا في السماء كأنّها   قَـدَمٌ تبدّتْ في ثِيابِ حِدَادِ

أي بيضاءَ في مكان أسود من السماء (خالٍ من النجوم) .

الثريا والهلال

ويُبرِزُ الشاعرُ ابنُ المعتزّ لنا مشكلةً عسيرةَ الحلّ حينما يجمعَ بين الثريا والهِلالِ في مكانينِ قريبٍ أحدُهما من الآخر . فهو يقول مثلا (ص ١٨٥) :

زارني والدُجى أحَمُّ الحواشي،   والثريا في الغرب كالعُنقودِ،
وهِلالُ السماء طوقُ عروسٍ   باتَ يُجلى على غلائِلَ سودِ.

إن الثريا نجمٌ شَمالي ومدارُها الظاهر لنا من الشرق الشَّمالي إلى الغرب الشمالي ، ثمّ إنها لا تَصِلُ إلى الأفق الغربي في سَمائنا إلا متأخرة . أما الهِلال فإنّه يظهر بعدَ أن يولد في أفقنا الغربيّ مائلاً إلى الجَنوب ، ثم لا يمكُثُ فوق الأفق إلا مدّة يسيرة ، مما لا يَدَعُ

مجالاً لاجتماع الثريا بالهِلال في مَجال محدود (كما تعرف في سمائنا وفي أيامنا الحاضرة) .

وابنُ المعتز يُحِبُّ هذا الجمعَ بين الثريا والهلال ، وقد ردّد ذلك في بَيْتَيهِ المشهورين (ص ٤٧١) :

وكأن المَجَرَّ جدولُ ماء نوّرَ الأُقحوانُ في جانِبَيْهِ
وكأنّ الهِلالَ نصفُ سِوارٍ والثريا كفٌّ تُشير إليه !

أما المشكلة التي تطلُبُ حلًّا فهي التالية :

إن البيت الثاني من بَيْتَيِ ابن المعتزّ يقتضيان أن يكونَ ابنُ المعتزّ قد رأى الثريا في الأفق الغربيّ في أول الليل مائلةً بجانبها العريض (الشَّماليّ حين ظهورها في الأفق الشرقي) نحو الجَنوب في اتجاهِ الهلال ، وعلى قرب ملموح يوحي بالتشبيه التمثيليّ الجميل :

وكأنّ الهِلالَ نصفُ سِوارٍ والثريا كفٌّ تُشير إليهِ !

لنذكرِ الآنَ أننا كنا قدِ استبقينا مُلاحظةً تتعلّق بالمسافة بين السِماك الرامح والشِعري والجَوزاء ، فيحسُنُ ضمُّها إلى القضية الدائرة على المسافة بين الثريا والهِلال في الأُفق الغربي . والجدير بالذِكر أن ما رآه ابن المعتزّ في الحالين مُخالفٌ لمألوفنا ، أقْصِدُ مألوفَ الناسِ الذين يَعْرِفُون من الفلك هذا المقدار الضئيل الذي نراه في هذا المقال .

إننا على أرضنا من نظامٍ غيرِ النظامِ الذي منه الثريا . ونظامُنا يَسيرُ ، والنظامُ الذي منه الثريا (الثور) يَسيرُ أيضاً . فهل

حدَث في أحدَ عَشَرَ قَرْناً ، منذُ أيامِ ابن المعتزّ إلى يومنا ، أن اختلفتْ أماكنُ الثريا في السماءِ حتّى أصبحنا لا نستطيعُ أن نرى الصُوَرَ الفلكية التي كانَ ابنُ المعتز يراها منذ أحد عَشَرَ قرناً في بغدادَ ؟ أجلْ . إن النجومَ تغيّر أماكنَها (بالنسبة إلى أرضنا) باستمرار . ولكنّنا نحن لا نُدْرِكُ ذلك ، فإنّ تبدُّلَ أماكنِ النجوم في السماء يجري ببُطءٍ شديد (بالنسبة إلى مقدرتنا على الرؤية من تلك المسافات الشاسعة) . فلا شكَّ ، إذن ، في أنَ الثريّا كانت تُرى (في أيام ابنِ المعتزّ : منذ أحدَ عَشَرَ قرناً) في غير المكانِ الذي نراها نحنُ فيه الآنَ .

إن جميع النجوم الثوابت (الخارجة عن نظامنا الشمسي والتي تظهَرُ لنا كأنها ثابتة بالإضافة إلى حركة أرضنا حول الشمس) تسيرُ في اتّجاه مُعاكسٍ لمسير نظامنا الشمسي الذي يسيرُ أيضا في هذه السماء الواسعة بجميع ما فيه من الكواكب الكِبار والصغار ، ويمكنُ أن يكون نظامُنا الشمسي يسيرُ أيضاً في الاتّجاه الذي تسير فيه جميع النُظُم النَجْمية ، ولكنْ بسرعة أقل . من ذلك حسب علماءُ الفلك تقهقُرَ النجوم الثوابت (بالإضافة إلى ما نرى نحن من أرضنا) فوجدوه تقهقُراً يبلُغ ٥٠,٢٦ ثانية (خمسين ثانية و٢٦ من المائة من الثانية) نحو الشرق في كل عام . ففي كلّ مائة عام يزيد التباعدُ بين نظامنا الشمسي وبين النظم النجمية الأخرى ٥٠٢٦ (خمسة آلاف وستا وعشرين) ثانية أو نحو ٨٤ (أربع وثمانين) دقيقة باعتبار الدقيقة ستين ثانية في الدائرة وفي الساعة على السواء .

ولقد كنّا رأينا أنّ نشاط ابنِ المعتزّ في نظمِ شعره الوصفيّ

والخمري كان بين سَنةِ ٢٧٠ وسَنةِ ٢٨٥ للهجرة (٨٨٢ - ٨٩٨ م) ، ونحن اليومَ في سَنةِ ١٤٠٠ للهجرة (١٩٨٠ م) ، فيكون ابن المعتزّ قد رأى الثريّا ، في سماءِ بَغْداد ، قريبةً من الهِلال منذ ألفٍ ومائةِ سَنةٍ هجرية أو تزيدُ (أو منذ نحوِ ألفٍ ومائةِ عامٍ ميلادي) . ومعنى هذا أنّ الثريّا قد تقهقَرَتْ في رأيِ العين عن نظامِنا الشمسيّ (وبالتالي عن أرضنا) نحوَ الشرق مِقداراً هو ٩٢٤ (تِسعمائةٍ وأربعٍ وعشرين) دقيقةً (من الدائرة) أو خمسَ عَشْرَةَ دَرَجَةً وثُلثَ الدرجة . والدرجةُ سِتّون دقيقة .

ويحسن أن نلاحظ ، من الناحية العلمية ، أن تقهقر الثريا نحو الشرق نحو ستّ عشرة درجة قد وقع في سمائنا ، وهي نصف الكرة التي فوقنا . فالفرق عمليا هو ستّ عشرة درجة من مائة وثمانين درجة في رأي عيوننا . فإذا نحن أضفنا إلى ذلك شيئا من خيال ابن المعتزّ الشاعر ، أصبح بيته الذي يجعل مكان الثريا من مكان الهلال ، في أول الشهر القمري ، منذ ألف ومائة عام ، وفي فصل الشتاء (إذا كانت السماء صافية طبعا) وفي نحو الساعة السابعة (حينما يصبح القمر قريبا من ربعه الأول) معقولا جدّا .

لقد كان لنا في شعر ابن المعتزّ المتعلّق بالنجوم دلائلُ فلكيّة واضحة لا يمكن أن تكون راجعةً إلى خياله الشعريّ وحدَه : لقد كان ابن المعتزّ على جانبٍ من العلم بالفلك ، ككثيرين من معاصريه الأدباء والشعراء ،ثم أدخل ما يعلمه من الفلك في ثنايا شعرِه فاكتسبَ شعرُه هذه الميّزة التي درسناها في هذا المقال .

بقي لي أنا ملاحظتين :

الملاحظة الأولى إلى الأدباء الذين يعتقـدون أن الأدب (والشعر خاصّة) عملُ العاطفة وحدَها في إنتاجه وفي التمتّع بقراءته . وعند هؤلاء أن الأديب يكتُب والشاعر يَنْظِم من غير أن يكونَ لعقله سلطةٌ على ما يفعل : إن الأدب عند هؤلاء ينبُعُ من الخيال والانفعال والغريزة ، وهم يَرَوْنَ أن العقل الذي وُهِبَ للإنسان وأصبح الإنسانُ بهِ وحدَه إنساناً يمكن أن يُستغلّ في كل شيء إلا في الأدب .

أنا أحترم هؤلاء لأنهم يقولون بما يشعُرون ثم يضعون أنفسَهم حيث يشاؤون أو حيث يستطيعون ، ولكنّني لا أنصح أحداً بأن يَغْبِطهم على ذلك . إن أدباءنا الكبارَ في التاريخ لم يخلُدوا على وجه الدهر إلا لأنهم وضعوا شيئاً من عُقولهم في إنتاجِهمُ الأدبيّ . قد أفتحُ مجلةً تصدرُ في كلّ شهر مرّة ، هنا أو هناك أو هنالك ، فلا أجدُ فيها في الشهر بعدَ الشهر مقالاًواحداً يُقرأ ، ثم يَبقى منه في عقل القارىء شيءُ ينفعُه . أكلُّ رجلٍ وضع لنا على القُرطاس شيئاً مِن اختباره الشخصيّ العامّ القاصر وجب أن يكون عندنا كاتباً نُنفق على ما يكتُب دقائقَ من وقتنا ؟ أكلّ شابٍّ رأى فتاةً ، أو خطَرَتْ في خيالِه فتاةٌ موجودة أو غيرُ موجودة ، ثم جَمَعَ لنا جُملاً مملوءة بالنقاط المتتالية وبعلامات الاستفهام والتعجّب يجبّ أن يكونَ ما كتبه قِصّة ؟

وبعد ذلك كلّه يجب أن نُدركَ أن الأدبَ الذي لا عقلَ فيه ليس بأدبٍ . وأن الزمن الذي كان العربُ فيه جاهلين أو شبه جاهلين ثم قام فيهم نفرٌ من الأذكياء استسهلوا الصعْبَ (أوِ

استصْعَبُوا السهلَ على الأصحّ) فجاءوا بقِطع من السُّكّر نَتَشوها من تُراثِ الأوّلين وأذابوها في جِرار من ماء كلامِهم وسَمَّوْا ذلك أدبَ تجديدٍ ، إن ذلك الزمن قد مرّ الآن وغَبَرَ . وإن كتب هؤلاء ستظلّ تقرأ ما دام في العرب جاهلين وأرباع متعلّمين كالرجل الذي لا يستطيع أن يرقى قِمّة الجبل ليُشْرِفَ منها على أجملَ ما خلق الله من بِقاع الأرض فيكتفي أن يَصْعد إلى سطح كوخه ثم يزعُمُ أنه يرى من ذلك السطح مناظرَ أجملَ من المناظر التي تُرى من جميع قِمم الجبال .

كثيرا ما أرى في تطوافي نساءً يَحْمِلْنَ جِرارَ الماء على رؤوسهن من مكانٍ بعيد لِيَشْرَبْنَ من ذلك الماء في بيوتِهِنّ ويَسْقونَ منه رِجالَهُن وأطفالهن وَلِيَقْضِينَ به حاجاتِهِنّ ولِيَرْدُدْنَ به عواديَ المرض والوسخ فأقولُ في نفسي : إنّ شعباً لا يزالُ يحملُ الماء على رأسهِ لَشَعْبٌ لا يجوزُ له أن يقول إنّي عَرَفْتُ العلمَ ، لأن العلم أمانةٌ ولا يجوزُ لأحد أن يخونَ أمانته ، وخصوصاً إذا كان القائمون على ذلك الشعب يَقْصِدُون أن يبقى ذلك السوءُ في شعبهم أو لا يجهَدون في أن يُبَدّلوه .

نحن ندعو العربَ إلى استرداد مكانَتِهم الأدبيةِ الصحيحة باعتمادِ العلمِ والعقل في ما يُنتجون . أراني قد أطلتُ في خطاب الأدباء المعاصرين ، ولعلّي قد بلغتُ ما أريد .

أما الكلمة الثانية فهي لسادتي علماءِ الرياضياتِ والفلك الذين سَيَرَوْنَ في أرقامي وحُسباني شيئاً من الخَلَل أشْعُر بوجوده ولا

أهتدي إلى مكانه . ولو أني اهتديتُ إلى مكانِه لأصْلَحْتُهُ قبلَ أن يصدُرَ إليهم . غير أني واثقٌ من أنّهم يَشركونني في حبّ العلم ومن أنّهم سيصَحّحونَ ما يحتاجُ إلى تصحيحٍ فأكونَ لهم من الشاكرين . ولا ريبَ في أن في تصحيحِهِمْ هذا نفعاً لعددٍ كبيرٍ من القراء وخدمةً للعلم نفسه .

أهم التعاريف العربية في القاموس الإسباني وملاحظات أخرى

في هذه المرّة أختار أن أقرأ القـاموس العـربي باللغـة الإسبانية ، أي أن أستعـرض الكلمات العـربية في القـاموس الإسبانيّ . ومع أن معرفتي بالإسبانية من حيث الشمولُ ومن حيث الدِّقّة لا يُركَن إليها ، فإنّ هذا العمل الإحصائي ـ من الوجهة العامّة في النظر إلى الموضوع المقصود ـ ممكن من خلال معرفتي المحدودة .

إنّ ثمانيةَ قـرونٍ من الحكم الإسلاميّ العـربي (٩٢ ـ ٨٩٧ هـ)[1] في شبه جزيرة إيبرية (إسبانية والبرتغال) يجب ، في منطق التاريخ ، أن تترك أثراً واضحاً جدّاً في كلّ ميدانٍ من ميادينِ الحياة في تلك البلاد ، معَ العلم اليقين بأنّ هذا الحُكم كان ـ في أثناء تلك القرون الثمانية ـ متفاوتاً تفاوُتاً كبيراً من حيث الرُقعةُ التي سيطر عليها في الأدوار المختلفة ثمّ من حيث اجتماعُ السلطةِ في

(١) عام ٧١١ إلى عام ١٤٩٢ للميلاد .

أيدي الحكّام الذين تَوَلَّوْا حكمَ رِقاعٍ من الأندلس في الأزمنة المختلفة .

من المعروف أن في اللغة الإسبانية عدداً كبيراً من الكلمات العربية . وقد استعرضت « قاموس اللغة الإسبانية »[1] فعَدَدتُ فيه نحوَ ألفٍ ومائتي جِذر عربيّ يرْجِعُ إليها نحوُ ألفَيْ كَلِمةً إسبانيةٍ أو أكثر من ألفين قليلاً . ولا ريبَ في أنّ هذا العدد قليلٌ جِدّاً ، لا بالاضافة إلى المشهور في هذا الموضوع فقط ، بل بالإضافة أيضاً إلى تلك المدّة الطويلة التي بَقِيَ في أثنائها العربُ في الأندلس ثمّ إلى تلك المكانة السامية التي كانت للحضارة والعربية وللغة العربية فوق سائر الحضارات واللغات في تلك الحِقبة من الزمن في العالم كلّه . وإذا نحن قَصَرْنا النظر على اللغة ثمّ نظرنا إلى اللغة التي تكلّمها المستعربون (نصارى الأندلس) في أثناء الحكم الإسلاميّ العربي - وهي اللغة التي نَبَعت منها اللغةُ التي يتكلّمها الإسبان اليوم - لم نجد أن تلك اللغة كانت تحتلّ مكانة ظاهرة في موكب اللغات في العالم .

إنّ لغة المستعربين كانت في الأصلِ لهجةً مشوّهة من اللاتينية التي كانت مَحْكيّةً في إيبرية معَ رواسبَ من لَهَجاتٍ أُخرى مَحلّيةٍ ، وكان العربُ يسمّونها « الأعجميّة »[2] . ولا ريب أيضاً في أن الكَلِماتِ العربيةَ فيها كانت كثيرةً كَثْرةً كبيرة . ولكن يبدو أنّ هذه « الأعجمية » كانت قاصرةً على الطقوس الدينية وعلى تراطُنِ

(١) (Diccionario de la lengua española, Madrid (Real Academia Española), éd.17, 1947; éd. 19a, 1970.

(٢) aljamia.

المستعربين[1] بها فيما بينهم في بيوتهم وبين المسلمين ، ذلك لأنّ هؤلاء المستعربين كانوا يتكلّمون اللغة العربية في حياتهم العامّة وكانوا يكتُبون بها أيضاً ، كما كانوا يحسنون اللغة العربية ويبرعون في التعبير بها اجتماعيّاً وأدبيّاً فوق ما كانوا يحسنون لَهْجَتَهُمُ اللاتينيةَ ولغتَهُمُ الأعجميةَ في كلّ وجهٍ . ومن معرفة هؤلاء باللغة العربية معَ بقائهم على النصرانية جاء اسمهم « المستعربون » .

وبعدَ نحو قرنين من الزمن - في نحو عام ١٢٧٠ للميلاد (٦٧٠ للهجرة) ، بعد الفتح العربي بأكثرَ من خمسةِ قرونٍ ونصفِ قرن - استطاع ألفونسو العاشرُ المعروفُ بلقب الحكيمِ ملكُ قَشطالةَ ولِيونةَ[2] - بما كتبه هو وبما أمر أنْ يُنقل من اللغة العربية وغيرها إلى اللَهْجة التي كان يتكلّمها المُستعربون في ذلك الحين - أن يوجدَ اللغةَ الإسبانيةَ القديمةَ . وفي أواخر القرن الخامسَ عَشَرَ للميلاد (أواخرِ القرن التاسعِ للهجرة) قُبيلَ خروج العرب من الأندلس أصبحتْ تلك اللغةُ الإسبانيةُ لغةً رسميّة . ولكن تلك اللغة لمْ تبلُغ إلى عصرها الذهبيّ وإلى أن تُصبحَ الأداةَ المعبِّرة عن الأدب الإسبانيّ الزاهي (١٥٣٠ - ١٦٨٠ م) إلّا في أواسط القرنِ السادسَ عَشَرَ . ثمّ جاءتِ اللغةُ الإسبانية الحديثة[3] .

* * *

(١) التراطن : كلام لا يفهمه العرب . المستعربون : mozarabes

(٢) ألفونس العاشر الحكيم (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) . قشطالة في أواسط إسبانية ، وليونة في الشمال الغربي من إسبانية .

(٣) Cf. Enc. Britannica (1970) 20: 1122.

وقبل أن أعْرِضَ للأسباب التي جعلتِ الكَلِماتِ العربيّةَ قليلةً في القاموس الإسباني (لا في اللغة الإسبانية) يحسُنُ أن أُشيرَ إلى نِطاق الإحصاء الذي قُمت به . لقدِ آستندتُ في الدرجة الأولى إلى « قاموسِ اللغة الإسبانية » فعددتّ فيه الكَلِماتِ التي ذَكَرَ أصحابُ ذلك القاموس أنّها تَرْجِعُ إلى أصل عربي . ولم يكن هذا العملُ صعباً علي ـ ولا يمكن أن يكونَ صعباً على أحدٍ غيري ـ ذلك لأنّ أصحابَ هذا القاموس أنفُسهم قد أثبتوا بعدَ كلّ مادّة ، وبعد عدد من الصِيغ أيضاً ، الكَلِمَةَ العربيةَ التي تَرْجِعُ تلك المادّةُ أو تلك الصيغُ إليها . ولقد أثبتوا ذلك بالحرف العربي أيضاً[١] .

ثمّ بدا لي وشيكاً أنّ « قاموس اللغة الإسبانية » غير واف بمقصودي من كلّ وجه فَرَجَعْت إلى عدد من الكتب منها[٢] :

---

(١) هذا ينطبق على الطبعة السابعة عشرة . أمّا الطبعة التاسعة عشرة فقد بقيت الإشارة إلى الأصل العربي للكلمات الإسبانية ولكن بالحرف اللاتيني .

(2)- Glossaire des mots espagnols et portugais derivés de l'arabe, par R. Dozy et W.H. Engelmann, seconde édition, Amsterdam (Oriental Press) 1915.

— Los arabismos del español en el siglo XIII, por Eero K. Neuvonen, Helsinki (Imprenata de la Sociedad de Literatura Finesa) 1941 (en Studia Orientalia, edidit Sociatas Orientalis Fennica, vol. X, Helsingforsiae, 1942).

— Zur Sprache der Mozaraber, von Arnald Steiger (Sonderabdruck aus **Sache, Ort und Wort,** Festschrift Jakob Jud, Romanica Helvetica 20), Genève (Lib. E. Droz) et Zürich-Erlenbach (E.Rentsch Verlag) 1942.

— Contribución a la fonética del hispano-árabe y de los arabismos en el ibero-románica y et siciliano, por Armald Steiger, Madrid (Junta para amplición de estudios. - Centro de estudios histórico: Revista de Fililo-

ـ معجم الكلمات الإسبانية المقتبسة من العربية لأحمد المِكناسي ، تطوان (دار كريماديس للطباعة) ١٩٦٣ م (وهو باللغة العربية) .

ـ معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقّة من العربية .

ـ اليعرُبيّات[١] الإسبانية في القرن الثالث عَشَرَ (للميلاد) .

ـ في لغة المستعربين .

ـ بحوثٌ تتعلّق بالأداء اللفظي في اللغة العَربيةِ الإسبانية واليُعربيّات في اللغة الإيبرية الرومانسية واللغة الصِقِلّية .

ولكنّ عددَ الكَلِماتِ العربيةَ في القاموس الإسباني ظلّ قليلاً !

وتبدو قِلّةُ الكلمات العربية في القاموس الإسباني ـ وفي أول الأمر ـ مشكلةً مُحيِّرة ! فإذا نحن أنْعَمْنا النظرَ في هذه القضيّة اتّضحت لنا الرُؤيَةُ ثمّ وصلنا إلى أسبابٍ تَحْمِلنا على تفسير تلك الظاهرة ـ ظاهرةِ قلّةِ الكلمات العربية في القاموس الإسباني تفسيراً معقولاً . من هذه الأسباب :

= logia española, anejo XVII), Madrid (Imprenta de la Libraria y Casa Editorial Hernando) 1932.

راجع أيضا :

— Manual de gramática histórica española, por R. Menéndez Pidal, Madrid (Espasa-Calpe) 1952.

— El idioma española en sus primeros tiempos, por R. Menédez Pida, España-Argentina (Espasa Calpe) 1951.

(١) الألفاظ والتعابير العربية التي حافظت على طابعها وعلى عدد من خصائصها العربية بعد دخولها في اللغة الاسبانية .

١ ـ إنّ الذين قاموا على إخراج « قاموس اللغة الإسبانية » لم يكونوا من البارعين في فِقهْ اللغة العربية[١] .

٢ ـ إنّ عدداً من الكلماتِ العربيةِ قد تشوّه على لسانِ المُستعربين (نصارى الأندلس) واليهود[٢] وهم متفرّقون في شِبه جزيرةٍ تبلُغُ مساحتها ستمِائةَ ألفٍ وخمسَمِائةِ كيلومترٍ مربّعٍ ومعزولٍ بعضُ مناطِقِها عن بعضٍ بالجبال والأنهار عزْلاً كبيراً . وقد كان هذا التشويهُ في كثير من الأحيان كبيراً جدّاً حتّى أفقد عدداً من الكلماتِ العربيةِ الأصلِ كلَّ شَبَهٍ لها بأصلها[٣] .

٣ ـ إنّ عدداً من الكلمات العربية حينما تقلّبَ في الصِيَغِ الإسبانية المختلفةِ أصبحَ قريبَ الشَبَه جدّاً بالكَلماتِ الإسبانيةِ نفسِها . هنالك صِيغٌ تَرْجِعُ كلُّ واحدةٍ منها مرّة إلى جذر عربي ومرّة

(١) يدلّ على ذلك تهجئات خاطئة في عدد من الكلمات العربية . ثمّ أنّ القائمين على القاموس وجدوا أن يتركوا إثبات الأصول العربية للكلمات بالحرف العربي في الطبعة التاسعة عشرة (وربّما في الطبعة الثامنة عشرة التي لم أطّلع عليها) .

(٢) إنّ اليهود الذين طردوا من إسبانية في أثناء جلاء العرب عن الأندلس وبعيد ذلك لا يزالون إلى الآن يتكلّمون اللغة الاسبانية كما كانت في ذلك العهد ، من أجل ذلك هم الآن الشاهد الحيّ على صورة لغة المستعربين .

(٣) في اللغة الاسبانية كلمات عربية ابتعدت عن أصولها العربية مثل :

الشكاء (المرض)	enjeco
العرشان (؟)	añorza
الخلخال	carcax
المخرز	almarade

ثمّ هنالك الهُري (بضمّ الهاء وسكون الراء : بناء لخزن الحبوب ـ وجمعه أهراء) ، ويبدو في الاسبانية في الصور التالية :

algorin, alforin, alforiz, alholi.

إلى جذر لاتيني ، والدالُّ فيهما على اختلافِ الأصلين اختلافُ المعنيَيْنِ فقط[١] .

٤ ـ إنّ عدداً آخرَ من الكلمات العربية في اللغة الإسبانية يجب أن يُعَدَّ عربياً بالتجوُّزِ ، ذلك لأنّ هذه الكَلماتِ في حقيقتِها يونانيةٌ أو لاتينية أو فارسيّة أو تركيّة ، ولكنّها على كلِّ حالٍ قد انتقلتْ إلى اللغة الإسبانية من اللغة العربية . من أجل ذلك لا تبدو هذه الكلماتُ في القاموس الإسباني ، وفي كثيرٍ من الأحيان ، واضحةَ المعالم .

٥ ـ لا ريبَ في أنّ الكلماتِ حواملُ للحضاراتِ ، فإذا فَقَدَتْ لغةٌ ما في قُطْرٍ ما رِسالَتَها الحضارية فقدتْ كَلماتُها دَوَرانَها على الألسن في ذلك القطر . ولا ريبَ عندنا في أنّ الإسبان ـ بعد خروج العرب من الأندلس ـ قدِ ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن الحضارة التي كانتِ اللغة العربيةُ حاملةً لها في بلادِهم . من أجل ذلك قلّتْ حاجةُ الإسبان إلى تلك الكلماتِ التي كانوا كثيري الاستعمال لها في تاريخِهِمُ العربي . ولقد رجعتُ إلى عددٍ من الكتب الإسبانيّة[٢] فرأيتُ أنّ الكَلماتِ العربيةَ لا تَرِدُ فيها وُروداً كبيراً .

٦ ـ ثمّ لا مَعْدى لنا عن القولِ : إنّ النزاعَ بين العرب

(١) مثال ذلك marga (من العربية : مرج) و marga (من اللاتينية : نوع من الحجارة) .

(٢) قرأت صفحات من كتاب « دون كيخوتي » لمؤلفه ثربانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦ م) ثمّ صفحات من عدد من الكتب المتأخرة .

والإسبان كان في أساسه نِزاعاً دينيّاً ، واللغة العربيةُ لغةُ الإسلام . من أجلِ ذلك اسْتَتْبَعَ [١] عِداءُ الإسبانِ للعرب عداءَهُمْ للعرب عامّة ثمّ لدينهم . ويبدو أنّ ديوانَ التفتيش الذي نشأ في إسبانية لم يكن يكتفي بالرَغْبة في استئصال شأفةِ غيرِ الكاثوليك من المسلمين واليهود والنصارى ، بل كان يريدُ أيضاً استئصال الكاثوليك الذين صبغَتْهُمُ الحضارةُ العربية ، فكان يُستدَلُّ عليهم بتلك الأماراتِ الحضارية من اللغة والفلسفة والفنّ والأدب والعادات الاجتماعية فيقضي على أهلها . ومن المنتظر أن يكونَ الإسبان في ذلك الحين قد أخذوا يخفّفون الأخذَ بالمظاهر الحضارية التي كان يكرهها ديوانُ التفتيش ، ومن ذلك استعمالُ الكلمات العربية الأصل في لغة الكتابة خاصّة .

٧ ـ ويتبع الكرهَ الدينيَّ الكرهُ القوميُّ . وهذا الأمرُ يقضي أن تنشط السُلطة التي كانتْ وراء ديوانِ التفتيش فتحاولُ أن تسكَ للإسبان كَلِماتٍ جديدةً تَحِلُّ مَحِلَّ الكَلِماتِ العربيةِ الأصلِ . والمتتبّع للقاموس الإسباني يرى أن كثيراً من الجذور التي تَرْجِعُ إليها كلماتُه جذورٌ لاتينية . هذه الجذور اللاتينية (أو الكاثوليكية) التي تَغْلِبُ على القاموس الإسباني غَلَبَةً كبيرةً يجب أن تكونَ حديثةَ الدخول فيه . ولكنّ هذا أمرٌ خارج عن نِطاق بحثنا الحاضر .

ومن ذلك أيضاً أنّ الذين وضعوا النحو الإسباني ودوّنوا فِقه اللغة والبلاغة للإسبان قد حَرَصوا أشدّ الحرص على أن يكون النحو الإسباني نحواً لاتينيّاً خالِصاً من كلّ أثر حَضاري لغير اللغة

---

(١) في المعجم الوسيط (١ : ٨١) استتبعه : طلب إليه أن يتبعه .

اللاتينية . إنّ الإسبان الأوّلين لم يتأثّروا في تاريخ لُغتهم الحديثة بالكَلِماتِ العربيةِ فحَسْبُ ، بل تأثّروا أيضاً ـ ممّا نراه من الآثار الباقية في النِتاج الأدبي والنِتاج الفلسفيّ ـ بالمدارِكِ العربية التي تَقتضي أن يكونوا قد تأثّروا بالجمل العربية ، كما أنّ ذلك نفسه يجب أن يكون قد فَسَحَ في صدر اللغة الإسبانية مجالاً لشيءٍ من قواعِد اللغة العربية . ولكنّ هذا أيضاً يجب أن يكونَ قد قُضِيَ عليه بالعوامل التي كانَ ديوانُ التفتيش وراءها .

من الكلمات العربية في القاموس الإسبانيّ كَلِماتٌ لاتينية الأصل مثل acirate, alcazar (القصر والصراط : الشارع الواسع) ويونانية الأصل مثل alfinge, alboque (البوق والإسفنج) وفارسيّة الأصل مثل azucar, alfil (الفيل والسكّر) وسوى ذلك . غير أن هذه الكلمات قدِ انتقلت إلى الإسبان من العرب لا من أصحابها الأصليّين .

بعدئذ نظرتُ في هذه الكلمات ـ سواءٌ أكانت عربيّةً صريحةً أو عربية هَجينةً ـ فوجدتُ عدداً منها فُرادَا ليس في القاموس الإسباني منها إلّا صيغةٌ واحدةٌ ، نحو :

الصراط — acirate
الدليل — adalid
العمود — alamud
الغاسول (نبات منظّف) — algazul
تسمية — tazmia

وكذلك وجدتُ فيها تسمية موادّ يَرِدُ من كلٍّ مادّة منها صيغٌ قليلة أو كثيرة ، من ذلك مثلاً كلمة الزيت aceite (زيت) :

مقدار من الزيت . . .	aceitada
زيّت ، مسح بالزيت	aceitar
ثفل الزيت (المترسّب منه)	aceitazo, aceiton
زيت	aceite
الزيّاتة : بائعة الزيت أو قاطفته أو جامعته أو حاملته	aceitera
الزيات : بائع الزيت الخ	aceitero
محل بيع الزيت	aceiteria
زيتي الطبيعة (يحتوي على زيت)	aceitozo
زيتونة (ثمرة الزيتون)	aceituna
زيتي (زيتونيّ اللون)	aceitunado
قاطف الزيتون	aceitunero
موسم الزيتون	aceitunera
نسيج معلوم	aceituni
زيتونيّ اللون	aceitunil
شجرة ذات خشب قاس يستخدم في البناء	aceitunillo
زيتونة (شجرة الزيتون)	aceituno

من أجل ذلك قُلتُ أنا إن عدَدَ الكَلِماتِ العربيةَ في القاموس الإسباني أكثرُ من الجذور (الموادّ الرئيسة) . ولكنّ هذه الكَثْرَة ليستْ بالغةً - هي نحو ألفانِ في رأيي - لأنّ عدداً من هذه الكلمات يَرِدُ في

القاموس بصور (تَهْجِئات) مختلفة (في أماكن مُختلفة من القاموس) ثمّ نجدُ للكَلِمةِ ذاتِ الصُوَرِ المختلفة معنىً واحداً . من ذلك مثلا كلمة « مخزن » فإنّها ترد في القاموس[1] في ثلاثِ صُوَرٍ هي : alma-gacén, magacén, almacén ومن ذلك أيضا الهُرْي (بيت كبير تخزن فيه الحبوب - وجمعها أهراء) فإنّها في الإسبانية alhori, alhorin, alholi .

وتكاد الكَلِماتُ العربية الموجودة في القاموس الاسبانيّ اليومَ أن تكون كلُّها أسماءً . ثمّ أنّ الجانبَ الأكبرَ منها قد دخل في نَسيجِ اللغة الإسبانية مُحلًّى بلام التعريف . من هذه الأسماء المحلاّة بلام التعريف القمريّة الخالصة :

العمود	alamud
البرّادة (إناء لتبريد الماء)	albarrada
القلعة	alcala
الفرس	alfaraz
الغارة (الغزو ، الغزوة)	algara
الحاجة	alhaja
الجرس	aljaraz
المخزن	almacén
المخدّة	almohada

ومن الأسماء التي دخلت من اللغة العربية إلى اللغة الاسبانية محلاّة بلام التعريف الشمسية الخالصة :

الرئيس[1] — arraez

الريحان — arrayhan

الرزّ — arroz

الزبيب — acebibe

الصائفة (الغزوة في الصيف) — aceifa

الشكاء (المرض)[2] — acheque

الدُفّ — adufe

الشبّابة (نوع من المزمار) — ajabebe

الشرف (المكان العالي) — ajarafe

الطبل — atabal

التجارة — atijara[3]

الزيت — aceite

اللوز ، اللوزة — alloza

غير أنّ الاسبان الذين استعاروا الكلماتِ العربيةَ ثمّ أجْرَوْها على لسانهم لم يكونوا دائماً يَمِيْزون لامَ التعريف القمريّة من لام التعريف الشمسيّةِ ، فربّما جَعَلوا اللامَ الشمسيّةَ قمريةً نحو :

الضيعة — aldea

الترمس (حبّ معروف ونباته) — altramuz

الطائر (كوكب) — altair

---

(١) تكرار الراء (في الكلمة الاسبانية) لأنّ اللام قبل الحرف الشمسيّ تقلب إلى مثله (من أجل ذلك قلبت لام التعريف في أوّل كلمة رئيس راء) .-

(٢) الشكاء : الاشتكاء ، التألم من المرض ، الوجع .

(٣) الخوطاز J, j (في الاسبانية) كانت في بعض أدوار تطوّر اللغة الاسبانية تلفظ شينا .

الرزّة (حلقة من حديد) — algauza

الروث — alrota

الطعاميّة (نوع من الكؤوس) — altamia

وربّما أخذَ الإسبانُ الكلمة العربيةَ معرّفةً فقَلَبوا فيها اللامَ القمرية لاماً شمسيّةً بحذف اللام بعدَ الهمزة) من غير تضعيفٍ للحرف الأوّل من الاسم (لأنّ الاسبان لا يضعّفون إلاّ الراءَ) ، على ما رأينا في الأسماء التي أخذوها من العربية مُحلاّة باللام الشمسية . من ذلك مثلاً[1] :

البلّور — abalorio

المسمار — abismal

الحرّ (بضمّ الحاء) — aforro, ahorro

الحوالة — agüela

الجلجلان — ajonjoli

الحرّية — ahorria

وفي هذا الباب كلمة « الناعورة » التي انتقلت إلى اللغة الاسبانية على صور مختلفة لأنّ ألْسنةَ الإسبان لم تكن ، فيما يبدو ، تألف حرف النون أُلفةً سَمْحَةً ، وإن كانوا أرأف بها من أبناء عَمِّهِمُ البُرتغاليين الذين أشمّوها كثيراً أو قليلاً[2] . ويهُمُّنا هنا ، فيما يتعلّق

---

(١) حينما كانت الكلمة العربية المبدوءة بحرف شمسيّ تدخل إلى اللغة الاسبانية محلاّة بأل (بلام التعريف) كانت اللام في العادة تحذف وتبقى الألف للدلالة عليها (راجع ، فوق ، aceite الخ) .

(٢) كانت تحذف وبدّل عليها صوت من الأنف غير واضح .

بلام التعريف ، النونُ الآتيةُ في أوّلِ الكَلِمَة . هذه النون تُعاني كثيراً من المَشَقَّة : يجعلونها مرّةً مسبوقة بهمزة مستَعْليةٍ (مفخّمة) أو مُمالة أو يَقْلِبُونها ميماً ، كما نرى في كلمة النشادر فإنّها almobatre وربّما فعلوا عكس ذلك كما نرى في كلمة المسك فإنّها قد تأتي niscalo[1] miscalo[2] وربّما زادوها حيثُ لا تكونُ كما في أفيون anfion ، وعرشان ! (جمع عريش) عريش anorza .

وعرفتِ اللغةُ الإسبانية (لا القاموسُ الإسباني) كَلِمة « ناعورة » في الصُوَرِ التالية :

alnagora, anoria, annora, añaora, añora, añoria, naora, noria, ñora, la ñora, la ñoreta, ñoria, ñoria, la ñorica. naora, alnagora, anoria, añoria, noria

فمَعَ أنّ الناعورةَ تبدأ بالنون ـ والنونُ حرفٌ شمسي ـ فإنّ كلمة الناعورة جرت على لسان الاسبان مُحلاّة بلام التعريف القَمَرية (وهذه ليست في القاموس) ، كما أنها جرت على لسانهم مُحلاّة بلام التعريف الشمسية annora (لأنّ النون المَعْلُوَّة بالعَلامة المُسمّاة « تيلدى » tilde أو شدّة كانت توضع على النون ñ لتدلّ على تشديد النون أو تضعيفها في اللفظ) . ثم أجرى الإسبانُ هذه الكلمة ñoria مجرى سائر الكلمات المبدوءة بالنون ورَسَموها بلا تيلدى (شدّة) جَرْيَاً على عادتهم بأن يكونَ كلّ حرفٍ شمسيّ في أوّل الكلمة بعدَ لام التعريف مشدّداً (مضعّفاً) ضِمْناً .

وبقي للنون مشاكل على ألسنة الإسبان فكانوا أحياناً يُبدّلون

(١)و(٢)أي قد تأتي النون مكان الميم (كما كانت الميم قد جاءت مكان النون) .

مكانها في الكلمة ، كما اتّفق لهم في كلمة « نَرْجِس » اللاتينية الأصل « نركيّسوس » (المنقولة من اليونانية) فإنّهم قالوا فيها : نرخوس ورنخوس (ولم أهتد إلى مكانها الساعة) . وعندنا نفر من العامّة يقولون : نرجس ورنجس (لاسم الزهر المعروف وللفتاة المسمّاة باسم هذا الزهر) ويقولون دِماغ ومَداغ ويقولون للزجاج « قزاز » ، وعندنا في الفصيح حَمَدَ ومدح .

قد نجد الكلمةَ العربيةَ في القاموس الاسبانيّ غيرَ محلاّة بلام التعريف أصلاً (منكّرة) ، أو محلاّة أبداً باللام ، أو محلاّة وغير محلاّة معاً . فمن الكلمات التي وردت نكرة (غير محلاّة باللام مطلقا) :

أبنوس (خشب أسود قاس ثمين)	abenuz
باطن (جوف الأرض)	badan
بطانة (جلد خروف مدبوغ)	badana
قفطان	caftan
قفّة	cofa
كوفيّة (منديل يجعل غطاء للرأس ويعصب بعقال)	cofia
بدويّ	beduino
طاقة (خزانة صغيرة)	taca
طال (إناء يشرب به)	taza
أمان : عفو (سلم يتمتّع به الذين يخضعون لسلطة غيرهم)	aman
ساقة (القسم الأخير من الخميس أو الجيش)	zaga

زغل (الشابّ النشيط) ، البطل ! zagal

وكذلك نجد في القاموس الإسباني كلماتٍ عربيةً قد وَرَدَتْ فيه معرّفةً (مُحلاّة باللام) فحسب . من هذه الكلمات :

العريف (الوكيل المناظر على عمّال البناء) alarife

العروس (خشبة في وسط مصراع الباب أو النافذة) alaroz

العروسة (العروس : الفتاة المخطوبة أو المتزوّجة حديثا) alaroza

العطّار (بائع العطر ، بائع العقاقير وغيرها) alatar

الزيت aceite

وهنالك كلمات عربية في القاموس الاسباني تأتي معرّفة باللام ، وغير معرّفة باللام معا ، من ذلك مثلا :

القائد (الحاكم ، الوالي في حصن أو قلعة) caid y al caide

الأمير amir y alamir

العنبر ambar y alambar

الدولة dula y adula

الستارة (جدار رقيق أو حاجز عاديّ) citara y acitara

الكحل (الأثمد : مسحوق أسود تلوّن به أجفان العينين) cohol y alcohol

الصنفة ، الحاشية من الثوب cenefa y acenefa o azanefa

وربّما قُلِبَتْ لامُ التعريف نوناً في نحو قولهم enjeco (شكّ ، ريب) . وهذه اللفظة نفسها enjeco هي تهجئة ثانية للكلمة acheque (الشكاء : المرض) ، وحُلول النون هنا مَحَلَّ لام التعريف

الشمسيّة (محلّ اللام المقلوبة شينا في أوّل كلمة « الشكاء » لفظا) أمر واضح جدّاً . وهنالك كلمة anorza (العرشان*) وقد حلّت النون فيها مكان لام التعريف القمريّة . ومن هذا الباب كلمة (أفيون ـ الأفيون) .

وتظهر النون ظهورا طبيعيّاً في الكلمات التالية : añafil (النفير : البوق ، المزمار) ، añil (النيل : نبات يستخرج منه اللون الأزرق) ، añacal (النقّال : الحمال الذي يحمل الأكياس في الطاحونة) ، añaceha (النزهة ، التسلّي ، تسريح البصر في الطبيعة) . هذه النون ذات التيلدى (الشدّة) هي في الحقيقة نونان (النون التي في أوّل كلّ كلمة من هذه الكلمات ثمّ النون المقلوبة عن اللام الداخلة على النون الأصلية .

وبدا لي أنّ لام التعريف قد تأتي في اللغة الاسبانية في آخر الكلمة نحو baril (البارع) ونحو margal (المرج) . وقد تأتي في أول الكلمة وفي آخرها معا ، نحو albanil (البنّاء) و almargal (المرج) . غير أنّ هذه اللام التي تأتي في آخر الكلمة تكون أحيانا مقطوعة من نحو alcancel (علم الأسـ . . . من علم الأسعار : التعرفة : البطاقة التي تكتب عليها أسعار الأشياء المعروضة للبيع) . ومن المشهور في ذلك almiral (أميرالـ . . من « أمير الماء ») . ومثل ذلك أيضا arsenal (. . . أرسنالـ . . . من « دار الصناعة ») .

وكان للام التعريف العربية أثر بالغ في نفوس الإسبان حتى أدخلها الإسبان على أسماءٍ انتقلت إلى لُغتهم من غير اللغة العربية .

---

(١) لم اهتد إلى الصيغة الصحيحة ولا إلى المعنى الصحيح لهذه الكلمة : العرشان .

من ذلك مثلا aljanec بمعنى « الخيمة » أخذوها من كلمة « خاتك » الفارسية (خانة : غرفة ، والكاف علامة التصغير) ثمّ أدخلوا عليها لام التعريف العربية (وليس في الفارسية لام للتعريف) . وقالوا : albangala (من بنغالة نسيج رقيق منسوب إلى بنغالة في شرقيّ شبه القارة الهندية يستخدم في تزيين العمائم) ، والألف واللام في أول الكلمة من العربية . وفي ما يلي أسماء مأخوذة من اللغة اللاتينية ثمّ أدخلت عليها « أل » التعريف العربية (لأنّ اللغة اللاتينية أيضا لا لام للتعريف فيها) ، من ذلك :

الصقر ، الباز (طائر يصاد به)	alfaneque (al + falco)
جدار ، سياج ، خندق	albarrada (al + parata)
شجرة الفلّين ، فلّين	alcornoque (al + quercus)
نبات يشبه الذرة	alcandiga (al + candicâre)
خرشوف (أرضي شوكي) تصغير رأس	alcauci, alcaucil (al + cabecill: cabeza
مقلع لنوع من الحجارة	almarga (al + marga)
كومة من التبن تجعل على شكل مخروط ليبقى التبن فيها جافّاً	almiar (al + metarîus)

وسواءٌ أكان الإسبانُ قد تناولوا الكَلِمَةَ العربيةَ نكرةً أو مُعرّفةً باللام فقد عدّوها نكرة ، فإذا هم أرادوا تعريفَها جعلوها مسبوقةً بأداةِ التعريف الإسبانية el فهم يقولون على السواء :

الأمير	el amir y el alamir

العنبر	el ambar y el alambar
الزيت	el aceite
الزيتونة (ثمرة الزيتون)	la aceituna
الزيتونة (شجرة الزيتون)	el aceituna
القاضي	el alcalde y la alcaldesa
الضيعة	la aldea

ففي « قاموس اللغة الاسبانية » (ص ١١٣) :

القائدة إمرأة القائد	alcaidesa: mujer del[1] alcaide
القاضية إمرأة القاضي	alcaldesa: mujer del alcalde

alcaldia: oficina donde se despachan los negocios en que entiendo **el alcalde.**

aceite: liquido graso... que se saca de **la aceituna;** ... El que seca de las balsas donde se recoge **el alpechin** de **la aceituna.**

alpechin: liquido de color obscuro y fétido que sale de las aceitunas... quando, al extrar **el aceite,...**

ومن كتاب « اللغة الاسبانية في أدوارها الأولى » ، تأليف رامون ميناندث بيدال[٢] :

---

(١) إنّ الأداة del منحوتة من الأداتين de و el .

(٢) El idioma español en sus primos tiempos, por Ramon Menédez Pidal (cuarta édicion), Colection Austral, España-Argentina (Espasa-Calpe) 1951.

Cuando los alfaquies... aconcejaron la destruccion... (p.37).

حينما كان الفقهاء ينصحون بإبادة . . .

Los mozarabes de Valencia juzgaban imposible su permanencia entre los almoravides (p.37).

إنّ المستعربين في بلنسية قد رأوا من المستحيل (أن يتاح لهم) بقاء بين (في حكم) الموحّدين .

La latinia era la aljamia usada en el Andalus o España musulmana (p.39).

كانت اللغة اللاتينية هي الأعجمية المستعملة (المحكيّة) في الأندلس أو إسبانية الإسلامية .

والكَلِماتُ العربيةُ التي دخلت في الإسبانية أسماء[١] وأفعال وحروف ، ثمّ دخل فيها أيضاً تعابير عربية من مثل : متوجّهين - يا الله - والله - فلان وعلّان - مهما صار - واحدة بواحدة وغير ذلك . غير أنّ هذه خارجة من نطاق البحث الذي قصدته هنا . إلّا أنّني أودُّ أن أُورِدَ هنا كلاماً في الحرف « حتّى » .

أجمع الباحثون على أن كلمة hasta الإسبانية جاءت من الكلمة العربية « حتّى »[٢] . ولقد وجد أولئك الباحثون شواهدَ على

(١) في الأسماء العربية التي دخلت في اللغة الاسبانية صفات بقيت على صيغها العربية أو قريبا من ذلك (على سبيل النسبة العربية) : amiri, gabi, hasani, gabali (جبليّ ، وحسّاني أو حسنيّ ! وشعبي وأميري) ، إلى جانب الضيع الاسبانية من الكلمات العربية نفسها : .gabalin, jabalina, etc

(٢) راجع قاموس اللغة الاسبانية (أنظر بعد بضعة أسطر) ثمّ Los arabismos (ص ٥٦ - ٥٨) الخ .

تقلُّبِ حرف الجرّ العربي « حتّى » في صُوَرٍ كثيرة - في النصوص المختلفة - قبلَ أنِ آستقرَّ الاستعمالُ العامّ المألوف على صورة hasta .

فمن هذه الصور التي وردت في تلك النصوص[١] :

adha, asta, ata, fata, ffata, ṅata, haté, hatti

ثمّ أن « قاموس اللغة الإسبانية » اقتصر على أنّ hasta جاءتْ من fasta (ص ٦٧٣) ، وأنّ fasta جاءت من fata (ص ٥٩٠) وأنّ fata جاءت من « حتّى » (ص ٥٩٠)[٢] .

وتبدّتْ للدارسين ظاهرةٌ : إذا كانت hasta الإسبانيةُ جاءت من « حتّى » العربية ، فمن أين جاء الحرف s (سين) في hasta ؟ يرى بعضُ الدارسين أنّ التاء في حتّى مشدّدة (تاء ساكنة تتلوها تاء متحرّكة) ، والتاء الساكنة في اللغة العربية تهمس (أي يوقف عليها فيخرج من بين الأسنان « نَفْثُ » يسير يسمع كأنّه سين . فلمّا كان الاسبانُ يسمعون لفظ كلمة « حتّى » كانوا يسمعون فيها هذا النفث : حتستى (ولم يكونوا يَرَوْنَ رسْمَهَا « حتّى ») فنقلوها إلى لغتهم hasta (واللغةُ - كلُّ لغةٍ - سَماعٌ ورِواية في تطوّرها قبلَ أن تكونَ قراءةً ونَسْخاً في الصحف) .

وأنا أعتقد أنّني بهِ اللَمْحَة اليسيرة قد تناولتُ أمراً ما كنت أعلمُ أنّه على مثل هذا الجانبِ من الأثر . ثم إنّني أعتقد أنّني قد وقعتُ على مبدأ ولم أقرّر قاعدةً فقط . فإلى جانب عملنا في مجمع اللغة العربية على معرفة الأشياء التي أخَذَتْها اللغة العربية من غيرها من اللغات يحسُن أن نَرى أيضاً ما أعْطَتْهُ لُغتنا إلى غيرها من اللغات .

(١) Los arabismos (٥٦ - ٥٨) .

(٢) الفاء f والهاء h تنقلب إحداهما إلى الأخرى في اللغة الاسبانية .

الغزل في الشعر العربي وما استحبه العرب من مظاهر الجمال في المرأة (*)

الغزلُ باب من أبواب الشعر العربيّ تأثّرَ بما لم يتأثّرْ به بابٌ سواه في تاريخ الأدب عندنا . إنّك لا تجد نوعاً من الشعر تقلّب به الزمنُ ، ولا هو اختلف باختلافِ الزمنِ ، كالغزلِ عندَ العرب .

كنتُ أتمنّى لو أن جميعَ مؤرّخي الأدبِ والنّقادِ في الأدب قدِ اتّفقوا على أن يجعلوا للغزلِ وللنسيبِ وللتشبيب تعاريفَ مستقلّةً . ولكنّهم قد جعلوا الغزلَ والنسيبَ والتشبيبَ بمَعنىً ثمّ اعتذروا عن ذلك بقولِهم إنّ الثلاثة متقاربةٌ في المعنى يصعُبُ التفريقُ بينها .

وأرى - تسهيلاً للبحث - أن نَفْصِلَ نحن بينَ هذه المصطلحات : نجعَلُ الغزلَ خاصّاً بِذِكْرِ الأعضاءَ الظاهرةِ في

(*) هذا الفصل هو ، في الحقيقة ، سلسلة مقالات كانت قد نشرت في جريدة « الأحرار » (بيروت) بين ٥ / ١٢ / ١٩٣١ و٢ / ٢ / ١٩٣٢ م . غير أنّ عدداً من مقاطع هذا المقال قد خضع لشيء من التنقيح حيناً ولاعادة السبك حينا آخر لأسباب كثيرة أهمّها أن النشر في الصحق اليومية يتسرّب إليه أخطاء كثيرة لا تقع حينما ينشر مقال في مجلّة أو فصل في كتاب .

المحبوب ثم بِوَصْفها وبمَدْحِها أيضاً ؛ أمّا النسيبُ فنتركُ له بثَّ الشَوْق وتذكُّرَ ماضي الأيامِ الخالية وتَمنّي التَمَتُّع المُقْبِلِ باللَّهْو .
وأمّا التشبيب فأرى أنْ أترُكَه هنا ، لأنّ التشبيبَ غيرُ واضحِ المعالم بالإضافة إلى الغَزَل والنسيب . ففي تاج العروس (الكويت ٣ : ٩٦) : « التشبيبُ : ذِكْرُ أيامِ الشبابِ ، واللَّهْوُ والغَزَلُ ، وترقيقُ الشِعْرِ بِذِكْرِ النساءِ في مَطالعِ القصائدِ ، والنسيب بالنساء . . . . » .

وإذا نحن رَجَعْنا إلى الشعرِ العربي ، منذ الجاهلية ، رأينا فيه صِفاتٍ للمرأة ـ جَرَى ذِكْرها على لسانِ الشاعر . في هذه الصفاتِ ما كان يصدُقُ على المرأةِ العربية ، وفيها ما لم يَصْدُقْ على المرأة العربية . ثمّ إنّ التشابيهَ والاستعاراتِ المتعلّقةَ بالغَزَل كانتْ تختلفُ باختلافِ الزمن . إنّ المَثَلَ الأعلى للجمال في المرأةِ كان يَتَبَدَّلُ بتبدُّلِ الأعصُرِ : فالصفاتُ المُسْتَحَبّةُ في المرأةِ كانتْ في الجاهلية غيرَ ما أصبحتْ في العصرِ الأمويّ وغيرَ ما استقرّتْ عليه مُدّةً طويلةً في العصر العبّاسي .

من أجل ذلك سيكون الغرضُ من هذا الفصلِ الطويلِ استعراضَ هذه الأعْصُرِ المتعاقِبَةِ والنظرَ في « عَقْليّة » شعراءِ الغَزَل فيها مَعَ الاهتمامِ بتلك العناصرِ التي أدّتْ إلى بُروزِ تلك الخصائصِ في أعصُرِها المخصوصة .

وإذا نحن أحبَبْنا أن نقومَ بمثلِ هذا البحثِ فالواجبُ علينا أوّلاً أن نَعْرِفَ صِفاتِ المرأة العربية (من الشعرِ الجاهليّ ، أقدمِ التُراثِ الأدبيِّ عِندنَا) ثمّ نَتَقدّمَ عصراً فعصراً نُضيفُ إلى تلك

الصِفاتِ الأولى تلك الصفاتِ التالية التي خَلَعَها الشعراءُ على المرأةِ عصراً بعدَ عصر .

- ١ -

الغزل قليل في الجاهليّة

لعلّ القارىء سيعْجَبُ كثيراً إذا قُلْتُ له إنّ الغَزَلَ (وَصْفِ الأعضاء الظاهرةِ للمرأة) كان في الجاهلية ـ أقْصِدُ في الشعر الجاهليّ ـ قليلاً جدّاً . وإذا أنا ذكَرْتُ له أسبابَ تلك القِلّةِ في أوصافِ المرأة في الشعرِ الجاهليّ ، فإنّ دَهْشَتَه ستكونُ عظيمةً جِدّاً .

كان لذلك أسبابٌ كثيرةٌ ، منها :

أ) وُجودُ الحِجابِ .

لا أقْصِدُ بالحِجاب هنا الحِجابَ الاجتماعيَّ (اتّخاذَ لباسٍ خاصٍّ يُغطّي وجهَ المرأة أو يُغطّي جميعَ جِسْمِها) ولكنّي أقْصِدُ الحجابَ الشرعيَّ الذي أقرّه الإسلام فيما بعدُ (كَشْفَ المرأةِ عن وَجْهِها وأقسامٍ من جِسْمها بينَ الرِجال ، ثمّ لِقاءَ الرجالِ مُفْرَدَةً أو في مجالسَ تدعو إلى الرِيبة) .

من ذلك مثلاً قولُ امرىءِ القيسِ :

« وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرام خباؤها . . . » وقول الأعشى :

لم تمشِ ميلاً ولم تركبْ على جملٍ
ولا ترى الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ ،(١)

(١) الكلّة (بالكسر) : ستر ينصب على الهودج أو على الفراش .

وكقول عنترةَ :

رفعوا القِبَـابَ على وجـوه أشـرقتْ
فيهـا فغيّبتِ السُهى في الفَـرْقَـدِ[1]

أو :

وقـالَ لها البـدرُ المنيـر ألا اسْفِـري
فإنّك مثلي في الكمال وفي السعد ،[2]
فولّتْ حياءً ثم أرختْ لِثَامَها . . .

أو قوله :

منـازلُ تـطلُعُ البـدورُ بهـا   مُبـرقَعـاتٍ بظُلمة الشعـر .
بِيضٌ وسُمرٌ تَحْمي مَضارِبَها   آسادُ غابٍ بالبِيض والسُمر .[3]

ومن مثل ذلك : فكَشَفَتْ بُـرقُعَها فـأشرقَ وجهُهـا . . . ومحجوبةٌ بصوارمٍ وذوابلٍ[4] ، أو قولِ عنترة : إن تُغْدِفي دوني القناع . . . كلها تدل على أن النساء كانت تُحجَبُ وتمنَعُ في الخُدور . وظل ذلك عادة حتى تأفّف منه أبو نواس (في العصر العباسي) فقال :

إذا بـارك اللهُ فـي مَلْبَسٍ ،   فـلا باركَ الله في البُـرقُعِ

---

(١) القبّة : غرفة مستورة . السها (أو السهي) نجم ضئيل النور جدّا . الفرقد (نجم القطب الشمالي) ظاهر النور جدّا . ـ أشرق وجهها بنوره فغطّى على السها وعلى الفرقد أيضا (على جميع النجوم والشمس والقمر) .

(٢) أسفري : أكشفي (عن وجهك) .

(٣) بيض وسمر (الأوليان) : النساء الجميلات . بيض وسمر (الأخريان) : السيوف والرماح .

(٤) الصار : السيف (القاطع) . الذابل : الرمح (الدقيق) .

إذن، إن السبب في قلة الغزل في الشعر الجاهلي منشأه قِلةُ مُشاهدةِ الرجال للنساء من غيرِ أقارِبِهم .

ب) أما السبب الثاني فكان نفورَ العرب من ذكر أوصاف نسائهم في شعر يسيرُ على الألْسُنِ وتَتَناقَلُهُ الرُواةُ . وفي الأدب العربي قِصَصٌ من هذا النوع كثيرةٌ ، منها غَضْبَةُ يزيدَ بنِ مُعاوية على عبدِ الرحمنِ بنِ حَسّانِ بنِ ثابتٍ لمّا ذكرَ عبدُ الرحمن في شعره أُختاً ليزيدَ ، في حديثٍ طويل .

أوصاف المرأة في الجاهلية

* أحبّ الشعراءُ (في جميع العصور) القامةَ المعتدلةَ ، ولا بأسَ في أن تكونَ القامةُ أميلَ إلى الطول ، كقولِ عمرو بنِ كُلثومٍ في معلّقته : « . . . سَمَقَتْ وطالتْ ، روادِفُها تنوء بما وَلِينا »[1] . وقال صاحب القصيدة اليتيمة (ويبدو أنّه إسلامي) : ما شانَها طولٌ ولا قِصَر . وكذلك قال الحسين بنُ مُطير (وهو إسلامي) : تطولُ القِصَار ، . . . .

* أمّا البَدانةُ في المرأة فقد أفْرَطَ الجاهليّون في مَدْحِهَا وأحبّـوا المرأة العـظيمة الجِسْم . فقـد قالَ المـرّارُ بنُ المُنقذِ العَدَويّ :

قُطُف المشي قريباتُ الخُطى   بُدّناً مثلَ الغَمام المُـزْمَخِرْ[2]

---

(١) سمق : طال . تنوء : تنهض بالحمل بصعوبة (يثقلها الحمل) . بما ولينا (بما قرب منها) : خصرها (؟) . لعلّ المقصود : خصرها ينوء (لا يستطيع الثبات فوق أردافها لثقل أردافها) .

(٢) القطوف : البطيء أو البطيئة في السير . البادنة : السمينة . المزمخرّ . الكثير الصوت (الرعد)، ويكون عادة كثيفاً ثقيلاً بطيئاً .

فهي هيفـاءُ هضيمٌ كشحُهـا ۝ فَخْمةُ حيث يُشَدُّ المؤتزر [1]

وهي بـدّاء إذا مـا أقبلـتْ ۝ ضخمةُ الجسمِ رَداحٌ هيدكِر [2]

ومن أعضاء المرأة الظاهرة : كعبها وصفه امروء القيس فقال :

هصـرتُ بفَـوْدَيْ رأسِهـا فتمـايلت

علي هَضيمَ الكَشْحِ رِيّا المُخَلْخَلِ [3].

والمخلخل موضع الخَلخال من الرجل (بكسر الراء) .

الرأس والوجه :

شعر المرأة العربية أسودُ حالكٌ كالليل على ما وصفه عنترةُ أو كالسُخام (بضم السين = ما يعلق بالقدر من بقايا الدُخان) . وليس في وصف الشَعْر في الشِعر الجاهلي إلا ما يدُلّ على أن طولَه من عناصرِ الجمال في المرأة ، فيقـول المُرقَّش الأكبـرُ « لها فرع . . » ويضيف رَبيعةُ بن مقروم أنه مُنْسدِلٌ على المَتْنيـن » ، ويقول امرؤ القيس :

« غـدائرُهـا مُسْتَشْـزَراتٌ إلى العُلى »

تَضِلُّ العِقـاصُ في مُثْنًى ومُرسَلِ [4]

---

(١) هيفاء (طويلة نحيلة) هضيم (مخصور ، نحيف) كشحها (خصرها) فخمة (عظيمة) حيث يشدّ المؤتزر (الإزار) - أي كفلاها عظيمان .

(٢) البدّاء : كثيرة لحم الفخذين حتّى يتباعد ما بينهما . الرداح (العظيمة الوركين) . الهيدكر : الكثيرة اللحم .

(٣) هصر (جذب الغصن ليقطف ثمره) . الفود : الشعر في جانب الوجه . هضيم الكشح : نحيلة الخصر . ريّا : لينة ، طرية (ممتلئة). المخلخل : مكان الخلخال من الساق .

(٤) الغديرة : الخصلة من الشعر . مستشزرة : مفتولة . العقصة (بالكسر) : العقدة في =

وربما كانت هذه الغدائرُ مجدولةً ومرسَلة على الكَتِفَيْن ، كما في قولِ المرقش الأصغر « ومنسدلات كالمثاني فواحما » .

وإذا نظرنا إلى قول امرىء القيس :

وفرعٍ يَزينُ المَتْنَ أسودَ فاحماً ۝ أثيثٍ كِقِنوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ [1]

رأينا فيه كل ما كان يتطلبه الشعراء من جمال شعر المرأة . ويظهر لنا منه أن العرب لم يميلوا إلى الشعر الناعمِ المستقيمِ ، ولا غرو فالشعر في الجنس الأعرابي سبط متموّج . وربما كانت المرأة ترسل بعضَ الغدائر من مقدمة رأسها أو فَوْدَيْها حتى قال سُويدُ بنُ أبي كاهلٍ اليَشْكُري « وقُروناً سابغاً أطرافُها » . واستحسن امرؤ القيس كَثافةَ هذه القرونُ حتى شبه بها شعر فرسه فقال « **لها غدر** (غدائر ؟ : ضفائر) كقرون النساء » !! وربما استحسن أحدهم الشعر الجَعْد .

لنكْتفِ بهذا القدر من وصف الشعر ونتنقلْ إلى وصف الوجه والوجنة ، فنرى أن أحسنَ الألوان للوجهِ عندَهم ما كان صافياً نقياً في بياضٍ مائلٍ إلى السمرة،وربما عبروا عن ذلك كله بكلمة « أدْماء » . ولا يغْرُبْ عن بالِنا الصلةُ بين الأدَمَة (السُمرة) والأديم (ظاهرِ الأرض) وآدمَ المخلوق من ترابِ الأرض . ولنأخذْ أبياتاً متفرقةً تدُلّنا على ما أحبّه الجاهليون من لونِ الوجه فنرى لزهيرٍ :

فـأمّا مـا فُـويقَ العِقْـدَ منهـا ۝ فمن أدْماءَ مرتعُهـا الخلاءِ [2]

= الشعر . المثنّى : الشعر المطوي بعضه على بعض . المرسِل : الشعر المنسدل .

(١) الفرع : الشعر . المتن : الظهر . أثيث : كثيف . القنو : العذق الجاف الذي جرّد من تمره . المتعثكل : الذي يبرز منه أشياء كأنّها تتحرّك في الهواء .

(٢) أدماء : سمراء (هنا) : غزالة .

وأمـا المُقلتـان فمن مَهـاةٍ   وللدُّرِّ المَـلاحـة والصَفـاء[1] .

وللأعشى :

ظبيـةٌ من ظِباء وَجْـرَةَ أدمـاءَ   تَسفُّ الكَباثَ تحت الهَدال[2] .

ولعنترة :

وقـد كنتَ تُخفي حب سَمراءَ حِقبَةً
فبُحْ (لانَ) منها بالذي أنتَ بائح .
بِيضٌ وسُمـرٌ تَـحْمي مضـارِبَـهـا
آسـادُ غـابٍ بـالبيض والـسُمـر .

ومن الجمال في اللون ، وهو الحُسن والملاحة ، أن يخالِطُ البياض شيءٌ من الصُفرة فيخرُجُ منها لونٌ كلون القمَر أو الدُّرِّ يُسمى أزهَرَ . ويظهر لنا أن هذا اللونَ أحسنُ الألوان على الإطلاق حتى وُصِفَ به النبيُّ ﷺ . وجاء مَدْحُ هذا اللونِ في مُعلَّقةِ آمرِىءِ القيس :

كبِكر المُقاناة البياضُ بصُفرةٍ   غذاها نميرُ الماء غير المُحَلّلِ[3] .

(١) عيناها واسعتان كعيون المها (بقر الوحش : نوع من الظباء) . الدرّ : اللؤلؤ .
(٢) وجرة اسم مكان . أدماء : سمراء . سفّ الدواء : تناوله (إذا كان جافّا) . الكباث : ثمر شجر الاراك (إذا كان ناضجاً) . الهدال : نبات طفيلي يعلق بالأشجار . - المقصود : شفاهها سمراء من تناول ثمر الأراك .
(٣) البكر : الفذّ ، الذي لم يسبق بمثله ، الفريد : المقاناة : الخلط (مزج بعض الأشياء ببعض) . البياض بصفرة (امتزج في لونها البياض والصفرة امتزاجاً بكراً ، أي ليس لغيرها مثله في الجمال) النمير : الصافي . المحلّل : (الماء) الذي ينزل بقربه أقوام كثيرون (فيصبح عكراً) .

وفي قصيدةٍ للمَرّار بن المُنقِذ :

عَبِقَ العنبرُ والمسكُ بهـا ،   فهي صفراءُ كعُرجونِ العُمُرْ[1] .

وعثرتُ على بيتٍ لِعنترة يَصِفُ فيه الخَدَّ بالوردِ (أو هكذا يبدو معنى البيت) . ولذلك عندي سَبَبانِ : أوّلهما أن الحُمرةَ في الخدّ تكون عادةً مَعَ البياض الناصع ، وألوانُ العرب « أدماء » (سمراء) في الأكثر . ثمّ أنّ الوردَ نباتٌ غريبٌ على بلادِ العرب (أو كان غريباً عنها) . ومعَ ذلك فإنّ في الشعر الجاهليّ (عندَ زهيرٍ والأعشى ، مثلاً) وصفٌ للأشياءِ بالحُمْرةِ ، كقولِ زهيرٍ في معلّقته « . . . . ورادٍ حواشيها مُشاكِهَةُ الدّمِ » . ونجدُ مثل ذلك عند الأعشى . أمّا بيتُ عنترةَ المظنونُ فهو :

فولّتْ حَياءً ثمّ أرختْ لِثَامَها   وقد نَثَرتْ من خدّها رَطِبَ الوَرْدِ

وقـد كان المستحسنَ في الخـدّ دائماً أن يكـونَ أسيلاً (طويلا ، أملس) . وقد كثُرَ وصفُ الخدّ بذلك في الجاهلية حتّى لَيَظُنُّ ظانٌّ أنه لم يكنْ في الجاهلية خدُّ رجلٍ أو خدّ آمرأةٍ إلّا على هذه الصِفة .

ومع أن الوَشْمِ كان شائعاً في الجاهلية (ولا يزالُ إلى اليومِ مألوفاً في البَدْوِ وفي القُرى) ، فإنّ عَبيدَ بنَ الأبرص يرى اليدَ الخالصةَ أجملُ من اليدِ الموشومة :

(١) عبق : لصف . العرجون : غذق النخل . العمر اسم موضع . - وهي طيّبة الرائحة ولها لون مائل إلى الصفرة جميل .

فِيهنَّ هِندُ التي هامَ (الفُؤاد) بهـا :

بيضـاءُ آنسةٌ بـالحُسن موسـومـه[1] .

وإنّـهـا كمَـهـاة الـجَـوِّ نـاعـمـةٌ

تُدني النَصيفَ بكَفٍّ غيرِ موشومه[2] .

العيون :

العيون في الشعر الجاهلي كانت توصف بالسَعَة والنَجَل (بفتح ففتح) وتستعار من بَقَر الوحش . قال امرؤ القيس :

تَصُدّ وتُبدي عن أسيلٍ وتَتّقي بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرة مُطْفِلِ[3]

ولقد جمع عنترةُ في بيتٍ واحدٍ أربعَ صِفاتٍ للعين وما يُجاورها :

أغنُّ مليحُ الدَلِّ أحورُ أكحلُ أزَجُّ نقيُّ الخد أبلجُ أدعجُ .

وإذا نحن انتقلنا إلى الحاجبِ وجَدْنا عنترةَ يَصِفُه بشكل النون فيقول « لها حاجب كالنُون فوق جفونها » . ولكن ما يُدرينا كيف كانتْ تكتَبُ النون في أيامِ عنترة.وهذا التشبيه من التشابيه التي يُمْكننا أن نَحْمِلَ به على جيميته « أشاقَكَ من عَبْلَى الخيالُ المبرج »

---

(١) لطيفة ، أنيسة (يؤنس بها) . موسومة : لها علامة (الجمال سمة ـ علامة ـ لها وحدها دون سائر النساء) .

(٢) المهـاة : بقرة الوحش (نوع من الغزلان واسعة العينين) . النصيف : الغطاء .

(٣) تصدّ : تنفر (فتدير وجهها) فيبدو (يظهر) خدّها أسيلا (طويلاً مستويا أملس) . وتتّقي (تحذر ، تخاف ، تجعل لنفسها واقياً أو حاجزاً في وجه الذي يريد الاقتراب منها) . وجرة اسم مكان . مطفل : لها طفل . إذا كانت الظبية مطفلاً كانت أشد شراسة في دفع المقتربين من جرائها (أولادها الصغار) .

ونَجْزِم بأنها منحولة . ولكنّ هذا لا يمنع من أنها قديمةٌ . وربما كان فيها ما ينطبق على الجمال الجاهلي ، فهي إذن من هذه الوجهة فقط تُفيد موضوعنا . وعلى كلٍّ فإن أحسن الجفون في الجاهلية ما كان رقيقاً طويلاً . وربمـا وُصِفتْ بالـوَطَف (بالكَثَـافة وكَثْـرة الشعر) .

وكَثُر في الشعر الجاهلي ورودُ كلمة الحَوَر (بفتح ففتح) مَعَ مشتقاتها وبذلك يَعْنون شِدّةَ سَواد الحَدَقةِ وشِدةِ بَياض سائر العين . وربما نعتت العين بالحُوّة (بضمّ فشدّ عليه فتحة) وعُنِيَ بذلك مَيْلُ حَدَقَتِها وأجفانها إلى السواد . وأعتقد أن الحوة في الأجفان اشتدادُ سَواد الأهداب (شعر الجفون) عندَ مَنابِتِها حتى لَتَظْهَرُ العينُ كأنها مكحولةٌ . والآن فقَط يمكننا أن نرى الجمالَ في بيتِ عنترةَ :

واستوكفوا ماءَ العيون بأعينٍ مكحولةٍ بالسِحر لا بالإثمدِ[1] .

ومثلَ الحَوَر وقريبٌ من الحُوّة الدَعَج .

الأنف :

كان الأنفُ في الشعر الجاهلي أقنى دائماً ، مرتفعَ وَسَطِ القَصَبة ضَيِّقَ المِنْخرينِ وعلى هذا قولُ معنِ بنِ أَوْسٍ (وإنْ كان في الصدرِ الأوّلِ من الإسلام) :

« وأُقنى كحد السيف يشرِب قبلها »[2]

---

(١) ـ جعلوا ماء عيوننا تكف (تسيل من الألم الذي نعانيه من حبّنا لهنّ من نظرنا إلى عيونهن التي كأنها كحلت بالسحر) (الفتنة ، الجمال) لا بالاثمد (بحجر الكحل) .

(٢) الأقنى (الذي يشبه القناة أو الرمح ، مستقيم) .

الثغر والأسنان والشفتان :

يصف امرؤ القيس الثغر فيقول :

بثغرٍ كمثل الأقحُوان مُنـوّر نقيّ الثنايا أشنبٌ غيرُ أثعلِ[١] .

وربما كان أجمعَ ما قيل في وصفِ الثغرِ في بيتٍ واحد قولُ المرقِّشِ الأكبر :

وذو أشرٍ شتيتِ النبتِ عذبٍ نقيّ اللونِ بـرّاقٍ بَـرودِ[٢] .

فأنتَ ترى أن الأسنان كانت على أتمِّ جمالِها وهي محدّدةُ الأطراف ، مؤشرة بخطوط متباعدة غيرُ مُتَراكِبَةٍ ذاتُ لونٍ نقيّ برّاق .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم بيتَ طرفة :

وَتبسِمُ عن ألمى كـأنّ منوَّراً تخلَّل حُرّ الرملِ دِعص له نَدي[٣]

أضفنا إلى ما تقدم صِفة اللِّثةِ فنراها شديدةَ الحُمرةِ كالرَمْلِ الخالص . ولا يُستحسنُ أنْ تكونَ مُتضخّمة . وعلى. هذا قولُ الفرزدق (وإن كان هذا القول متأخراً عصراً) :

---

(١) الأقحوان : نبات برّي بتلاته بيض تشبه الأسنان وقلبه أصفر . منوّر (بفتح الواو المشدّدة أو بكسرها) : مزهـر ، متفتّح . أشنب : أبيض ، لامـع . أثعل : متراكب ، بعضه فوق بعض .

(٢) أشر : حزّ ، فيه خطوط (كناية عن نظافته وسلامته من المرض) . شتيت : متفرّق (قليلاً) .

(٣) ألمى (فم ذو) شفتين سمراوان . منوّر (راجع الحاشية التي قبل السابقة) . تخلّل حرّ الرمل (أسنانها نابتة في لثة ـ بكسر ففتح ، بلا تشديد ـ حمراء صافية . الدعص : الجانب المكوّر من الرمل .

فمُحْنَ به عذبَ الثنايا رُضابُه ، رِقاقٌ وأعلى حيثُ رُكِّبنَ أعجفُ[٤]

أما الشِفاه فوصفت باللعَسِ (الميل إلى السُمرة) وسُمِّيَتْ لَمياءَ .

واللِّثَةُ خاصّةً تُستحسنُ حالكة اللونِ ، كما قالَ عَبيدُ بنُ الأبرصِ :

غداةَ بَدَتْ من سِتْرِها وكأنّها تُحَفُّ ثناياها بحالِكِ إثْمِدِ[٥]

العنق والنحر :

ينطبق على هذين في اللون ما ينطبق على الوجه . أما العُنُقُ فتكونُ طويلةً ، ومن أشهرِ التشابيهِ « بَعيدةُ مَهْوى القِرط » .

وقال عبدالله بن رواحة : ـ

فقد صادتْ فؤادَكَ يومَ أبْدَتْ أسيلاً خدُّها صَلْتاً وجِيداً[٦] .

وقال المُتنخِّل مثل ذلك على أن هذا لا يعني أن الطُول لا يَقِفُ عند حدٍّ . ولهذا أخبرنا امرؤ القيس عَنْ عُنيزةَ بقولِهِ :

وجيدٍ كجيدِ الرِئم ليسَ بفاحشٍ إذا هي نصّته ولا بِمُعَطّلِ[٧]

---

(٤) ماح أسنانه : جلاها بالمسواك . الرضاب : الريق ما دام في الفم . رقاق (صفة للأسنان) . أعجف : رقيق (صفة للثة) .

(٥) الاثمد : حجر الكحل . تحفّ ثناياها : يطوف حول ثناياها أو أسنانها لون أسمر قاتم (أي شفتاها) .

(٦) الأسيل : الطويل الأملس . صلت : الواسع الأملس . الجيد : العنق .

(٧) الجيد العنق . الفاحش : الكثير الطول . الرئم : الغزال الأبيض . نصّ : رفع . معطّل : ليس مزيّنا بالحلي ، أو هو جميل من غير أن يزيّن بالحلي .

هذه أبرزُ الأوصاف للمرأة العربية في الجاهلية . ومنها نرى أنّه يصعُبُ أنْ يوجَدَ اليومَ شخصٌ تتمثّلُ فيه خصائصُ العِرق العَرَبيّ كاملةً (وقد قال مثل ذلك ابنُ خلدونٍ مُنذُ ستّةِ قُرونٍ كاملة) .

ـ ٢ ـ

لا جديد في الغزل الأمويّ

ويحسُنُ قبلَ الانتقالِ إلى العصر الأمويّ أن نُوجزَ ما رأينا من صِفاتِ المرأة في العصر الجاهليّ :

الغزل في الشعر الجاهلي قليلٌ جِدّاً لسببين أولُهما وجودُ الحِجاب ممّا يمنع نساء بعض الطَبَقات من الاختلاط بالرجال ، إذا لم يمنعهن ـ عُرْفاً وعادةً ـ كلّهن ؛ وثانيهما نفورُ العرب من أن تُذْكَرَ أوصافُ نسائهم في شعرٍ يسيرُ على ألْسِنَةِ الرُواة فتصبح أوصافهم حديث السمَر .

ولكنّ هنالك من تخطّى هذا المبدأ وعَبَثَ بالعُرف فوصفها نساءً معيناتٍ ، أو تخيل صفاتٍ ظنّها المثلَ الأعلى في المرأة . ولذلك كانت المرأة في الجاهلية معتدلة القامة مستقيمتها ، بدينةً حتى لتنوءَ تحتَ لحمها . أما شعرها فكان أسودَ فاحماً ، سَبْطاً ، وربما أحبّوه جَعْداً طويلاً ، ثم رأوا أن يناقِضَ لونُ الوجه لونَ الشعر . وأحبوا من المَلاحة اللون المقاربَ للسُمرة في حُمرة شائعة في جميع الوجه ، أما الخدود فكانت طويلةً تحت جبهةٍ منبسطةٍ واسعةٍ وأما العيونُ فأحْسَنُها عندهم النجلاء الواسعة الشديدة سوادُ سوادِها والشديدةُ بياضُ بياضِها . واستحسنوا في العُنُقِ أن تكونَ طويلةً غيرَ فاحشةٍ في الطول .

وكذلك أحب الجاهليون أن تكونَ الشِفاهُ لُعْساً مائلةً إلى السُمرة ؛ والأسنان شتيتةً متفرقاً بعضُها عن بعض غيرَ متراكبةٍ ، ودقيقة . أما الأنفُ فكان أبداً أقنى كحدّ السيف مُسْتَوِيَ الأنحاء فيه شَمَمٌ .

الغزل والنسيب :

لقد جَعَلْتُ الغزلَ لوصفِ أعضاء المرأة الظاهرة والنسيبَ لبثّ الشوق وإن كان نفر من المجتهدين يَرَوْنَ أن الأمرَ بالعكس . ولكني استندت في عملي إلى ثلاثة أمور :

١ ـ العرب لم يتّفقوا على التفريق بين هذين ، ومنهم من جعل معناهما واحداً .

٢ ـ اشتهر عند المشتغلين بالأدب أن الغزل هو وصف الأعضاء .

٣ ـ إن باب النسيبِ في ديوانِ الحماسة لأبي تمامٍ لا يضم إلّا مقاطع في بثّ الشوق . فعلى هذا يُمكننا أن نعتمد هذا التفريق الذي سرت أنا عليه في القسم الأول من هذا الفصل .

* * *

الغزل الأموي :

الغزل في الشعر الأموي أقلُّ منه في الشعر الجاهلي . ثم هو الغزلُ الجاهلي بعينه لم ينقُصْ ولم يَزِد . والغزل لم يتطوّر تطوّراً محسوساً إلا في إبّان الدولة العباسية . ولذلك كنا نرى مُخضرمي الدولتين الأموية والعباسية من الشعراء لا يخرجون في تنويع غزلهم عما كان قد وَضَعه شعراء الجاهلية .

قلة الغزل الأموي :

لا شكَّ في أن الحجاب كان عاملاً قوياً في جهل صِفاتِ نساءٍ مُعيناتٍ ، وإذا اعترفنا بأن وطأة الحِجاب لم تكُنْ قويةً في الجاهلية ، فلا مَناصَ لنا مِنَ الاعتراف بخلافِ ذلك في صدرِ الإسلام وخصوصاً في الطبقات الأرستوقراطية . أما نفورُ العربِ من ذِكرِ صفاتِ نسائهم فقد زادَ في الإسلام على حُمِيّة الجاهلية حتى تقدّمَ عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ عنه إلى الشعراءِ أنْ لا يُشَبِّبَ أحدٌ منهم بامرأةٍ إلا جَلَدَهُ (الأغاني ، مصر ، مطبعة التقدم ج ٤ ص ٩٧ أسفل الصحيفة) فخاف الشُعراء ، وكان عمرُ إذا توعَّد نفّذ وعيدَه بالحرف الواحد ، فأخذ هؤلاء ينصرفون أيضاً عن الغَزَل فإذا جاشتْ عواطفُ أحَدِهِمْ في صدره صَرَفها إلى التغزل بغير النساء . وعلى ذلك قولُ حُميد بن ثَوْر :

أبى اللّهُ إلاّ أنّ سَـرْحَـةَ مـالـكٍ
على كـل أفنانِ العضاهِ تَـروقُ[١] .
فقد ذهبتْ عرضاً ، وما فوق طولِها
من السَـرْحِ إلا عَشّة وسَحـوقُ[٢] .

---

(١) السرحة : الشجرة العظيمة الطويلة (المعجم الوسيط ٤٢٧) النابتة على الماء ، وقد كني بها حميد بن ثور (ت نحو ٢٥ هـ) عن المرأة (تاج العروس ، الكويت ٦ : ٤٦٩) . مالك (بنو مالك ؟) . الفنن : الغصن . العضاهة : شجرة عظيمة . تروق : تزيد في الحسن .

(٢) فقد ذهبت عرضا (كناية عن البدانة التي تناسب الطول) . العشّة : الشجرة القليلة الأغصان والورق . السحوق : المفرطة في الطول (من غير تناسب) .

فلا الظلُّ من بَـرْدِ الضُحى تستطيعُه ،
ولا الفيءُ من برد العشيّ تذوق[١] .
سقى السَرحةَ المِحلالَ والأبرقَ الذي
بـه السَـرْحُ غيثٌ دائمٌ وبُـروق[٢] .
وهـل أنـا إن علّلتُ نفسي بسَـرْحـةٍ
من السَـرْحِ مـوجـودٌ عليّ طـريقُ ؟

بذلك نرى أن حُميداً استعاضَ عن التشبيبِ بالنساء بوصفِ الأشجار ، ولقد تجدّد مثل هذا التهديد بعدَ ذلك ، ولكن بصورةٍ أخصّ ؛ من ذلك أن أمّ البنينَ بنتَ عبدِ العزيز بنِ مروانَ استأذنتِ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ في الحج فأذِنَ لها وهو يومئذٍ خليفةٌ فقدِمَتْ مكّة ومعَها من الجواري ما لم يُرَ مثلُه حُسناً . وكتبَ الوليدُ يتوعَّدُ الشعراءَ إن ذكَرَها أحدٌ منهم أو ذكَرَ أحداً ممن معَها .

وكانتْ حميةُ الناس لا تَقِلُّ عن حمية الخليفة في هذا الشأنِ فلقد تَرَكَ لنا إسماعيلُ بن يَسارٍ النسائي ، وكان في أيام هشام بن عبد الملك ، من قوله :

ما ضرَّ أهلَكِ لو تطوَّف عاشقٌ   بفِناءِ بيتِك .أوْ ألَمّ مُسلِّما ؟
* يومَ أبْدَوْا لِيَ التجَهُّمَ فيها   وحَمَوْها لَجاجةً وضِراراً .

---

(١) الظل : احتجاب الشمس أوّل النهار . الفيء : احتجاب الشمس بعد الزوال (بعد نصف النهار) .

(٢) المحلال : المكان يقصده جماعات كثيرة . السرحة المحلال (التي يحبّ الناس الاستظلال بها) . الأبرق : الأرض المختلفة الطبيعة (فيها طين وتراب وحجارة) . الغيث : المطر . البروق : جمع برق (لأنّ المطر يكثر بعد البرق ـ البرق هو الشرارة الكهربائية التي تحيل بخار الماء الذي في الغيم ماء) .

وأمثالُ ذلك كثيرٌ يُرى في شعر المُحبين المغامرين أمثالَ عُمَرَ بن أبي ربيعةَ ووضاحِ اليمن وأبي دَهْبل . وكأنّي بسائلٍ يسألُ وهُوَ على حقٍّ في سؤاله ـ :

« لماذا تَرُدّ قِلّةَ الغزل (في الجاهلية وفي صدر الإسلام) إلى الحِجاب . وهَبْ أنّ الحجابَ موجودٌ ، أفَما كان بإمكانِ الشاعر أن يَصِفَ نساءَ أهلِهِ . ثمّ ألم يكنْ هنالك نساءٌ بَرْزاتٌ (يبرُزْنَ للرجال) بأسبابٍ مختلفة ؟

هذا السؤال صحيحٌ ، والجواب عليه سهلٌ .

لقد أراد الشاعر أن يَصِفَ جمالَ النساء ، والمرأةُ الجميلةُ عند الرجلِ هي المرأةُ التي يُحِبّها . تلك المرأةُ كانتْ محجوبةً عن مُحِبّها .

ثمّ لا يجوزُ للسائلِ أن ينسى السببَ الثانِيَ الذي قدّمْتُه ، وهو الغَيْرة على النساء من أن يُوصَفْنَ بشعرٍ يسيرُ على الألسنة .

ومن أسباب قِلّةِ الغزل في العصر الأمويّ انصرافُ الشعراء إلى أبواب أُخرى من الشعر كالمَديح والهِجاء خاصّةً ، ففي الأغاني (١٣ : ٩٨) يَجِدُ القارئُ الفِقرةَ التالية :

« حُـريثٌ من شعراءِ الـدولة الأُمـويّة ، وليسَ بمـذكـورٍ (مشهور) لأنّه كان بَدْوِيّاً مُقِلّاً (من الشعر) غيرَ مُتَصَدٍّ بالشَعر للناسِ في مَدْحٍ ولا هِجاء » .

وهنالك أيضاً سببٌ مُهِمّ جِدّاً هو نشأةُ « النقائض » (الشعر السياسيّ) الذي قام على فخر الشاعر بنفسِه وبقومه (أو حِزبِهِ)

وعلى هِجاء الشاعرِ لخصمهِ من الشعراء ولقومِ خصمه . إنّ هذه النقائضَ شَغَلَتِ الجانبَ الأكبرَ من الشعراء والجانبَ الأكبرَ من الناس ، وخُصوصاً حينما نرى كبارَ الشعراء يخوضون هذا الفنَّ السياسيّ مثلَ الأخطلِ والفَرَزْدقِ وجَرير .

ولعلّ سائلا يسأل : ألم يكن الغزل العذريّ فنّا جديدا في العصر الأمويّ ؟

الجواب على هذا السؤال واضح : إنّ الغزل العذري نسيب (أي تعبير عن شعور المحبّ نحو محبوب واحد) وأنا هنا أتناول بالبحث موضوع الغزل (وصف الأعضاء الظاهرة في المحبوب) .

نموذج من الغزل الأموي :

الغزل الأموي لا يكادُ يختلف من الغزل الجاهلي في شيء لولا بعضُ الظِلال السياسية والاجتماعية ، ولولا ما أحدثَ القُرآنُ من رِقّة في اللغة لم نَعْرِفْها من قبل حتى أنك لا تكاد تفرّق بين شاعرين أحدهما جاهلي والآخر أموي . وربما كان الشاعرُ من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ثم رأيت في شعره أثر البداوة.فما سبب ذلك ؟

لا شك في أن الزمن بين الجاهلية وصدر الإسلام كان أقصرَ من أن يُحدثَ تغييراً محسوساً في تفكير العرب وفي أساليبهم وأذواقهم ، فلقد ظلت التراكيبُ والكلمات واحدةً تؤدّي المعاني التي كانت تُؤدّيها في أيام الجاهلية . ثم أن العرب بين الجاهلية والدولة الأموية لم يختلطوا بغيرهم اختلاطاً يؤثّر فيهم ، فلقد نهى

عمر بن الخطاب الجندَ عنِ الاختلاط بأهل المدن المفتوحة . وكان العربُ أنفسهم لا يختلطون بهؤلاء ـ حتى لو كانوا مواليَ ، أي مسلمين ولكن غيرَ عرب ـ في أول الفتح .

كلّ هذا حَفِظَ للعَرَبيّ مُعْظَمَ خصائصِه القَبَليّة والفِكرية وعاداتِه الشخصيةَ والاجتماعيةَ فلم يتأثرْ كثيراً (إلى ذلك الحين) بالخصائص التي كانتْ للشعوبِ التي دَخَلَتْ في الإسلام أو دخلت في الحُكم العربي (من غيرِ أنْ تدخُلَ في الإسلام) . من أجل ذلك أصبحَ العربي مُسْلِماً في دينه ولكنّه ظلّ (إلى حدٍّ ما) جاهليّاً في لُغته وفي عددٍ من عاداته .

وفيما يلي أشياءُ من خصائصِ الغزل الأمويّ من غير تفصيلٍ . ذلك لأنّ التفصيلَ سيَحْمِلُنا على أن نُعيد أوصافَ المرأة ـ تلكَ الأوصافَ التي رأيناها في الجاهلية ـ ولكنْ بأسماءِ شعراءَ أمويينَ .

يقول ذو الرُمة :

تجلو بِمسواك الأراك مُنَظّماً عَذْباً إذا ضَحِكت تهلّلَ يَنْطِف[1]
وكأنما نَظَرَتْ بعَيْنَيْ ظبيةٍ تحنو على خِشْفٍ لها أو تَعْطِفُ[2]
وإذا تنوء إلى القيام تدافعت مثل النزيف ينوء ثمت يضعَفُ[3]

---

(١) منظّما : لؤلؤا (أسنانا) . تهلّل : تلألأ . ينطف : يقطر (ملاحة وتلألؤا) . ـ يصف فمها .
(٢) الخَشف (بالفتح والكسر والضمّ) : ولد الظبية .
(٣) النزيف : المحموم (أو السكران) . تحاول أن تقوم من قعودها فتعجز ـ لبدانتها ـ عن القيام بسهولة (وتحتاج إلى من ينهضها) .

ثقلت روادِفُها ومالَ بخَصْرِها كَفَلٌ كما مالَ النَقا المتقَصِّفُ[1]
وعوارِضُ مصقولةٌ وتَرائبٌ بيضٌ[2] . . .

ولجميل بثينة :

قـنـاةٌ مـن الـمُـرّان . . . لها مُقْلتا رِيمٍ وجِيدِ جِدايةٍ[3]

ولمالكِ بنِ الريب :

وتصطاد القلوبَ ، على مَطاها بلا جَعْدِ القُرونِ ولا قِصارِ[4]
وتَبْسِمُ عن نَقِيّ اللّونِ عَذْبٍ[5]

فأنت ترى من هذا ومما يمكن أن تُضيفه أيضاً أن هذه الأوصافَ هي تلك التي سادتْ قصائد الجاهليين . ولو أوردتُ هنا أبيات محمد بن بشير الخارجي التي يقول منها :

تجلو بقادمَتَيْ ورقاءَ عن بَرَدٍ حُمّ المشاعرِ في أطرافها أثرُ[6].

---

(١) النقا : (تلّ) من الرمل الأبيض . المتقصّف : المتكسّر (الذي يتألّف من أقسام مختلفة مجتمع بعضها إلى بعض) كناية عن كتل اللحم على جسم المرأة .
(٢) العارضة : صفحة الخدّ . التريبة : الجانب الأعلى من الصدر .
(٣) قناة : قصبة (كناية عن طول القامة النحيفة) . المرّانة : رمح صلب ولكن لدن (ينحني) . الرئم : الغزال الأبيض . الجيد : العنق . الجداية : ولد الظبية إذا بلغ ستّة أشهر وأصبح قادراً على الركض .
(٤) المطا : الظهر . على مطاها (شعر طويل) . القرن : الجانب من الشعر .
(٥) نقي اللون (أسنان) عذب : حلو (الريق) .
(٦) تجلو (تبدي ، تظهر) . قادمة : ريشة كبيرة في جناح الطير ـ ولا صلة لها هنا بالموصوف . لعلّ الشاعر يريد أن يقول إنّ أسنان المحبوبة مستوية منتظمة كاستواء الريش في جناح الطير . الورقاء : الحمامة . البرد (كناية عن الأسنان) . حمّ جمع أحمّ (أو حمّاء) : أسود : المشعر : المنسك ، والنبات والحاسّة (ولا وجه لها هنا) . أثر : علامة . ـ المعنى المقصود غامض .

خَـوْدٌ مُتَبَّلَةٌ رَيّـا مَعـاصِمِها   قدرَ النبات ، ولا طولٌ ولا قِصَرُ[1]

لَـرأيتَ أن التراكيبَ والكلمـاتِ المستعملةَ موسومةٌ بـالـطابَـع الجاهليّ . ولستُ الآن في مقام الباحثِ عن أمثلةٍ لإثباتِ هذا الرأي ، فهو جليٌّ في الفرزدق والأخطلِ وجريرٍ وجميعِ الشعراء الذين جَمَعَ لهم صاحبُ الأغاني أخباراً وأشعاراً ، حتى إنّ عُمرَ بنَ أبي ربيعةَ ما خرج على ما اتّبعوه لولا أغراضُ قصائدِه والنهجُ الذي نَهجه .

* * *

وهكذا نرى أن الشعر الأمويّ لم يختلفْ في الغزل عن الشعرِ الجاهلي ، وإن كان قدِ اختلف في نواحٍ أخرى فكانت له مَيزات بارزةٌ . وسببُ ذلك وجودُ الحِجاب ونفورُ العرب من ذِكرِ صفاتِ نسائهم في الشعر ثم انصرافُ الشعراء والناس إلى التهاجي . وقد كانت قلة اختلاط العرب بغيرهم سبباً في احتفاظهم بميزاتهم الجاهلية .

غير أننا منذ أواخر الدولة الأموية بدأنا نرى مَيزاتٍ جديدةً في جميعِ أبوابِ الشعر . وسيكون غرضُ المقالة التالية البحثَ فيما جدّ في الغزل العربي . وسنجد في الغزل العباسي نوعاً جديداً نشأ

---

(١) الخود : المرأة الجميلة . المبتّلة : (القـاموس ٣ : ٣٣٢) : الجميلة التي انقطعت بجمالها عن جميع نساء زمانها (أجمل أهل زمانها) . ريّا معصمها (اللحم المكتنز الطري عند موضع السوار من يدها) . قدر النبات (معتدلة في الطول وفي البدانة . . .) .

في الدولة الأموية ورأينا إشارة إليه في الشعر الجاهلي . ولكنه ، في أيام الدولة العباسية ، آتخذ شكلاً مختلفاً عما قصدته الشعراءُ الأمويون والشعراء الجاهليون .

وكان في العصر الأُمويّ فنٌّ واضحُ المعالم هو « الغَزَلُ العُذْريّ » . ولكنّ هذا الفنَّ كان في الأكثرِ نسيباً اختار صاحبُه أن يَقِفَ فيه سعادتَه وشقاءه على امرأةٍ واحدة . واستعراضُ نَماذجَ هذا الفنّ لا تَزيدُ في وُجوهِ الغَزَلِ التي رأيناها من قبلُ في الغزل العاديّ .

- ٣ -

الجديد في الغزل العبّاسيّ

كان الشعرُ في الجاهلية سَليقةً قاله مَنِ اشتهرَ به وقاله من لم يَشْتَهِرْ به ؛ أمّا في العصر الأمويّ فكان الشعرُ مَقْدِرَةً يأتي به الشاعرُ ثمّ لا يشتهرُ به إلاّ إذا كان فذّاً ذا تأثيرٍ في قومِهِ وتَغَلُّبٍ على خصومِهِ . وأمّا في أيامِ بني العبّاس فقد أصبحَ الشعرُ فنّاً شخصيّاً ، معَ أنّ أصحابه لم يَسْتَنْكِفوا أن يَرْتزقوا به ـ عادةٌ وَرِثوها عمّن قبلَهم وأغرقوا في آسْتِخْدامِها .

جَدَّ في الشعرِ العبّاسيّ أشياءُ كثيرةٌ سنأخذُ منها ما كان خاصّاً بالغزل لأنّ الغزلَ هو المقصودُ بالبحث هنا . غيرَ أنّني لنْ أتعدّى عصرَ المتنبّي لأنّ الشعرَ بعدَ عصرِ المتنبّي قد خطّ سبيلاً مُختلفاً لا حاجةَ بنا الآنَ إلى أن نَسْلُكَه .

الغزل الخالص :

رأينا أن الغزلَ الأمويَّ كان الغزلَ الجاهليَّ في وجوهٍ كثيرةٍ من معناهُ ومبناه ، ولكنّ الشعراءَ العبّاسيّين زادوا على ذلك الغزلِ أوصافاً كثيرةً (وخصوصاً في التشابيهِ والاستعارات) استعاروها من الشعوبِ التي جاوَروها أو كانوا قدِ آختلطوا بها كالرومِ والفُرس .

إنّ العربَ سُمْرُ الوجوهِ ، وقد كانَ من المُسْتَغْرَبِ عندهم أن يكونَ أحدُهم أشْقَرَ مثلاً . فلمّا أرادَ أبو العتاهيةِ أن يَهْجُوَ والِبَةَ بنَ الحُبابِ قال فيه من أبياتٍ :

أَتَرَوْنَ أَهْلَ البَدْوِ قد مُسِخوا   شُقْراً ؟ أما هذا مِنَ المُنْكَرْ ؟

ولكنّنا أصبحنا في العصر العبّاسيّ نَرى الوَرْدَ يَحِلُّ في الغزل مكانَ السُّمْرةِ . فَبَدَلاً من قول مسكينٍ الدارميّ (المعاصرِ للفَرَزْدَقِ) : « لَوْنِيَ السُمرةُ ألوانُ العربْ » ، يقول البُحتريّ : « على تُفّاحِ خَدٍّ أُرجواني » . ثمّ يقول ابنُ المُدَبِّرِ (في أيام الخليفة المتوكّل) :

أدموعُها أم لؤلؤٌ متناثرٌ   يَنْدي به ورْدٌ جَنِيٌّ ناضرُ ؟

وبدلاً من قولِ عمروِ بنِ كُلثومٍ : « ومأْكَمَةٍ[1] يَضيقُ البابُ عنها » ، أصبحنا نَرى في شِعْرِ ابنِ الروميّ :

ظَبْيٌ كأنّ بِخَصْرِهِ   من ضُمْرِهِ ظمأً وجوعا .

---

(١) المأكمة : الكفل (بفتح ففتح) ، جانب من مؤخّرة المرأة .

أو في شعرِ البُحتريّ :

ومَهزوزةٌ هزَّ القضيبِ ، إذا مشتْ   تَثَنّتْ على دَلٍّ وحُسْنِ قَوامِ

أمّا أبو تمّامٍ فقال قبلَهُما : « مُعْتَدِلٌ كالغُصْنِ الناضر - يا قضيباً لا يُدانيهِ مِنَ الآسِ قضيبُ - يا قضيبَ البانِ . . . » ؛ وقد رأينا مثلَ هذا الوصفِ عندَ مُسلمِ بنِ الوليد وعندَ أبي نواسٍ قبلَه ثمّ عندَ بشّارٍ قبلَهُما . وكَثُرَ عندَ هؤلاء جميعاً مثلُ قولِهِمْ : « قَمَرٌ على قضيبٍ على كثيبٍ » (في تعابيرَ مختلفةٍ ولكن في ألفاظٍ واحدةٍ) . ورأينا البُحتريَّ مُولَعاً بالقدِّ الأهيفِ والخَصْرِ النَحيل :

يُقَوِّمُ مِنْ تَثَنّيها اعتدالٌ   يكادُ يُقالُ من هَيَفٍ[1] : نحيلُ.

ولكنّ هذا كلّه لا يَعْني أن الشاعرَ العبّاسيَّ قد هَجَرَ الصفاتِ التي كانَ العربُ قد أحبّوها من قبلُ . إنّ الشاعرِ العبّاسيّ قد تَبَدّلَ في نَظَرِه إلى تلك الصفاتِ (وَهِيَ في الأصل بَدْويّةٌ) تبدُّلاً قليلاً ، فاستبقى القسمَ الأوفرَ منها ثمّ زادَ عليه ما يُوافِقُ ثَقافتَهُ الجديدةَ - إذا كان عربيّاً ، أو ثقافتَه الموروثةَ (في ظَنّه وخَياله) ، إذا لم يكُنْ عربيّاً .

لنأخذِ الأبياتَ الآتيةَ لمسلمِ بنِ الوليد :

فرعاءُ في فَرْعِها ليلٌ على قمرٍ
على قضيبٍ على دِعْصِ النَّقا الدهِسِ[2]

---

(١) الهيف : نحول الخصر .

(٢) الفرع : الشعر . فرعاء : طويلة الشعر . ليل (كناية عن الشعر) . قمر (كناية عن الوجه) . الدعص : قطعة من الرمل مستديرة . النقا : الرمل الأبيض . الدهس : الليّن .

أزكى من المِسك أنفاساً وبهجتُها
أرقُّ ديباجةً من رِقّة النفس .

* مريضةٌ أثناءِ التهادي كأنها
تخاف على أحشائها أنْ تَقطعا .
تَسيبُ آنسيابَ الأَيْمِ أخْصَرَهُ النَّدى
فرُفّع عن أعطافهِ ما ترفّعا[1] .
تأملْتُها مُفترّةً فكأنما
رأيتُ بها في سُنّة البدر مطلَعا[2] .

* وممكورةٍ رُؤدُ الشبابِ كأنها
قضيبٌ على دِعصٍ من الرمل أهْيَل[3] .

فيما تقدّمَ يمتزجُ الذوقُ الجاهليّ والذوقُ الأُمويّ بالذوقِ العبّاسيّ ، ولكنْ في رِقّة عبّاسيّة . من ذلك مَثلاً أبياتُ ابن عُيَيْنَة (في أيامِ هرونَ الرشيدِ) :

مُنَعّمةٌ لم يَغذُها أهلُ ثَلّةٍ
ولا أهلُ مِصْرٍ ، فَهْيَ هيفاءُ فاردُ[4] .

---

(١) الأيم : الحيّة . أخصره : جعله يبرد (الحيّة يكثر نشاطها بكثرة الحرّ) . تسيب انسياب الأيم أخصره الندى (تسير ببطء) . العطف (بالكسر) جانب الجسم . فرفّع عن أعطافه ما ترفّعا (؟) .
(٢) مفتّرة : مبتسمة : سنّة (طريقة ، عادة ، هيئة) .
(٣) ممكورة : (المرأة) ذات ساق غليظة . رؤد الشباب (حسنة الشباب) . الدعص : قطعة من الرمل المستدير . أهيل : قليل الثبوت ، متحرّك للينه .
(٤)يغذوها : يطعمها (يربّيها) الثلة : الصوف ، الغنم . المصر : المدينة الكبيرة . هيفاء دقيقة الخصر . فارد : منفردة (لا يشبهها أحد في جمالها) ـ هي بدوية منعّمة

وأهوتْ لِتنتاشَ الرِواقَ فلم تَقُمْ
إليهِ ، ولكنْ طأطأتْه الولائدُ[2] .
قليلةُ لحمِ الناظِرَيْنِ يَزينُها
شبابٌ ومخفوضٌ من العيش باردُ .
ترى القِرطَ مِنها في (فلاة كأنّه)
بمَهْلَكَةٍ ، لولا البُرى والمعاقدُ[3] .

من هذا نجدُ أنّ ما أُضيف إلى الغَزَل العبّاسيّ كان تشبيهَ الخدودِ بالوردِ والتُفّاحِ وتشبيهَ باقي الأعضاء في الوجه بأنواع من الأزهار والأثمار . وأحسَبُ أنّي رأيتُ الخالَ للمرّة الأولى في الشعر العبّاسيّ . من أجلِ ذلك يبدو لي أن الخالَ خاصّةٌ عربيةٌ (ولعلّهُ عاهةٌ جلدية) . وفي ذلك يقولُ الشاعر العبّاسيّ ؛ « أتحسَبُ ذاتُ الخال راجيةً ربّاً » أو « فغَنّى بذاتِ الخالِ حتّى استخَفّني » . ووَرَدَ مثلُ هذا لأبي نُواسٍ .

أمّا وصف البَنانِ (رؤوسِ الأصابع) بالتطريف (أي الخِضاب : بلونٍ أحمرَ قاتمٍ أو أسودَ) وبالتَعْنيم (بِصَبْغِها بلونٍ

(لم تربّ عند فقراء البادية فتكون عجفاء ، ولا عند أهل الحضر المترفين فتكون مبتذلة) .
(١) أومأ (أشار) إلى الشيء . انتاش : طلب ، أراد أن يصل إلى الشيء . لم تقم : لم تستطع القيام (النهوض لبدانتها) . طأطأته الولائد (جمع وليدة : فتاة صغيرة خادم) : أرخته ، خفضته .
(٢) المهلكة : المفازة (الفلاة الواسعة) . البرة (بضمّ ففتح) : حلقة (بسكون اللام) ، قرط (بالكسر) ، ما يعلّق في الأذن . المعقد : القلادة في العنق . - لولا أنّها تتزين بأقراط وبعقود لظننت أن ما بين وجهها وصدرها مسافة كبيرة .

أحمرَ) فليس جديداً في الغزلِ العبّاسيّ ، ولكنّ وصْفَها بالعُنّاب جديدٌ . وعلى ذلك فأيْنما رأيتَ الوردَ (الأحمرَ) والنِسرينَ (الوردَ الأبيضَ) والخَيْريَّ (المنثور الأصفرَ) فإنّه يكون مُستعاراً من جنائنِ الفرس لا من بَوادي العرب .

الغزل المذكّر :

من ألوانِ الغزلِ التي جَدّتْ في العصر العبّاسيّ هذا النوعُ من الغزل ، أيِ الغزلُ المذكّر . وليسَ من غايتي هنا أن أستَقْصِيَ وجوهَ هذا الغزلِ ، ولكنّي أُحِبُّ أن أُشيرَ إلى نشأتهِ الغريبة عنِ العرب ، وإلى أنّه هو تَسرّبَ إلى العرب في العصر العبّاسيّ .

وقبلَ أنْ أبدأ بسرد العوامل التي كوّنتِ الغزلَ المذكر أحبّ أنْ يُفرِّقَ القارىءُ بينَ الغزل المذكّر والغزل الذي جاء في لفظٍ مُذكّرٍ ، ولكن قُصِدَ به وصف أنثى ، وربما كان بين الاثنين علاقة .

إذا قرأتَ قصيدةً وكانت الضمائرُ والأفعالُ فيها مذكرةً فلا تحكم على قائلها بأنّه يتغزل بُمَذكّر . وإذا كانت الضمائر مؤنثة أيضاً ، فليس مِنَ الضروريّ أن يكونَ الشاعرُ يُشَبِّبُ بأُنثى ، فقد تَضْطَرّ الشاعرَ القافيةُ أَوْ تُلْجِئه الكِنايةُ إلى إخفاء شخصيةِ الموصوف . وليس آمن حينئذ في مثل هذه الحالِ مِنَ التلاعبِ بالضمائر وبالأفعال . فهاك عدداً من العناصر التي بَنَتِ الغَزَلَ المُذكّرَ في البِيئة العبّاسية أو دخلتْ في بنائه قصداً أو عفواً .

أكثر الشعراء العبّاسيّين موالٍ :

أكثر شعراء الدولة العباسية ـ على نقيض شعراءِ دولة بني أُمية

وشعراءِ الجاهلية إلّا ما ندر ـ موالٍ ، أيْ مسلمون غيرُ عربٍ . ومع أن هؤلاء كانوا قد أسلموا وتعرّبوا أو أنهم وُلدوا في بيئة إسلامية من آباءٍ أسلموا من قبلُ ، فقد ظلّوا يميلون إلى ثقافتهم القديمة ، وكان بعضُهم يفتخر بها ويفاخر بها العرب . واشتد ساعدُ الموالي في الدولة العبّاسية ونافسوا العربَ حتى سادوهم في زمنٍ ، فإذا العرب أنفسُهم يُقبلون على الثقافة الأجنبية ـ والفارسية خاصة ـ بعدَ أن كانوا قبل جيلٍ من الدهر يستنكفون أنْ يختلطوا بالموالي . ولا عجبَ إذا رأينا صفاتٍ أجنبيةً . فارسيةً وروميةً أو قِبطية أو زَنجية ـ تتسرّب إلى الغزلِ العربي ، وأسبابُ الغزلِ يومذاك كانتْ أجنبية والحاناتُ لا يُديرها غيرُ الأجانبِ . أما القِيان فكُنّ منهم فتعوّد الشعراءُ العباسيون ، حتّى العربُ الخُلَّص منهم ، أن يتذوّقوا الجمالَ الغريبَ فكثُر التغزل بغير المسلمين .

التغزل بغير المسلمين :

ليس في أن يتغزلَ الشعراءُ المسلمون بغير المسلمين والمسلمات ما يدعو إلى الدَهْشة أو إلى الغرابة ، ولكنّ الذي يَلْفِتُ النظرَ أن يصْحَبَ هذا التغزُّلَ صُوَرٌ غيرُ إسلامية لا يُنتظر من شاعرٍ مُسلمٍ أن يتقبّلها . غيرَ أنّ المهمّ هنا ـ من الناحية الأدبية ـ أنْ يكون جمالُ الغزلِ في الصورة التي يستخرجها الشاعرُ ثم يجعلها أساساً في جمالِ حبيبه ، حتى لَيُخَيِّلُ إليكَ أن الجمال ليس في المحبوبِ ، ولكنْ في تلك الصورة وحدَها . من هذا قول بكرِ بن خارجةَ ، وكان معاصراً لأبي نواس :

زِنّارُه في خصْرِه معقودُ ... كأنه من كَبِدي مقدود .

وكان الزُنارُ شارةً يُعْرَفُ بها غيرُ المسلمين آنئذ . وإليك هذه الصورةَ من شعر عبدِالله بنِ العباس بن الفضل بن الربيع (عباسي) .

وغزالٍ مكحَّلٍ ذي دَلالٍ ساحرِ الطرف سامِريّ عروسي[1]
قد خَلَوْنا بطِيبةِ نَجْتليه يومَ سبتٍ إلى صباح الخميس .
يتثنّى بحُسْنِ جيدِ غزالٍ وصليبٍ مُفضَّضٍ آبنوس .
كم لَثمتُ الصليبَ في الجيدِ منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشُموس .

(الأغاني - مصر مطبعة التقدم ١٧ : ١٢٩) . وعلى الصفحة السابقة نجدُ البيتين الآتيين : -

يا شادناً رام إذ مرّ في الشعانينِ قتلي[2] ،
تقول لي كيف أصبحـ (م) ـت ؟ كيفَ يُصبح مثلي ؟

الغزل المذكّر دخيل على العرب :

انصرف نفر من الشعراء العبّاسيّين إلى التغزّل بغير العرب لاحتكاكهم بهؤلاء . فأنت ترى لأبي نواس مثلاً :

وغزالٍ من بني الأصفر معصوبٍ بتاج ،
شخصُه مني بعيدٌ ، وهو مني كالمناجي[3] .

---

(١) سامريّ (من السامرة ، السمرة ، السامريّين : قدماء اليهود) : غير مسلم . عروسي (يشبه العروس ، في ذروة شبابه وجماله وزينته) .
(٢) الشادن : الغزال الصغير . الشعانين (عيد نصراني ، في الربيع) .
(٣) المناجي : الذي يكلّمك سرّاً . - يبدو أن المناجي (هنا) الهمّ الملازم للإنسان (؟) : مع أنّ المحبوب قريب من المحبّ ، فإنّ المحبّ لا ينال غايته .

ولأبي تمام :

أنا ميْتٌ ، ولئن مِتُّ لمن حُبّي أموتُ
لغزال من بني الأصفر فيه جَبَروت[1] .

وقالت عَرِيب (بفتح العين وكسر الراء) المغنية : -

بأبي كلُّ أزرقٍ أصهبِ اللون أشقرِ[2] .

وفي هذا المقام يجب ألّا ننسى قصيدةَ ابن الرومي التي يقول منها :

من بناتِ الروم لا يَكْذِبُنا لونُها المُشرقُ عن مَنْصِبها[3] .

والروم أو بنو الأصفر همُ اليونان . وإذا نحن راجعنا مُجون أبي نواس رأينا شيئاً من التغزل بالفرس،ولكنه على كلّ حالٍ قليلٌ فيما رأيتُ أنا وقد يكون الصواب غير ذلك ، وربما استقل الروم (اليونان) بالشعر الغَزَلي واستقلت فارس بالخمرياتِ .

الغزل المذكر الغير المقصود :

يقول طَرَفَةُ بنُ العبد في مُعلّقته :

وفي الحيّ أحوى يَنفِض المَرْدَ شادنٌ
مُظاهرُ سِمْطَيْ لُؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ[4] .
وتَبسِمُ عن ألمى كأنَّ منوّراً
تخلّل حُرّ الرملِ دِعْصٍ له نَدي[5] .

---

(١) الجبروت : القوّة ، القهر .
(٢) أزرق (العينين) أصهب : أحمر (الشعر) أشقر (اللون) .
(٣) - لونها اللامع (بالبياض) يدلّ على منصبها (مكانتها ، نسبها) في اليونان .
(٤) و (٥) راجع ، فوق ، ص ١٩٠

ترى مما تقدّم أن البيتَ الأول مذكرُ اللفظِ ، ولكنّ سِياقَ المُعلّقة والانتقالَ إلى اللفظِ المؤنّث ـ وأعتقد أن الوزن هنا اضْطَرَّ طَرَفَةَ إلى ذلك ـ يَدُلّان على أنّ الموصوفَ أُنثى ، وإنْ كان لفظُ البيتِ مُذكراً .

الأبياتُ الآتية لِعُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ يَصِفُ أُنثى في لفظ مُذكّر :

ولـقـد كـان آهِـلاً فـيـه ظـبـيٌ مُـبـتَّـلُ[1] .
طـيّـبُ الـنَّـشْـرِ واضـحٌ أحـورُ الـعـينِ أكـحـلُ[2] .
فـبِـمـا بـانَ أهـلُه لَـبِـمـا كـانَ يُـؤهَـلُ[3] .
إذ فـؤادي بِـزَيْـنَـبٍ أمْ يَـعْـلـى مُـوكَّـلُ[4] .

ولعمرَ أيضاً :

صـادَ قـلـبـي الـيـومَ ظـبـيٌ مُـقـبِـلٌ مـن عَـرَفـاتِ[5] .
فـي ظـبـاءٍ تـتـهـادى عـامِـداً لـلـجَـمَـراتِ[6] .
وعـلـيـه الـخـزُّ والـقـزّ ووَشْـيُ الـحِـبَـراتِ[7] .

---

(١) آهل (بيت) مسكون ، (فيه سكّانٌ) . مبتلّ (فريد الجمال) .
(٢) النشر : الرائحة . واضح : أبيض . أحور : شديد بياض المقلة وشديد سواد البؤبؤ . أكحل : أطراف جفونه سوداء .
(٣) إذا كان أهله قد بانوا (ابتعدوا ، انتقلوا) ، فلطالما كانوا يسكنون هنا (قربنا) .
(٤) موكّل : وكيل عليها ، لا يفارقها ، لا يفارق ذكرها .
(٥) عرفة (بفتح ففتح) وعرفات (هضبة يقف عليها الحجّاج) ، وهي أعظم مناسك الحجّ .
(٦) تتهادى : يسرن متمايلات . عامد : قاصد . الجمرة والجمرات : المحصّب (مكان الرجم ـ من مناسك الحجّ) .
(٧) الخزّ والقزّ : الحرير . الوشي : الزخرف . الحبرة (بكسر ففتح) : ثوب مخطّط ناعم .

إنّـنـي لـسـتُ بـنـاسٍ ذلـك الـظـبيَ حَـيـاتـي

ولسعيدِ بنِ حُميدٍ (وهو عباسي) في جاريةٍ :

مـا عـلـى أحـسـنِ خـلْـقِ الـلّهِ أنْ يـحـسُـنَ فِـعْـلُهْ ؟
بـأبـي أنـت وأمّـي مـن مـليـكٍ قـلّ عـدلُـهْ ،
وبـخـيـلٍ بـالـهـوى لـو كـان يُسلي عنه بُخله[1] .

وقد يُضطرّ الشاعرُ أحياناً إلى أن يستعيرَ من مُذكّر فيعمَدُ إلى لفظٍ مُذكّر ثم يَلْتفت فيأتي باللفظِ المُؤنّث كالقول الآتي :

ماذا يريدُ السَّقامَ من قمرٍ كلُّ جمالٍ لوجهه تَبَعُ ؟
ما يرتجي ـ خابَ ـ من محاسنها ؟ أما له في القِباحِ مُتَّسَعُ ؟

الغزل في المديح :

المديحُ بابٌ واسعٌ من أبوابِ الشعر . وأحبّ الشعراءُ العباسيون أن يزيدوا في ألوانه فرأوْا أنّ المدحَ بالجُود والبطش والسُلطان والمجد والنسَب أصبحتْ مُبتَذَلَةً ، ففتحوا بابَ المديح بالغَزَلِ . وإليك ما قالَه الزُبيرُ بنُ دَحمانَ في مدحِ هرونَ الرشيدِ (الأغاني ١٧ : ٧٤)

وأحورَ كالغُصن يشفي السَّقامَ ويحكي الغزالَ إذا ما رَنا[2]
شَرِبْتُ المُدامَ على وَجْهِهِ وعاطَيْتُه الكأسَ حتى انثنى[3]
وقلتُ مـديحـاً أُرَجّي بـه من الأجرِ حظّاً ونَيْلَ المُنى[4]

---

(١) يسلي عنه : ينسيني إياه .
(٢) رنا : نظر ، تطلّع .
(٣) عاطيته : شربت معه (من كأس واحدة) . انثنى : مال (من النعاس أو السكر) .
(٤) المنى (لعلّها الجنى : التمرة ، نيل المطلوب) .

وأغني بـذاك الإمـامَ الـذي   به اللّهُ أعطى العِبادَ المنى .

ولقد رأينا شيئاً قريباً من هذا في العصر الأُمَويّ ، قال عُويفُ القوافي يمدح عبدَ الرحمنِ بنَ محمدِ بنِ مَروانَ :

غـلامٌ رمـاه الله بـالخيـر يـافِعـاً   له سِيمياءُ لا تشقُّ على البصرْ [١] .
كـأنّ الثُـريّـا عُلِّقتْ في جَبينـهِ ،   وفي خدّهِ الشِعْري وفي جيده القمرْ [٢] .

وهذا وصفٌ بريء . ومثلُه وصفُ تأبّطَ شرّاً الجاهليِّ في غلام قَتَله (يراجع في الأغاني : تأبط شراً) . وللنابغة :

هـذا غُـلامٌ حسَنٌ وجهُـه   مُستقبِلُ الخير سريع التمامْ
للحارث الأصغر والحارث الأعـ...ـرج والأكبرِ خيرِ الأنامْ .

التأثير الأجنبي :

إنّ الغزلَ المذكّر في الشعر العباسي لم يكنْ هذا فحَسْبُ ، بل كان أيضاً إظهارَ عاطفةٍ شاذّة غيرِ طبيعية . ولكنّ هذا الميلَ ليس عربيّاً بدليلِ فِقدانِه في الشعرِ الجاهليّ والشعرِ الأُموي . فمن أين تسرّب هذا الغزل المذكر إلى الشعر العباسي ؟

لا شكّ في أنّ الصُوَرَ التي أوحتِ الغزلَ المذكر كانتْ موجودةً في البِيئة العباسية ، وعلى الأخصّ في مراكزَ خاصةٍ

(١) سيمياء : هيئة ، شبه . لا تشقّ على البصر : لا تتعب البصر (له صورة جميلة) .
(٢) الثريّا مجموع نجوم . الشعري نجم لامع . الجيد : العنق .

كضواحي العاصمةِ في الحاناتِ السِرّية ، « وكُلُّها كانتْ كذلك » ، وفي أسواقِ النِخاسة ورُبّما في الشوارع أيضاً . فمنْ هُمْ أصحابُ هذه الصور ؟

إذا اعتمدنا الشعرَ العباسيَّ وأخبارَ البِيئة العباسية رأينا الرومَ (اليونان) والفُرس (العَجَم) أبطالَ اللّهوِ وتُجّاره . فالصُوَرُ التي أوحتِ الغزلَ المُذكّر - والغزلَ المؤنث المُتهتّكَ - لم توجَدْ - على الأقلّ بهذه الكَثْرة - إلّا بعد أن شاعتِ الثقافةُ اليونانيةُ والثقافةُ الفارسية في بَغْدادَ وضواحيها . أمّا فيما يتعلّق بالروم فحَسْبُنا أنْ نعلَمَ أن الغزلَ المذكّر يُعْرَفُ في الكتب الأوروبيّة باسم الحُبّ اليوناني (الرومي) . ولقد كان في بيئاتِهِمُ الراقيةِ أيضاً حتّى قِيل له الحب الأفلاطوني ، نِسبةً إلى فيلسوفِهِمُ المشهورِ أفلاطونَ . وإذا كان نفرٌ من مؤرّخي الفلسفة عندهم يُريدون أن يفسّروا « الحبّ الأفلاطونيّ » بأنّه حبٌّ عفيفٌ مِثاليّ ، فإنّ هؤلاء أنفسَهم لا يستطيعون أن يُنكِروا أنّ هذا الحبّ بمعناه الماديِّ كان موجوداً عند اليونان في كلِّ مكانٍ وفي مدرسةِ أفلاطونَ نفسِها . ويذكُر إخوانُ الصفا أن هذا الحبّ كان عند اليونان ضَرورةً من ضَروراتِ التعليم في النظامِ اليونانيّ . ولقد ألِفَتِ البيئةُ اليونانيةُ هذا الحبَّ حتّى كان أهلُها يستغربون أنْ يتعفّفَ الإنسانُ عنه . لمّا تَعرّضَ غُلامٌ فارسيٌّ جميلٌ لأغيسيلاوس (الثاني - ملك سبارطة ؟) في الطريقِ العامِّ فأبى أغيسيلاوس أن يَقبَلَه ، كان هذا التعفّفُ مِنْ أغيسيلاوسَ شيئاً غريباً نادرَ الوقوعِ بين اليونانيين حتّى إنّ مُؤرّخيهم نوّهوا بذِكْرِه في كُتُبِهِمْ وعدّوه أُعجوبةً من الأعاجيب . ولمّا دَرَسَ المؤرّخُ الإنكليزيُّ أدوردُ غيبونَ في كتابِهِ القيّم الواسع المشهور « تَقَهْقُرَ

الإمبراطورية الرومانية وسُقوطها » عدّ الفاحشةَ (هذا الغَزَل المُذكّر) سبباً من أسبابِ سقوطِ تلك الإمبراطورية ، بعدَ أنْ أشارَ إلى انتشارِ هذه الصورة القبيحةِ في أثينا وروميةَ انتشاراً واسعاً .

ثمّ أنّ الفاحشةَ انتقلتْ إلى العصر العبّاسيّ من الفُرس . فقد كان الجاحظُ قد ذَكَرَ في « كتاب المعلّمين »[1] مَقْطعاً أورده حمزةُ الأصفهانيُّ[2] لمّا شَرَحَ حمزةُ الأصفهاني ديوانَ أبي نُواسٍ[3] فقال :

« .... إنّ الشعراءَ قاطبةً من أيّامِ مولدِ الشعرِ قُبيلَ الإسلامِ إلى آخرِ بني أُميّةَ كان تشبيبُهم بالنساءِ لا غيرَ ، إذ كانتْ دواعي عِشْقِهِمْ من جهة النساء . فلمّا أقبلتْ دولةُ المُسوِّدةِ[4] من الشرق مَعَ أهلِ خُراسانَ أُحْدِثَ فِيهِمُ اللِّواطُ لارتباطِهِمُ الغِلمانَ فشَبَّبَ شعراءُ الدولة بالذُكران . وكان لحُدوثِ هذه الفاحشةِ سببٌ حكاه الجاحظُ في كتاب المعلّمين ، زَعَمَ .... أنّ السببَ الذي أشاعَ اللِّواطَ في أجنادِ خُراسانَ خُروجُهم في البُعوث[5] مَعَ الغِلمان[6] ، وذلك لتَعَذُّرِ اصطحابِ النساء والجواري حين سَنَّ أبو مُسلمٍ[7] صاحبُ

---

(١) كتاب المعلّمين للجاحظ مفقود .

(٢) حمزة بن حسن الأصفهاني (ت ٣٦٠ هـ ـ ٩٧٠ م) مؤلّف مكثر .

(٣) مخطوطة في مكتبة برلين الوطنية ، رقم ٧٥٣٢ . راجع « أبو نواس » للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٨٥ .

(٤) أنصار الدعوة العبّاسيّة الذين اتّخذوا « السواد » شعاراً لهم (لونا لعلمهم وثيابهم) .

(٥) البعوث : الجيوش المرسلة إلى القتال .

(٦) الغلمان (هنا) الخدم .

(٧) أبو مسلم الخراساني الرئيس الظاهر للدعوة العبّاسية .

الدولة في تلك العساكرِ ألّا يَصْحَبَها النساءُ خِلافاً على جُند بني أميّة في إخراجِهِمُ النساءَ معهم في العساكر[1] ، ولم يكن لهم (بدّ) من غلمان يخدمونهم[1] .... » .

وأمّا الحَلْقَةُ بينَ البِيئةِ الرومية والبيئة العربية فكانت الصورَةَ الأولى للفاحشةِ في الأدب العربي ، في مُنتصفِ الدولة الأمويّة . قيل إنّ خالداً القَسْريَّ[2] كانتْ أمُّه روميّةً ، وكان هو غُلاماً مُؤنّثاً يُصاحِبُ المُغنّين والمُخنّثين . فلمّا شَبَّ رُمِيَ (اتُّهِمَ) بإحدى صُوَر الغزلِ المذكّر . ثمّ عيّره أعْشى هَمَدانَ[3] ، فوق ذلك ، بأمّه (الأغاني) .

وصِناعةُ الغزل المذكّرِ كانتْ في العصر العبّاسي مِن اختصاص الروم ومن اختصاص الفُرس البارسيّين (المَجوسِ الذين لم يدخلوا في الإسلام) . غيرَ أن في ديوان أبي نُواسٍ[4] أبياتاً رُبّما دلّتْ على أن نفراً من العرب كانوا يَبيعون الغَزَلَ المُذكّر على الراغبين فيه . كما يمكنُ أن نَرَى من قولِ أبي نُواسٍ (إلّا أن يكونَ هذا القولُ تشبيهاً مَحْضاً) :

---

(١) العساكر : الجيوش . أراد أبو مسلم من أتباعه أن يخالفوا الأمويين الذين كان شعارهم البياض في كل شيء .

(٢) خالد بن عبدالله القسري (ت ١٢٦ هـ ـ ٧٤٣ م) أحد ولاة الأمويّين تولّى مقاطعات كثيرة . وكان يرمي بالزندقة . هجاه الفرزدق .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبدالله بن الحارث (ت ٨٣ هـ ـ ٧٠٢ م) قارىء (للقرآن) فقيه شاعر ، خرج في الغزو مرارا ، وقاتل الحجّاج بن يوسف مع عبد الرحمن بن الأشعث . ثمّ جيء به أسيراً إلى الحجّاج فقتله الحجّاج .

(٤) الديوان (طبعة آصاف) ٢٩٧ .

نـازَعْتُهم قهـوةً صفـراءَ صـافيـةً
بشـادنٍ خَنِثٍ كالغُصْن ميّـاسِ[1] ،

مُخنّثِ اللفظِ يَسْبيـني بمُقْلتـه
مُقَرْقَطٍ قُرَشيٍّ الـوجهِ عبّـاسي[2] .

كـأنّ إكـليـلَه تـاجُ ابـنِ مـاريـةٍ
إذ راح مُعْتَصِباً بالـورد والآسِ[3] .

وقد يُغنّيكَ من سُكْرٍ ومن طَرَبٍ ،
والكأسُ تختالُ من ساقٍ إلى حاسِ[4] .

فإذا نحن قَبِلْنا أن يكونُ الغُلامُ الموصوفُ في هذه الأبياتِ عربيّاً ، فلا يَعدو ذلك أن يكونَ حالاً شاذّةً لأنّ باعةَ اللهو وأصحابَ أماكنِ اللهو كانوا في العصر العبّاسيّ (وما يزالونَ إلى اليوم) من الأجانبِ ، ومِنَ الرومِ (اليونانيّين على الأخصّ) .

(١) القهوة : الخمر . الشادن : الغزال الصغير . الخنث (الذي فيه أشياء من صفات النساء) . الميّاس : المتمايل .
(٢) مقرقط : يضع في أذنيه أقراطا .
(٣) الأكليل شيء مضفور (مجدول) يوضع على رأس الفائزين أو الأبطال . مارية بنت أرقم بن ظالم كان لها قرطان ثمينان جدّا . اعتصب : شدّ على رأسه عصابة (بالكسر) .
(٤) ساق : ساقي الخمر . الحاسي : الذي يحسو (يشرب) الخمر .

- ٤ -

الرقّة والكناية في الغزل العبّاسيّ

الترف :

كان العصرُ العبّاسيّ عصرَ رَفاهيةٍ وتَرَفٍ ، فغلَبَ الترفُ والرفاهيةُ على جميعِ ألوان الحياة الأُخرى - في الطَبَقاتِ العالية من المجتمع ، على الأقلّ . ثمّ إنّ الرفاهية والفراغَ يدفَعانِ المرءَ إلى اللهو الباطل . وكلّما ارتوى الذوّاقُ (المتذوّق) من لَوْنٍ من ألوان اللهو دَفَعَه فُضوله إلى الرغبةِ في اختبار لونٍ آخرَ جديدٍ . فمن أجل ذَيْنِكَ التَرَفِ والفَراغ - عندَ نفرٍ من الناس - أصبحَ اللهوُ لوناً غالباً على البيئة العبّاسيّة .

الأوزان والقوافي :

يلاحظُ القارىءُ من بعضِ الأمثلة التي وردتْ وتَرِدُ في هذه الفصول أن الشعراءَ العباسيين أُولِعوا بالأوزان القصيرة المجزوءة والقوافي المتنوّعة.وأنا لا أقولُ إنّ الأقدمين لم يستعملوا هذه ، إنهم استعملوها ولكنْ ليس إلى هذا الحد . ولقدِ استعملوا ذلك على الأغلب في الغزل والنسيب . قال أبو نواس :

وذاتِ خـدٍّ مُـورَّدْ فـتـانـةِ الـمـتـجـرِّدْ[1]
تـأمّـلُ الـعـيـنُ مـنـهـا محـاسنـاً ليس تنـفَـدْ .
فـالحُسـنُ في كـلّ جُـزءٍ مـنـهـا مُـعـادٌ مـردَّدْ :
فـبـعـضُـه في انـتـهـاءٍ وبـعـضـه يـتـجـدّدْ .

(١) المتجرّد : الجسم إذا نزعت عنه الثياب .

وللبحتريّ :

أيها العاتبُ الذي ليس يَرْضى   نَمْ هنيئاً فلستُ أُطْعَمُ غَمْضا

ولأبي نواس أيضاً في بحر قصيرٍ وقافيةٍ نادرة :

أكذا سريعاًصارَ حبلُكَ سيدي ، مُتَنَقِّضا[1] :

أَبْغضتني ، يـا سيـدي . . . .

الغزل العباسي

الرقة والعذوبة

الكَلِماتُ التي شاعتْ في العصر العباسي هي غيرُ تلك التي كانت منتشرةً في الأعصرِ التي سبقته.ويظهرُ لنا أن الشعراءَ الفنانين - على جَواز استعمال هذه الكَلِمَةِ لرجالِ الفنّ ، وقدْ وُضِعَتْ لِحُمُرِ الوحش - استساغوا كَلِماتٍ معينةً نَظَموها في قصائدهم ولكن لم يحشُرْ أحدُهم في بيتِهِ كُلَّ كَلِمَةٍ مرتْ في ذاكرته ، بل كان ينتخبُ المُفرداتِ انتخاباً ثمّ يقرِّبُ التركيبَ ما أمكن من عاطفة الناس وأفهامهم .

غير أن هذا لم يكنْ قاصراً على الغزل ، ولكن شاع فيه أكثر منه في كلِّ بابٍ آخر من الشعر . فجاء جانبٌ من ذلك الغزلِ شعراً مطرباً مرقصاً . من ذلك أبيات العباس بن الأحنف التي يقول منها :

(١) الحبل (كناية عن المواصلة ، المعاشرة) . متنقِّضا (يقصد الشاعر.منتقضاً - بتقديم النون على التاء) إذا فسد الحبل بعد إحكام فتله (صار ضعيفا) : بطلت صداقتك لي .

وكـانـت جـارةً لـلحُـور   في الفِـرْدَوْسِ أحقـابـا[1]

لـهـا لُـعَـبٌ مُـصـفّـفـةٌ   تُـلقّـبـهـنّ ألـقـابـا

تُـنـادي كُـلّـمـا رِيـعَـتْ   من العِـزة : يـا « بـابـا »

وللسريّ الرفّاء :

أظبـاءُ وَجْـرةَ أقْصـدَتْـكَ   بسحـر أجفـانٍ فـوائـرْ[2]

جَنَتِ الـهـوى وتـنـصّـلـتْ   باللحظ من تلك الجرائرْ[3]

لأُخـاطِـرَنّ ؛ وما المُـنـى   في الحُبِّ إلا للمخـاطـرْ

ولأُوضِـحَـنّ صَـبـابَـتـي   بالدمع في الدِّمَنِ الدواثرْ[4]

تـاللهِ ، أغـدِرُ بـالـهـوى،   مـا دُمت مُسودّ الغدائـر[5]

هذهِ أبياتٌ إذا أحبَّ أحدٌ أن يُفَسِّرَها عَجِزَ ، لأنّه لا يَقْدِرُ أن ينقُلَ فكرةَ الشاعر إلى القارىء من طريقٍ أسهلَ من الطريق التي سَلَكَها ذلك الشاعرُ في تلك الأبيات : كَلِماتٍ فصيحةً (سهلة على الفَهْم) وتراكيبَ بليغةً (قَدْرَ الإمكان) . أمّا الأبياتُ نفسُها فَهِيَ

(١) يقصد الشاعر أن ابنته كانت (قبل أن تولد) ساكنة مع الحور العين (نساء الجنّة) في الفردوس (الجنّة) ، كناية عن جمالها وطيب نفسها . الحقبة (بالكسر) : المدّة الطويلة من الزمن) .

(٢) وجرة اسم مكان تكثر فيه الظباء . أقصد السهم الرجل : أصاب منه مقتلا . الفاتر : الناعس .

(٣) جنت (تلك الظباء ، أو عيون تلك الظباء : النساء الجميلات) الهوى (أي أوقعتنا في الحبّ) . ثمّ تنصّلت : (تبرّأت) باللحظ (أي ظهر في عيونها طفولة تدلّ على براءتها) . الجريرة : الذنب (الجناية ، الجريمة) .

(٤) وسأدلّ على شدّة حبّي بالاستمرار في البكاء على الدمن (دمنة بالكسر : مكان الدار) . الداثر : الذي تهدّم وامّحت آثاره .

(٥) يقسم بالله أنّه لن يغدر في الهوى (لن يبطل حبّه) . بعد القسم تحذف « لا » النافية من الجملة . الغديرة : الضفيرة (الشعر) . مسودّ الغدائر : شابّ .

مُرقصةٌ تهُزّ العاطفةَ . ولكنْ ألَمْ تُوجَدِ الرقّة في الشعر القديمِ (الجاهليّ والأمويّ)؟ بلى ، ولكن ليس إلى هذا الحدِّ .

التهتك في صور الغزل

لو رَجَعْنَا إلى الشعر القديم : « إلى الشعر الجاهليّ » والشعر الأموي أيضاً ، لرأينا شيئا من التهتّك في صُوَرِ الغزل ، ولكن إلى حدٍّ ما من الشيوع . أما أبواب المُجون ، التي هي في الحقيقة أقسام من الغزل والنسيب ، فكانت واسعة في العصر العباسي ؛ وحسبك أبو نُواسٍ وزملاؤه دليلاً على ما أريدُ .

الكناية :

الكِنايةُ (هنا) ألاّ يُصَرِّحَ الشاعرُ باسم الحبيبِ الذي يتغزّل فيه . وهذا مسلَكٌ للشعراء قديمٌ ، منذُ آمرِىءِ القيسِ ، ولكنّه شاعَ في العصر العبّاسيّ ثمّ آختِيرَتْ له كَلِماتٌ خاصّةٌ به . ومِنَ الغريبِ أن التهتّكَ في الأقوال والأفعال كان بارزاً في العصر العبّاسيّ ثمّ يأتي الشاعرُ المُتَهتّك في جوانبَ كثيرةٍ من حياته فيَحْرِصُ على أنْ يكتُمَ اسم محبوبه في قصائدِه (كما كان يفعَلُ نفرٌ كثيرون من شعراءِ الجاهلية وصدرِ الإسلام) .

لنقرأِ الأبياتَ الآتيةَ لأبي نُواسٍ ففيها صورة كاملة عن الكِناية :

طَفْلَةٌ كـالغـزالِ ذاتُ دَلالٍ   فِتنةٌ في النِقابِ والإسفار[1] .

(١) طفلة (بفتح الطاء) : ليّنة . النقاب : اللثام ، غطاء الوجه . الأسفار : الكشف عن الوجه .

أتـمنّى ومـا يَكَـفِّي مـنهـا   غيرُ مُطْلٍ وغيرُ سوءِ انتظار .
ثم قالتْ:« جَهرْتَ بِآسْمِي في الـ   ـشعرِ،فهلّا كَنَيْتَ في الأشعار »
قُلتُ:« إن الهوى إذا كان بالصَّـ   ـبِّ وَهَى قلبُه عن الإسرارِ[1] .
أنا جارٌ لكم قريب ، ولكن   ليس يُغني لديك حقُّ الجِوار ».

وهناك قولُ النابغة الجَعْديّ :

أكْني بغيرِ آسمِها ، وقد علِمَ اللـ   ـهُ خفيّـاتِ كُـلِّ مُكْتَتَمِ .

ولقد اتّخذ الشعراء للكنايةِ ألفاظاً كثيرةً كانتْ شائعةً منذُ العصرِ الجاهليّ . من هذه الألفاظِ : يا ابنَ عمّي - يا أختَ فُلان - يا حياتي وسُؤلي . . . . الخ . ولكنْ لِنأخُذْ من ألفاظِ الكِنايةِ لَفْظين شاعَ استعمالُهما وتنوّعَ ما تدُلّان عليه ، وهُما « سيّد » و« مولى » وما يُشْتَقُّ مِنهما .

هاتانِ الكَلِمتان لم تظهرَا في هذا الاستعمال إلّا في العصر العباسيّ على ما رأيت أنا ؛ لقد قرأت لِعُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ في بيتٍ كلمةَ « مولاة » ، ولكنْ كانتْ بمعنى جارية . ثم آستُعمِلت أيضاً ، ومَعَها كَلِمةُ سيد للدَلالةِ على ما وُضِعَتْ له في اللغة .

غير أنّ هاتين الكَلِمَتَيْنِ (سيّد ومولى) لم يُخاطَبْ بهما المحبوبُ إلّا في العصر العبّاسي - فيما مرّ بي مِنَ النَظَر في عددٍ من مصادرِ الأدب . وسأحاولُ أن أُثْبِتَ هنا أكثَرَ ما وقعتُ عليه في هذا البابِ فنَرى في ذلك تطوّرَ هاتَيْنِ الكَلِمتَيْنِ على لسانِ الشعراءِ ، تذكيراً وتأنيثاً ولَفْظِيّاً ومَعْنَوِيّاً :

(١) الإسرار : كتم الأحوال .

وإني لَمَوْلاكَ الذي إن جَفَوْتَهُ   أتى مُستكيناً راهباً يتضرّع .
وإني لَمَوْلاكَ الضعيفُ فأعْفِني ،   فإني لِعَفْوٍ منك أهلٌ وموضعُ .

لنُصبٍ (أيام المهدي) :

ألا ما لِسيدتي ما لها   تُدِلُّ فأحْمِلَ إدْلالَها[1] ؟
اللّهُ بيني وبينَ مولاتي ؛   أبدت ليَ الصدَّ والملاماتِ .
يا عُتْبَ سيدتي ، أما لك دينُ ؟

(أبو العتاهية) :

ولائمٍ لامَني جَهْلاً فقلتُ له :   إني ،وعَيْشِكَ، مشغوفٌ بمولاتي

(أبو نواس) :

اللّه مولى دَنانيرٍ ومولائي . . .   كان لِحَيْني فِراق مولائي[2]
يا أحمَدُ المرتجي في كل نائبةٍ   قُمْ،سَيدي، نَعْصِ جبّارَ السمواتِ[3]
يا صاح ، أشكو حُلوة   العينينِ جائلةَ الوِشاح[4] .
فيها ٱفتضحتُ ، وحُبُّها   في الناسِ يسعى في افتضاحي.
أعِنانِ جاريةَ المهذّ   ب بالفضائلِ والسَماح[5] ،
ما لي ولم أكُ باذلاً   وُدّاً ولا فيكم سَماحي[6]

---

(١) تدلّ : تظهر الدلال ، تتمنّع من غير أن تقصد التمنّع .
(٢) لحيني (الحين بالفتح : الموت) : : سببا لموتي (لشقائي) . دنانير : جارية مغنّية (ت ٢١٠ هـ) .
(٣) وشاحها (النسيج العريض التي تضعه المرأة على كتفيها حول صدرها وظهرها) يجول (يدور ، يتحرّك) على جسمها (لنحافة جسمها) .
(٤) عنان (ت ٢٦٦) جارية شاعرة مستهترة أولع بها أبو نواس وغيره .
(٥) السماح : الكرم .
(٦) ـ ما لي (أعذّب بهجرك) ولم أكن بذلا (مانحا) ودّي (لغيرك) ولا فيكم (بكم) سماحي (رضاي بأن أنساك أو يحبّك غيري) .

فَبَخِلْتِ أنتِ ، وليس أهلُـ   ـكِ من قُبَيْلِكِ بالشِحاح .
إنّي ومولاكِ الذي   ما عنده لي من نجاح[1] .
لا تَلُمْني أن آجْزعا ، سيّدي قد تمنّعا .
ضَعْ كذا صدرَكَ ، يا سيدي . . .

يوسف ابن الصَّيْقل (معاصر أبي نواس) :

فَهِبْني ، نَعَمْ ، كتمتُ الهوى   فكيف بكتمان دَمْعٍ سَرِبْ[2] ؟
ولولا ٱتقاؤك ، يا سيدي   . . . .

(عن لسان إحدى حظايا الرشيد إليه) :

وأبَحْتَني ، يا سيّدي ،   سُقْماً يَجِلُّ عن السَّقَمْ[3]
قد بدا شِبْهُكَ ، يا مولاي ،   يَحْدُوه الظلامُ[4] .

(فضل الشاعرة - أيام المتوكل) :

ونخضعُ ذُلاًّ خُضوعَ العبيد   لمولىً عزيزٍ إذا أعرضا .
قد يَعْطِفُ المولى على من مَلَكْ .

(لسعيد بن حميد في فضل الشاعرة) :

لا تَشْمَتَنّ فإنّه   مولىً يُعَذِّب عَبْدَهُ .
رأيتُ في النوم أنّ الصُّلحَ قد فَسَدا ،
وأنّ مولايَ بَعْدَ القُرْبِ قد بَعُدا .

---

(١) المقطوعة تنتهي في الديوان (آصاف ٣٧١) مع هذا البيت . المعنى غامض .
(٢) سرب : سائل ، جار (يسيل ويجري بكثرة) .
(٣) أبحتني : سمحت لي (فقط) فيها تهكّم . سقما (من الحبّ) يجلّ (يعظم) يزيد على كلّ مرض آخر .
(٤) قد بدا (ظهر في السماء) شبهك (البدر) يحدوه : يدفعه أمامه .

نادمتُ ذِكْرَكَ والظَّلْماءُ عاكفةٌ
فكان ، يا سيّدي ، أحلى من السَّمَرَ[1]

أينما كنتُ ، سيِّدي ،
طاف بي منك طائفُ[2]

مولاكَ ، يا مولايَ ، صاحبُ لَوْعة[3] . . .
رِقٌّ له إنْ كنتَ مَوْلاهُ . . .

أيُّ خِصالٍ حازها سَيِّدي   لو لم يُكَدِّرْ صَفْوَهُ مُطْلُهُ .

(أبو تمام) .

* * *

(١) السمر : حديث الليل .
(٢) طائف : الحارس الذي يطوف في الليل (منام ، خيال ، ذكرى) .
(٣) مولاك : عبدك . يا مولاي : يا سيّدي (المولى من أسماء الأضداد : سيّد وعبد) .

- ٥ -

التقليد في الغزل والنسيب*

لو رجَعْنا إلى الشعر العباسي الذي نُظم بينَ أوائل القرن الثاني للهجرة وأواخر القرن السادس لوَجَدْناه ينقسمُ قِسمين أولهُما ينتهي في مُنتصَف القرن الرابع ، هذا إذا لم نتعرضْ لأبي العَلاء المعرّيّ . هذا القسم الأولُ يَغْلِبُ فيه الفكرُ . وأما القسمُ الثاني فيغلب فيه القَالَبُ اللفظيّ . وما دمنا ندرس الغزل فقط فإني اعتقدُ أن لي مسوّغاً في ترك أبي العلاء : هو عدم اشتهاره بالغزل .

يرى القارىءُ أنني أضفتُ كلمة النسيب إلى عُنوان المقالة الحاضرة معَ أنني كنت من قبلُ قدِ اقتصرتُ على الغَزَل (وصفِ الأعضاء) في البحث . إلا أنني وجدتُ الآنَ أن البحث في الغزل فقط ، في هذا العصر ، ينتهي بقولنا « لم يتّفقْ في شعر هؤلاء الشعراء شيءُ جديد » ثم نطّلِعُ على النماذجَ من شعرهم . أما الآن فأصبح بإمكاننا أن نرى في النسيب صُوَراً جديدةً لها بالغزل عِلاقة متينة تمكننا من استخراج دراسة ذات فائدة ملموحة .

الغزل الخالص :

يُمثل هذا العصرَ بضعةَ عَشَرَ شاعراً منهم من هو مشهور كالشريف الرضيّ والطُغَرانيّ ومنهم من هو أقلّ شهرةً كمِهيارِ الدَيْلميّ وسِبْط ابن التعاويذيّ . ومنهم من قلّ عن جميعِ هؤلاء شهرةً ، ولكن لم يقلّ عنهم منزلة في الشعر أمثالُ صرَّدرٍ وعِمارةِ اليمنيّ (وقدِ اتفقنا على أن نترُك أبا العلاء) .

(*) الأحرار (بيروت) ٣٠ / ١ / ١٩٣٢ .

ما هي الصفاتُ الجديدة التي أدخلها هؤلاء على الغزل العربي ؟ سؤال ليس أقرب إلى حقيقة الجوابِ عليه من « لا شيء ». إننا ما بَرِحْنا نرى الصفاتِ التي أحبّها أبو نواسٍ ومسلمُ بن الوليد وأبو تمامٍ والبُحتريّ تتردّد بين أبياتِ التِهاميّ ومِهيارٍ والطُغرائي والأرّجاني وعِمارة اليمنيّ وأصحابِهم ، لم يزيدوا عليه واحدة ولم يفرّطوا في واحدةٍ منها أيضاً فيُهمِلوها . غيرَ أنهم أخذوا غير هذه الصفاتِ وقلّبوها ذاتَ اليمين وذات الشِّمال ثم أعادوا الكرّة على أوجهها الباقية وجرّبوا أن يستنفدوا صورَها أجمعَ ، وقد وُفّقوا إلى حدٍّ بعيد . وبعدئذ عكفوا على دراسة الشعر العباسي والشعر السابق للعصر العباسي فوجدوا فيه صفاتٍ ضئيلةٍ أو شاردةً أشار إليها الشاعر الأموي أوِ العباسي إشارةً خفيفةً فراحوا يولّدون منها معانيَ جديدةً أو يَفْصِلون منها صفاتٍ مستَحدثةً حتى لَيُخَيَّلُ إليك أن هذه مظاهرُ جديدةٌ في شعر هذا الدور . ولكنّك لا تلبَثُ - إذا أنعمتَ النظر في شعر مَنْ سَبَقَهم - أن تجدَ إشاراتٍ لا تقبلُ التردُّدَ في أنها منشأ تلك الصفات . وقبل أن أتقدّم إلى سَرْدِ هذه النواحي الجديدةِ أُورد عدداً من الأبيات في الغزل عامة حتى يَعْرِفَ القارىء منحى هؤلاء الشعراء .

الأبيات التالية لصردر :

جُزْ باللِّوى إن كنت تؤثرُ أن ترى حَدَقَ المَها وسوالفَ الآرامِ[1]
وتأنّ في نظرِ الخـدود فبينها صُـوَرٌ تُبيح عِبـادَةَ الأصنام .

(١) جاز : مرّ . اللوى : الرمل المستدير .

نـاضَلْننا بنوافـذٍ مسمـومـةٍ وَوَدِدتُ لو قبّلْتُ سهمَ الرامي[1]
وكَتَبْنَ في الأيدي خِضاباً نامياً ، ونظيره في القلب حبٌّ نام[2] .

والأبيات التالية للأرّجاني :

يَتيهُ بعزٍّ : كلّما هزّه الصَّبـا تمايَلَ مَيْلَ الغصنِ وهو رطيبُ .
وروضـة وردٍ بينها أُقحـوانةٌ بها يحسُنُ المرعى له ويطيبُ .
من الهيف أما فوق عَقْدِ قِبائه فخُوطٌ وأما تحته فكَثيب[3] .
يضيق مَشَقُّ الجَفنِ منه إذا رنا ، ومُعْتَنَقُ العُشاقِ منه رحيب[4] .

أما البيتان التاليان فلابن عُنين :

واهيفَ عسّـالِ القـوامِ كـأنـه
قضيبٌ على دِعص من الـرمل قد نما[5]
تحمّـلَ في أعـلاه شمسـاً أظلّهـا
بليـل وأبدى من ثنـاياه أنْجُمـا[6] .

في جميع هذه الأبيات صورةٌ أعتقد أنها صادقة في تمثيل الغزل في هذا الدور : فيها من الصفات شيءٌ جديد ولكنّ فيها صِناعةً وتقليباً للمعاني التي أتى بها الشعراءُ في الدور السابق وفي الدور الذي قبله .

(١) ناضل فلان فلانا : (رماه بالسهام) . بنوافذ (سهام) تنفذ (تؤثر فينا) من عيونهنّ .
(٢) كتبن خضابا : صبغن (أيديهن) بالحنّاء أو بغيرها) . خضاب نام : شديد الحمرة أو السواد . حبّ نام (شديد ، يزداد يوما بعد يوم) .
(٣) الأهيف : الطويل النحيف . الخوط : الغصن الناعم . الكثيب : التلّة من الرمل .
(٤) رنا : تطلّع . معتنق العشّاق (الصدر) . رحيب : واسع .
(٥) عسّال : ميّال ، يتمايل . الدعص : قطعة من الرمل مستديرة .
(٦) شمس (كناية عن الوجه) . ليل (كناية عن الشعر) . وأسنانه بيض كالنجوم .

قوالب جديدة لمعانٍ مسبوقة :

يُعجِبُنا في هذا الدور أن نفراً من شعرائه أخذوا معانيَ الأولين وصقلوها . فمنهم من أخرج طرائفَ ، ومنهم من كبا فأسفّ .

في العصر العباسي الأول كثُرت الصورُ الجديدةُ إلى حدّ قَصِيٍّ فكنتَ تجدُ أحياناً للشاعر معنىً مبتكراً في كلّ بيتٍ من أبياتِ قصيدةٍ له . وكان يَرُوعُكَ من ذلك في أكثر الأحيان جِدّةُ المعنى لا طريقةَ سبكِهِ . وطالما راعَك الاثنتانِ .

إن أبا نواس وأبا تمام والمتنبي ومعاصريهم امتلأت أيديهم بالمعاني الجديدة والصور المستحدثة فراحوا يَنْظِمونها وقد يجعلونها ركاماً (بعضه فوق بعض) ، حتى لَيَصِحّ لك أن تقولَ إن قصيدةً واحدة لأبي تمامٍ لا تُفْهَمُ حقَّ الفَهم إلا إذا فُسِّرَتْ في مجلدٍ . أما الآنَ فقدِ افتقر الشعراءُ وقلّتِ المعاني بين أيديهم فأخذوا يَصْقُلون ما وَرِثوه ويُنقّونه ثم يجعلون منه صُوَراً جذّابةً تحملنا على وَضْعِها في مصاف ما أبدعه شعراءُ هرونَ الرشيدِ ، فلنُصْغِ قليلاً إلى سِبطِ بنِ التعاويذي :

قُلْ لمن أصلى هواها ... كَبِدي ناراً تلظّى :
يا قضيبَ البانِ قدّاً ، ... وغزالَ الرمل لحظا ؛
أنتَ أحلى من لذيذِ ... النوم في عيني وأحظى .
أنتَ من أعذبِ خلقِ ... الله أخلاقاً ولفظا .
فمتى أقبلُ نُصحاً ... فيكِ أو أقبلُ وعظا .
قد بذلتِ الوصلَ في الطَّيْفِ ... فلِمْ أعرضتِ يقظى ؟
ما أرى لي - والمودّاتُ ... حظوظٌ - منكِ حظا

بعد ما ضيّعتُ رَعْياً ... لكِ أيامي وحِفظا .
آهِ من رِقّةِ خدٍّ ... جعلتْ قلبَكِ فظا .

لا يَضيرُ هذه الأبياتَ أنّ كلَّ معانيها مسبوقةٌ ، فإنّ فيها طرباً مُرقِصاً . ولكنْ يجبُ ألاّ ننسى أنّ سِبطاً من أعلامِ هذا الدورِ وأن نفراً من الشعراءِ غيرَه قد مَسَخوا معانيَ مَنْ تَقَدّمهم مسخاً يَجْزِم بأن المعنى في صورته الأولى كان في كثير من الأحيان أجملَ منه في صورته التالية .

التشابيه البعيدة :

استنفد الشعراء الصور القريبة لهذه المعاني ولم يَقْدِروا على ابتكارِ معانٍ جديدةٍ ، ولكنّهم أحبّوا الابتكارَ أو ، قُلْ ، خَطَر على بالهم فراحوا يُوغلون في التشبيه حتى لَيَنْقَطِعُ ما بينَ تشبيههم وبينَ المألوفِ أو يَحْمِلُ القارئَ على النفورِ ، فإذا الأرّجاني يقول :

غَدَوْا دُرَراً أصدافُهُنّ هوادجُ ، ... وليس لها إلاّ السَرابَ بحارُ[1] .

وقال الغزيّ :

بدا صَنَماً وقال : هواكَ شِرْكٌ ، ... وقتلُ المُشركين من الجِهاد .

ولابن الخيّاط :

خليليّ ، قد هبّ اشتياقي هبوبها ... حُسوماً فهل من ذِروةٍ تَتَلاقاه[2]

---

(١) - يكون اللآلىء في الأصداف في البحار . وهؤلاء النسوة الجميلات مكنونات في الهوادج التي تسير في السراب (البوادي) .

(٢) منذ خمسين سنة قرأت هذا البيت (مختارات البارودي ٤ : ٣٤٥) وفيه « ...... من ذروة تتلاقاه » . وفي عام ١٩٥٨ أصدر خليل مردم (ت ١٩٥٩ م) - رئيس =

وقد تضيقُ السبيلُ بأحَدِهم فيُعيدُ في بيتٍ ما قاله في بيت آخَرَ ؛ فَلْنُمَثِّلْ على ذلك بأبياتٍ للأرّجاني (الديوان ٣٢٣ و٣٣٦) :

يشكو إليّ من الهوى ما ناله ، وأبى غريقٌ أنْ يُغيثَ بليلاً[1] .

يشكو إليّ من الصَبابة صاحبي وأبى غريق أن يغيث بليلا .

* تُبين سوادَها الأبصارُ فيه فحيثُ لَحَظْتَ منه حَسِبْتَ خالا[2]

* يظُنّ خيالاتِ أهدابها عِذاراً على خدّه الناظرونا[3] .

ولم يقنعْ نفرٌ من هؤلاء بتربد معانيهم ، بلِ استعاروا من غيرهم أو أغاروا . فقال الأبيوردي :

المجمع العلمي العربي بدمشق - « ديوان ابن الخيّاط » ، فظهر هذا البيت فيه (ص ٧٣) « . . . . من زورة تتلافاه » . وفي الديوان « الحسوم : التتابع » . وفي القاموس (٤ : ٩٦) : الحسوم : الشؤم والدؤوب (الاستمرار والتتابع أو المتابعة) . ومع أنّي أردتّ (وأريد الآن) أن أقرأ « من ذروة نتلافاه » (بالنون والفاء) ، فأنا لا أقصد أن أجادل في قراءات البيت المختلفة ، ولكنّي أريد أن أشير إلى لجوء نفر من شعراء هذا الدور إلى الإيغال في التشابيه والاستعارات حتّى تغمض أبياتهم ويصعب ضبطها من حيث اللغة على الأقلّ (أنظر مثلاً : هبوبها ، إلى أين يرجع الضمير فيها - وليس قبل هذا (في الديوان) بيت يصبح رجوع هذا الضمير إليه (يحسن أن نقرأ : هبوبه - أي هبوب « اشتياقي ») .

(١) الغريق (في البحر) لا يستطيع مساعدة الذي ابتلّت ثيابه بالماء (صاحب المصيبة الكبيرة لا يستطيع نفع صاحب المصيبة الصغيرة) .

(٢) إذا نظرت العيون إلى ذلك الوجه انعكس على صفحته (لصفاء ذلك الوجه) بؤبؤها (الأسود) ، فتظنّ أن هنالك خالا في كلّ بقعة من وجهه (أو وجهها) تقع عليها عينك .

(٣) الأهداب : الشعر النابت على أطراف الأجفان . العذار : الشعر النابت على صفحتي الخدّ . في هذه الصورة مبالغة غير مستحبّة . (أهدابه لكثافتها تلقي خيالاً على وجهه) .

وفضّ خِتامَ السرّ بيني وبينهَا كلامٌ يؤدّيه البَنانُ المُطرَّفُ[1] .

وللفرزدقِ من قبل :

يُبلّغنا عنها بغيرِ كلامها إلينا من القَصْرِ البنانُ المطَرّفُ .

وقال الأرجانيّ من هذا الدور : -

صِلي واغنمي شُكري فما وردةُ الربى تدومُ على حالٍ ولا وردةُ الخدّ .

ألا يوحي هذا إليك قول المتنبي : -

وصِلينا نَصِلْكِ في هذه الدنْـ يا فإن المُقام فيها قليل .

وللأرجانيّ أيضاً (الديوان ٢٤٠) :

تُريك بعَيْنَيْها المَهاةَ إذا رَنَتْ ويُعطيك لِيتَيْها الغزالُ الذي يعطو[2]

وقد قال البحتري « . . . يعطيك القضيبُ قوامَها ويريك عينيها الغزالُ » الأحورُ .

---

(١) البنان : أطراف الأصابع . المطرّف : المصبوغ (بلون أحمر) .

(٢) في الديوان (ص ٢٤٠) « ليثيها » (بثاء منقوطة بثلاث نقط) وبلا تشكيل . ومنذ خمسين سنة قرأتها « ليتيها » بالتاء المنقوطة بنقطتين من فوقها . والليت (بكسر اللام) صفحة (جانب) العنق . - في ذلك الحين كان عندي ستّ وثلاثون ساعة تدريس في الأسبوع . وكان بيتنا في المنارة (أقصى الغرب من بيروت) ومكان عملي في الحرج (على نحو ستّة كيلومترات من بيتنا). يعطو : يرفع رأسه فيظهر طول عنقه .

وأتى الأبيوردي أيضاً فأخذ المعنى المأخوذ عن البحتري وقال :

وبمهجتي هيفاء يرفعُ جيدَها   رشأٌ ويَخْفِضُ ناظِرَيْـها جؤذُرُ .

وله « وللهوى . . . رسائلُ بلّغتها فاهُ » مأخوذةً من الشريف الرضيّ « عندي رسائلُ شوقٍ . . . لولا الرقيبُ إذنْ بلّغتها فاكِ » .
وهذا النوع من الاحتذاء كثيرٌ ظاهر بيّنٌ ولكنْ يحتاجُ إلى مِساحةٍ واسعةٍ إذا نحن أحبَبْنا أن نأتيَ بجميعِ الشواهدِ عليه . وكان هنالك مأخذٌ آخَرُ في شعر هذا الدور : إنه انحطّ في المتانة عن طَبَقةِ شعر أبي نواس وزملائه .

التعفّف في الحبّ :

مال الشعراءُ في هذا الدور من العصر العبّاسيّ إلى شيء من الفِسق والتهتُّك (في الألفاظ ، على الأقلّ) . ثمّ لمّا كثُر الترفُ وظهرتْ أُبّهةُ الدولة وفاضتِ الأموال قلّ التديُّن وظهر الفسادُ في البرّ والبحر . ثمّ زالتِ العظمة السياسية وتَخَلْخَلَتِ البيئةُ الاجتماعية وتساهل الناس في جوانبَ من الحياة . في مثل هذه الحالِ يُطِلُّ على الناس خطَرُ التشتُّتِ والزوال فتَسْتَشْعِرُ النفوسُ شيئاً من الرَهْبة وتَوْجَلُ القلوبُ فَيَرْجِعُ الناس إلى التمسّك بأهدابِ التقوى في ظاهرِ أعمالِهم وأقوالهم - وفي قَرارةِ نفوسِهم أيضاً - ممّا هو في الحقيقة رِدّةٌ (أو رَدُّ فعلٍ ، كما يُقال أحياناً) عمّا سَبَقَ من التَحَلُّل من قوانينِ الطبيعة وقواعدِ الاجتماع ومناهجِ الأخلاق .

والشعر مرآةٌ من مَرائي الحياة أوْ مَراياها ، يتأثّرُ بمظاهرِ الحياة

فيُعبِّرُ عنها تعبيراً صادقاً حيناً وتعبيراً مُصْطَنَعاً في بعض الأحيان .
ومعَ أنّ الشعراءَ قد أحبّوا أن يسلُكوا طريقَ العِفّة الصحيحة ، فإنّ نفوسَهم ظلّتْ تُنازِعُهم إلى التمتُّع بما يتمتّعُ به المُنْفلتون من قيودِ المجتمع . فلو جَعَلْنا الشريف الرضيَّ مثَلاً في هذا الميدان ، وهو من نَعْرِفُ خُلُقَهُ المتينَ الكريمَ وعِفّتَه الصحيحةَ القويمةَ ، لرأيناه يزجي غزلَهُ هذا في ألفاظٍ جُمهوريّةٍ تُوجِبُ الشكَّ والتُهمةَ ، ولكنّه يَحومُ فيها على مداركَ عفيفةٍ ومعانٍ كريمةٍ . ولا شكَّ في أنّ غزَلَ الشريفِ الرضي كان غزلاً مُصْطَنَعاً لا يُفْهَمُ إلاّ إذا نحن حَمَلْناه على غيرِ ظاهرِهِ ، ولا عَجَبَ ، فإنّ غزلَه من عملِ خَيالِه لا من واقعِ حياته . من ذلك مثلاً قولُه :

بتنا ضجيعَيْنِ في ثوبَيْ هوىً وتقىً   يَلُفّنا الشوقُ من فرعٍ إلى قَدَمِ[1]
وبيْنَنا عِفّةٌ بايعْتُها بيـدي   على الوفاء بها والرَعْيِ للذِمَمِ
وأكتُمُ الصبح عنها وهي غافلةٌ   حتى تكلّم عُصفورٌ على عَلَمِ[2]
فقمتُ أنفضُ بُرْداً ما تعلّقه   غيرُ العَفافِ وراءَ الغيبِ والكَرَمِ
ثم أنثنَيْنا وقد رابتْ ظواهرنا   وفي بواطننا بُعدٌ من التهمِ .

ثمّ يعجَبُ الطُغرائيُّ بالشريف الرضيِّ إعجاباً عظيماً فيمضي في النَسْج على مِنوالِه في الأغراض والمعاني - من غير أن يُرْزَقَ الطُغرائيُّ حُلوَ الكلام الذي كان للشريفِ الرضيّ - ولكنّ تقليد الطُغرائيِّ للشريف الرضيّ في البحرِ والقافية وفي المعاني والألفاظ أوْجَبَ للطُغرائي شيئاً من حلو اللفظ . قال الطغرائي :

(١) الفرع : الشعر .
(٢) علم : جبل (مكان مرتفع) تكلّم عصفور على علم (كناية عن طلوع النهار) .

سِربٌ من الإِنْسِ ركّبْنَ الغُصونَ على
حِقفِ النَقا وسَتَرْنَ الوردَ بالعَنَمِ[1] .

بَخِلْن حتّى بـإهـداء السـلام لنـا ،
والبُخل فيهنّ محسوبٌ من الكـرم .

وليلةَ السَفْـحِ والرَكْب الهُجـودِ ثَنَوْا
على الأكُفِّ مَثاني الجُدلِ واللُّجُمِ[2] ،

بِتْنـا وبـاتَ الصَّبـا وهْناً يُغـازِلُنا
وفَرْشُنا الرَّمْل وشّتْه يدُ الـدِيَمِ[3] .

والليـل يَكْتُمُ سِرّي ، والصَّبـا كَلِفٌ
بِنَشْـرِ ما كـاد تَـطْويه يـدُ الـظُلَم .

ظنّـوا بنـا السُـوء وارتـابـوا فنَـزّهَنـا
بَرْدُ المضاجعِ عمّا رابَ من تُهَمِ[4] .

أفدي غريمـاً طويـلَ المُطْلِ ، ذِمّتُه
وإن لَوَى الدَّيْنَ ظُلْماً ـ أوثَقُ الذِمَمِ[5] .

---

(١) الغصون (كناية عن الأجسام فوق الخصر) . الحقف (بالكسر) : ما استطال واستدار من الرمل (كناية عن الكفل ـ بفتحٍ ففتح) . النقا : الرمل الأبيض . سترن الورد بالعنم (وضعن على خدودهن الحمراء كالورد عنما ، أي لونـا أحمر اصطناعيا) .

(٢) الركب : الذين يسافرون معا . الهجـود : النيام . الجدل (بضمّ فضمّ) جمع جديل (الزمام : اللجام) المجدول . ـ الصورة غير واضحة لي .

(٣) وهنا : بعد منتصف الليل . وشتّه : زخرفته . الديمة : المطرة الخفيفة .

(٤) نزّهنا برد المضاجع (لأنّنا لم ننم فتسخن أماكن نومنا) .

(٥) الغريم : الخصم ، الدائن والمديون (من الأضداد) . المطل : تأخير وفاء الدين . لوى الدين : مطله (أخّر وفاه ، أو تعهّد بوفائه ولم يفعل) .

مـا زِلْتُ أرْقِيـه من رِفْقٍ وأسحَـره
حتّى تبسّم عن حُلوِ الجَنى شَبِمِ[1] ؛

ورقّ لي قلبُـه القـاسي ، ومَكّنَني
ممّـا أُريـدُ فلم آثَمْ ولَمْ أُلَمِ[2] .

وسائلٍ عن جَـوى قلبي فقلتُ له :
مـا أنتَ عِنـدي على سِرّ بمُتَّهَمِ ؛

طابَ الجَوى في الهوى حتّى أنِسْتُ به .
فهو المَرارةُ يحلو طعْمُها بِفَمي[3] .

لم يفعل الطغرائيُّ هنا شيئاً أكثرَ من إذابة خالصِ معاني الشريفِ الرضيّ في بحرٍ من الألفاظ : التقليدُ ظاهرٌ ، والمعاني قريبةٌ ، ولكنّ الكلامَ الحُلْوَ الذي كان للشريف الرضيّ لم يَتَّفِقْ للطُغرائيّ . .

وحاول الطغرائيُّ مثلَ ذلك في الأبيات السِينية التالية فكان أشدَّ بُعداً من حَلاوة الكلام في شعر الشريف الرضيّ وأقلَّ وُضوحاً في المعاني :

خليلَيّ هـل من مُسعِـدٍ أو مُعـالـجٍ
فؤاداً به دواءٌ من الحب ناكِسُ[4] .

---

(١) حلو الجنى (الثمر) شبم (بارد) كناية عن الفم .

(٢) أثم : ارتكب ذنباً . ألام فلان : أتى ما يلام عليه .

(٣) الجوى : عذاب الحبّ .

(٤) مسعد : مساعد ، معين (على حمل الحبّ) . معالج : مداو . الناكس (المرض) الراجع (ويكون أشد من المرض البادىء) .

وهل تَرْجُوانِ البُرْءَ مما أُكِنّه ؟

فإني ، وبيتِ اللّهِ ، منه لآيِسُ[1] .

هوىً لا يُديل القربُ منه ولا النوى ،

ولا هو من طول التقادُمِ دارِسُ[2] .

سرى حيث لا يدري الضميرُ مكانَه

ولا تهتدي يوماً إليه الهواجس[3] .

إذا قلتُ هذا يومَ أسلو تراجعتْ

عقابيلُ من أسقامِهِ ووَساوس[4] .

فيا سَرْحَتَيْ وادي العقيق سَقاكُما

- وإذْ لم تُظِلاّني - الغمامُ الرواجس[5]

هذه الأبيات وما يمكن أن نستشهد به من مثلها تُباين ما عهدنا عليه شعراء الدور الأول . فلم يكن لأبي نواس مثلاً وقت يَبُثّ شوقه ، هو لم يحتج إلى ذلك قطّ لأنه كان بإمكانه - وإمكان معاصريه أيضاً - أن يَصِلَ إلى حبيبه بأدنى وسيلة إلا فيما شذ وندر . أما في هذا الدور فشعر الشعراء يدُلّ على أن منفَذَ العاطفةِ كان على غير ما عَهِدناه من قبلُ في أيامِ المَهْديّ والهادي والرشيد والأمين من خُلَفاء بني العباس ، يوم كان الشاعرُ جريئاً في وصفِ لياليه

(١) أكنّه : أخفيه ، أكتهه . بيت الله : الكعبة .

(٢) الهوى الذي بي لا ينصف منه (لا يشفيه) القرب (من المحبوب) ولا النوى (البعد عنه) . ثمّ إذا طال عليه الزمن لا يدرس (لا يمحى ، لا ينسى) .

(٣) الهاجس : الخاطر (الخيال) .

(٤) أسلو : أنسى . عقابيل جمع عقبول (بضمّ فسكون فضمّ) : بقيّة العلّة .

(٥) السرحة : الشجرة العظيمة الطويلة (كناية عن المرأة) . الراجس : الذي له صوت (رعد) . وإذا كثر البرق والرعد في الغيم يكثر سقوط المطر منه .

والناسُ عامةً جريئين في الفَتْك والمَجانة،ومعَ كُلِّ هذا التصنُّعِ فقد ظلّ في الشعر شيءٌ كبيرٌ من الرِّقة فالطرب . وعلى ذلك قولُ مِهيارٍ الديلمي :

أتراها ، يومَ صدّتْ أن أراها ، ... عَلِمَتْ أنّي من قَتْلي هواها ؟

سنحتْ بينَ المُصلّى ومِنَى ... مَسْنَحَ الظبيةِ تَسْتَقْري طَلاها[1]

قال واشيها ، وقد راودتُها ... رَشفةً تُبْرِدُ قلبي من لمَاها[2] ،

لا تَسُمْها فَمَها . إنَّ الذي ... حرّمَ الخمرةَ قد حرّم فاها[3] .

أُعطِيَتْ من كُلِّ حُسْنٍ ما آشْتَهَتْ ، ... فرآها كُلُّ طرْفٍ فاشتهاها .

إنني لا أدري إذا كان هذا الشعر يدل على عواطف قائليه أو أنه تصنع أو تقليد للشعراء العذريين في صدر بني أمية كجميل بثينة وكثير عزة . إنني أعتقد أن هنالك صلة بين هاتين الطائفتين ولكني لا أدري مبلغ الهوى في قلوب شعراء الدور الذي نبحث فيه الآن .

الأماكن المقدسة :

رأينا آنِفاً أنّ الشاعرَ في هذا الدور يتصنع في غزلِهِ ونسيبه وأنه يَعفّ عمّا كان يفعله زُملاءُ أبي نُواسٍ وعمّا كانوا يقولونه أو يفكرون فيه . فمن الأدلة على ذلك أن الشعراءَ أصبحوا لا يذكُرون المحبوب باسمه وصِفاته الخاصّة أو يُشيرون إلى مجالسِ لهوٍ مُعيّنةٍ

(١) سنحت : لاحت ، ظهرت . المصلّى (قرب الكعبة) . منى : منزلة شرق مكّة ، وهما من مناسك الحجّ . تستقري : تطلب ، تبحث عن ضائع . الطلا (بالفتح) : الصغير من الناس ومن البهائم . - باضطراب ولهفة .

(٢) من لماها = من شفتيها اللمياوين (السمراوين) .

(٣) سامها : طلب (أن يشتري شيئاً) . الذي حرّم الخمر (الله) . فوها = فمها .

أو حوادثَ شخصيةٍ ، بل أصبحوا مِثاليين ينظُرون في شعرهم إلى مَثَلٍ أعلى ورُتبةٍ أسمى فكَنَوْا عمّا يجول في ضمائرهم بأسماءِ الأمكنة المقدسة . وهذا شيءٌ جديد لم يظهَرْ ، حتى هذا الدورِ ، في هذا المعنى فكَثُرَ ذِكْرَ الخَيْف ومِنَى والبطحاء والعَقيق في الحجاز ثمّ ذِكْرَ كاظمةَ في العراق . وهذه كُلُّها أماكنُ مقدّسة عند المسلمين ، فهي مناسِكُ لهم أو مشاعرُ ، أي مشاهدُ لأدوارٍ من حياةِ الأنبياء والأولياء . ومن الشعراء من توسّع في القياس على ما مرّ ، فذكر الشامَ وقُراها كما ذَكَـرَ غيرَ الشام أيضاً . وليسَ لتَعْيينِ البلدِ أوِ المكان في ذلك البلد « خصوصية » تتعلق به ما دامَ كلُّ اسمٍ إنّما هو كِنايةٌ عن مدركٍ من مدارِكِ العاطفة الدينية . وعِندي أن الشاعر العبّاسي المتأخّر قد مالَ إلى ذِكْرِ أسماءِ الأماكن في أشعاره تقليداً لشعراء الجاهلية الذين كانوا يَقِفون على الأطلال ، كقول أمرىء القيس :

قِفا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْمَلِ

إنّ « سِقطَ اللوى » (مُنْحَنى الرمل) و« الدَّخول » و« حَوْمَلَ » أماكنُ ذَكَرَها الجاهليّ في شِعره ـ بأسبابٍ كثيرة ـ وكانتْ تلك الأماكنُ مشاهدَ جاهليّةً أو وثنيّةً ، فنَقَلَ الشاعرُ العبّاسيُّ المتأخّرُ أسماءَ الأماكنِ من الجاهليةِ إلى الإسلامِ ومن الوثنيةِ إلى التوحيد .
ومن ذلك مثلاً قولُ السريِّ الرفّاء :

حُيّيتَ من طَلَلِ أجابَ دُثورُه يوم العقيقَ سُؤالَ دمعٍ سائلِ[1].

---

(1) الطلل : مكان الخيمة المهجورة ، بقايا البناء . الدثور : الامحاء . في « سائل » تورية : اسم فاعل من سال يسيل ومن سأل يسأل . ـ ظهر الحزن عليه كما ظهر =

نَحْفى ونَنْزِلُ ، وهو أعظم حُرمةً من أن يُزارَ براكبٍ أو ناعِلِ[1] .
ما كان أعذبَ مُجتناه ، وأهلُه بينَ العُذيبِ وبينَ بُرْقَةِ عاقلِ[2].

وكذلك قال مِهيارُ الديلمي :

سافِراتٌ بِمِنَى لـولا التُّقى خَمّـرَتْهُنَّ شِفاهٌ بـالقُبَـلْ[3] .

وللشريفِ الرضيّ :

يا نسيمَ الصُّبحِ من كاظمةٍ ، شَدَّ ما هِجْتَ الجَوى والبَرَحا[4]

السلاح في أعضاء المحبوب

لم يَبْقَ الغَزَلُ والنسيبُ هادئَيْن ، بل أصبحَ المُتغزِّلُ يرى السلاحَ والمَرَضَ والموتَ في أعضاء مَحبوبهِ مَخْبُوءةً تنتظِرُ فُرْصَةً للفَتْك به . تلك ظاهرةٌ تبدو غريبةً جِدّاً ، ومعَ ذلك فقد أغْرَق فيها نفرٌ من الشعراء إغراقاً شديداً (ولكنِ اقتصرتْ منذ العصر الجاهلي إلى مبدأ الدور الثـاني من العصر العبـاسي على السهام في العيون) .

غيرَ أننا إذا رَجَعْنَا إلى الشعر القديم ، في الجاهلية مثلاً ،

= على الواقف به (؟) .

(1) نحفى : نخلع نعالنا وننزل إليه (عن مطايانا) حفاة ، إذ لا يجوز (لحرمته عندنا) أن نسير فيه بنعالنا أو ونحن على الإبل والخيل .

(2) المجتنى : الثمر (تقبيله ؟) . العذيب وبرقة عاقل مكانان .

(3) سافرات : كاشفات عن وجوههن . منى تقع شرق مكّة ، وهي من مناسك الحجّ . خمّرتهنّ : غطّت وجوههنّ شفاه المحبّين عند تقبيلهنّ .

(4) شدّ : ما أشدّ . الجوى : عذاب الحبّ . البرح (بفتح فسكون) : الشدّة ، العذاب ، وحرّكها الشاعر للضرورة .

وَجَدْنَا فيه طَرَفاً من ذلك . وأشْهَرَ ما يُمْكِنَ أن يُشارَ إليه قولُ آمرىء القيس ، يُخاطِبُ عُنَيْزَة :

أغَـرَّكِ مِنّي أنّ حُبَّكِ قـاتِلِي ... وأنك مَهْمَا تأْمُرِي القلبَ يَفعلِ.

وما ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاّ لِتَضْرِبي ... بِسَهْمَيْكِ في أعشارِ قَلْبٍ مُقتّلِ.[1]

وقال المرّارُ بنُ مُنْقِذٍ العَدَويّ :

تَـرَكَتْني لستُ بـالحَيِّ ولا ... مَـيِّتٌ لاقـى وَفـاةً فَـقُبِـرْ

يسـألُ النـاسُ : أحُمّى داؤه ... أمْ بـه كانَ سُلالٌ مُسْتَسِرْ ؟[2]

وَهِيَ دائي ، وشِفائي عِنْدَها ... مَنَعَتْـهُ فهْوَ مَلْوِيٌّ عَسِـرْ[3].

وقال بِشْرُ بن أبي خازمٍ :

ليـالِيَ لا تَـطيشُ لهـا سِهـامٌ ... ولا تَرْنُو لِأسْهُمِ مَنْ رماها[4].

وقبلَ أنْ يُوغِلَ العصرُ العباسيّ كَثُرَ فيه الكلامُ على أنواعِ السلاحِ في أعضاءِ المَحْبوب ، فقد رأينا أبا تمّامٍ يقول : « أغْمِدْ عنِ المُهَجاتِ[5] سيفَ الناظر » أو يقول : « في طَرْفِهِ سيفُ حُسامٌ » . ثمّ يقول البُحتريُّ :

وبِحَقٍ إنّ السيـوفَ لَتَنْبـو ... تارةً ، والعيونُ باللَّحْظِ تُدمي[5].

---

(١) ذرفت عيناك (بكيت). مقتّل : مذلّل . ضربت بسهميك في أعشار قلبي : جرحت قلبي كلّه بسهام عينيك أو سلبت قلبي كلّه (استعارة من لعب الميسر . . .) .

(٢) السلال : مرض السلّ . مستسرّ : خفيّ .

(٣) ملويّ : (دين) ممطول (تعدني ولا تفي بوعدها لي) .

(٤) هي تصيب بسهام حبّها من تريد ثمّ لا تأبه بأسهم الحبّ من أحد (لا تتأثر بأحد) .

(٥) المهجة : دم القلب ، القلب ، الحياة .

وكذلك قال آبن الروميّ :

يَغْدو فتكْثُرُ باللِّحاظ جِراحُنا ... في وَجْنَتَيْهِ، وفي الفؤادِ جراحُهُ[1].

ويبدو أن التعبيرَ عن ذلك يَظَلُّ عامّاً مُدّةً طويلةً ، فقد قالَ المتنبّي (في الطور الأول من حياته) :

رامياتٍ بأسْهُمٍ رِيشُها الهُدْ ... بُ تشقُّ القُلوبَ قبلَ الجُلودِ[2].

ويقول مهيارُ الدَّيْلَمِيّ :

فهل ظنّ ما قد حرّم الله من دمي

مُباحاً له، أو نام قومي عنِ الوتر؟

خليليَّ هل من وقفة والتفاتةٍ

إلى القُبّة السوداءِ من جانب الحِجْر؟[3]

وهلْ من أرانا الحجَّ بالخَيْفِ عائدٌ

إلى مِثْلِها أمْ عدّها حِجّةَ العُمْر؟[4]

فللهِ ما أوفى الثلاث على مِنًى

لأهْل الهوى لو لم تحُنْ ليلةُ النَّفْر؟[5]

---

(١) السيوف التي هي من حديد لا تقطع ما يضرب بها في بعض الأحيان . أمّا عيونهن فتجرح دائما وتدمي أيضا (تؤلم) .

(٢) نَظَرْنا إليه يدمي خدوده (تحمرّ خدوده من الخجل) أمّا عيونه فتجرح قلوبنا .

(٣) القبّة : الخيمة من جلد (وتكون للأمراء). الحجر : اسم لأماكن كثيرة ، ثمّ مكان قرب الكعبة من جهة الشمال (ضدّ الجنوب) ، ولكنّ في تعيينه خلافا .

(٤) أترانا نراه مرّة ثانية أمّ أن حجته تلك كانت حجّة العمر (مرّة واحدة في الحياة) .

(٥) ما أكثر المبيت ثلاث ليال في منى (مع المحبوب) للمحبّ ، لم لم تقترب ليلة النفر (تفرّق الحجّاج) - الصورة غير واضحة ، لأنّ النفر هو النزول من عرفة . والمبيت في منى يكون بعد النزول من عرفة .

وقال ابن نُباتةَ السَّعْديّ :

أشتاقُ غُوطةَ داريّا ويُعجبُني ... على افتقاريَ أنْ تَغْنى مَغانيها[1].
لَهْفي على شَرْبةٍ من ماء جُوسِيَةٍ ... ونظرةٍ يُدْرِكُ الجُولانَ رائيها ،
ونفحةٍ من رُبى لبنَانَ خالصةٍ ... تُميتُ عُلّةَ نفسٍ أو تُداويها.

إلا أن الذي بدأ بالتغزل في الأماكن المقدسة والنسيب بها كان الشريف الرضي ؛ ونسج كل من جاء بعده على منواله،ومنهم ابن سِنان الخَفاجي،قال :

أتظنُّ الوُرْقَ،في الأيْكِ تُغنّي ... أنها تُضمِرُ حُزناً مِثلَ حُزْني؟[2]
لا أراكَ اللهُ نجداً بعدَها ... أيُّها الحادي بها ، إن لم تُجبْني.
يا زمانَ الخَيْفِ،هلْ من عَوْدةٍ ... يسمَحُ الدهرُ بها من بعدِ ضَنّ
أرضِينا بثُنيّاتِ اللِّوى ... عن زَرودٍ؟يا لهَا من صَفقةِ غُبْنِ!

وقد كَثُرَ ذِكْرُ الأماكنِ المقدّسة عند الكَثْرةِ من شُعراءِ هذا الدور . أمّا المرأةُ التي اتّخذها هؤلاء الشعراءُ المثَلَ الأعلى ، وكَنَوْا بها عن تلك الأماكن ، فَهِيَ العامريّةُ (لَيْلى) حبيبةُ قيسِ بنِ المُلوَّح (مجنونِ ليلى) . إنّ ليلى هذه قد أصبحتِ المثَلَ الأعلى للجَمال (المادّيّ والرّوحيّ) والهَدَفَ الأسمى لِبَثِّ الشَّوْق . فللشريف الرَّضِيّ : « ألمَّ خَيالُ العامريةِ بعدَ ما ...... ».وللتِّهاميِّ :

اسفَحْ بنجدٍ ماءَ عَيْنِكَ إنما ... للعامريةِ كُلُّ نجدٍ دارُ.

(١) أن تغنى (يكثر سكّانها وتزدهر) المغنى : المكان العامر بالسكنى . غوطة داريّا شرق دمش .

(٢) الورقاء : الحمامة . . الأيك : مكان فيه شجر كثيف . ليست الحمامة التي تهدل (بفتح فسكون فكسر : تصوّت) حزينة مثلي (لأن صوت الحمامة يشبه البكاء أحيانا) .

ولمهيارٍ الديلمي : وفي الرَّكبِ سمراءُ من عامرٍ » . وقال صرَّدُرّ :

وما ذاك إلا أنّ غِزْلَانَ عامرٍ ... يَثِقْنَ بأنّ الزائرين صُقورها

ولابن حيّوس « وأذكر بيضاءَ من عامر ، وكم من بني عامر في اليمن » وللأرّجاني « واهاً لعصر العامرية بالحِمى » وأمثال ذلك .
ولم يبخَلِ الطُّغرائي على العامريّ « مجنون ليلى»فقال :

ويا أيها الغادي تَحَمَّلْ رِسالةً ... على ما بها ، إنّ الحديثَ طويل.
وقل للأولى : حُلّوا الحِمى . سُقِيَ الحِمى! ... عزاءٌ لكم . فالعامريّ قتيل.

هذا كله يدُلنا دَلالة صريحةً على أن اتجاهَ الغزل أصبح دينياً عُذريّاً ، ومهّد السبيلَ للشعر الصوفي . ويجب ألّا ننسى أننا رأينا إشارة إلى هذا من قبلُ ، وخصوصاً في شعر البُحْتريّ ، ولكنها لم تَشِعْ وتُصبحْ ميّزةً ظاهرةً إلّا في أيامِ الشريف الرضي وما بعدَها .

وكَثُرَ قولُ المتنبي في العيونِ والجُفون ـ ويبدو أنّ الأمرَ ظلّ قاصراً على ذلك مُدّةً ـ فمن قول المتنبّي أيضاً :

إنّ التي سَفَكَتْ دَمي بجُفُونِها ... لم تَدْرِ أنّ دمي الذي تَتَقَلّدُ[1]

أمّا التفصيل فبدأ في طور متأخّر ، حينما بدأ الشاعر يكثر من استعمال الألفاظ الدالة على السلاح ثم يخصّ كل عضو من أعضاء

(١) ... لم تعلم أن احمرار خدودها من دمي الذي سفكته بسهام عيونها .

المحبوب بآلة قاتلة أو جارحة . لقد قال الغزيّ :

صُدغه نـابلٌ وحـاجِبُهُ قـو   سٌ وألحاظه نِصالُ النبالِ[1].
كيفَ يَحظى بالسِلم من كُلِّ شيءٍ   حَسَنٌ ، وهْـوَ آلـةٌ للقتـال؟

أمّا صرّدُرّ فقال :

في كـل يوم للعيـون وقـائعٌ   إنسانُها الطمّاح فيها يَكْلِمُ[2]
لو لم يَكن جَرْحى غداةَ لِقائِهم،   ما كان يجري في مآقيها الدم[3]
لم أدرِ أن الحبّ حَوْمَةَ مأزِقٍ   تُصْلى ولا أن اللواحظ أسهُم[4]

وللتِهاميّ :

إيّـاك إياك تـطريقـاً بـأعيُنِهـا   فهْيَ الأسِنّة في العسّالة الذُبُلِ[5]
لِكُلِّ سَهْمٍ يُعِدّ الناسُ سابغةً   ترُدُّهُ عنك إلاّ أسْهُمَ المُقَلِ[6].

وللتهامي أيضاً :

أبْرَزْنَ من تلك العيونِ أسِنّةً   وهَزَزْنَ من تلك القُدودِ رِماحا.
يا حبذا ذاك السـلاحُ وحبّذا   وقتٌ يكونُ الحسنُ فيه سِلاحا.

---

(١) الصدغ : جانب الوجه الأعلى . نابل : (مقاتل) يرمي النبال (السهام) . السهم يكون عادة من خشب . أمّا نصله (رأسه) فقط فيكون من حديد .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) لو لم يجرحن قلوب العشّاق ، لما كانت أطراف عيونهنّ حمرا .

(٤) الحومة : الموضع الذي يشتدّ فيه القتال . المأزق : الضيّق ، الشديد . صَلِيَ فلان بالنار : تعرّض لها فأحرقته .

(٥) تطريقا ـ كذا في الأصل (وليس في القاموس معين يوافق قصد الشاعر) . الملموح أن الشاعر يقصد « إدامة النظر » . السنان (الحديدة في رأس الرمح) العسّال (الرمح الصلب اللدن (الذي ينتحني) الذابل (الرقيق) .

(٦) السابغة : الدرع .

وله أيضاً « أرأيتَ سَيْفاً غيرَ لَحْظِكَ صارماً ؟ » .

وللأرجانيّ « سلَلْنَ سُيوفاً من جفونٍ . . . » .

وأمثاله كثيرٌ في شعرِ كُلِّ شاعرٍ بعدَ المتنبي .

المبالغة

بُنِيَ كثيرٌ من شعر هذا الدور على الجَلَبة اللفظية فبالغَ شعراؤه في التشبيه . فبدلا من قولِ البحتري « . . . وَجَناتٌ يَنْتَسِبْنَ إلى الورد » ، رأينا الطُغرائيّ يقول : « إن السيوفَ مثلَ الخدودَ والرماحَ مثل القدود». ونحن نذكُرُ أن أبا نواس كان قد قال : « ربّ ليل كأنه فَرْعُ ليلى » . ولكن المبالغَةَ لم تصبحْ ميّزةً إلاّ في عصر متأخر . لقد بكى أبو تمام وبكى المتنبي وبكى أبو نواس أيضاً . ولكن هل بكَوْا بمثل هذا ؟

قال الأرجاني :

أتْرَعتُ في حُجْري غديراً للبكا   فعسى يلوح خَيالُها في مائهِ[1].

ولِسِبْطِ بن التعاويذيّ :

ونجلاءَ كـالسيفِ ألحـاظُها   إذا نظرتْ، بل من السيف أمضى.

ولعِمارة اليمني :

ظبيٌ أعار الليلَ طُـرّةَ شعره   وأمدَّ ضوءَ الصبحِ بالإشراق[2] .

---

(١) ملأت حضني بدموعي (من كثرة بكائي) ، لعلّ خيالك يتّفق له أن يتراءى في تلك الدموع فأراه أنا .

(٢) الطرّة من الشعر في مقدّم الرأس ـ سواد الليل من شعره ، وبياض الصبح من وجهه .

واختم الاستشهاد بهذا البيتِ لابن نُباتةَ السَّعْدي :

إذا تفكّرت فيه عند رُؤيته
صَدّقت قولَ الحُلوليين في الصُورِ[1].

ولهم أمثال ذلك في النحول والضعف والحب .

الاستكانة

المحب في هذا الدور المتأخر مستكين استكانةً لا شَرَفَ فيها . لقد رأينا المحبَّ الجاهليَّ جريئاً مجاهراً ، والمحبَّ الأموي جريئاً مغامراً ، والمحب العباسي جريئاً فاتكاً . أمّا المحبُّ في هذا الدور فجبان مستكين.وهاك ما قاله ابن نُباتةَ السعدي :

وبدرِ تمامٍ بِتّ أَلْثِمُ رِجْلَه
وأُكْبِرُهُ عن أن أُقَبِّلَ خَدَّهُ .
تعشّقتُ فيه كلَّ شيء يحبّه
من الجوْر حتى صِرت أعشَقُ صَدّه[2]

أما مهيار الديلمي فقال :

ناهضتُ حبَّك ، والنحولُ يَخونُني ،
وكتمت سِرَّكَ والدموعُ تشي بي[3] .
وحملتُ حتى قِيلَ ماتَ إباؤه ،
وجَزِعتُ حتى قيل غيرُ لبيبِ[4] .

(١) الحلوليّون هم الذين يعتقدون أن الله يحلّ في البشر . . . (لم تتّضح لي الصورة الشعرية).

(٢) الجور : الظلم .

(٣) ناهض فلان فلانا : قاومه .

(٤) حملت : تحمّلت ، صبرت .

ولابن الخياط :

عَناني الغرامُ بحُبِّ السَقا م شوقاً إلى ذلك العائد[1].
وقد كنتُ جَلْداً أَبِيَّ القِيا د لو أن غيرَ الهوى قائدي.

ففي هذا دلالة على ما نرمي إليه .

التغزل بالعرب

كان شعراءُ الدور الأول من العهد العباسي قدِ انصرفوا عن التغزل بالعرب إلى التغزل بالرومِ والفرس . ويظهر أن هذا كان له ردُّ فعل ، فَرَجَع الشعراء إلى التغزل بالعرب والبَدْويّاتِ أيضا . وعلى ذلك قولُ المتنبي « هام الفؤاد بأعرابية » ، أو قولُه :

كم زورةٍ لك في الأعراب خافيةٍ
أدهى ، وقد رَقدوا ، من زورة الذيب
ما أوجُه الحَضَرِ المُستحسناتُ به
كأوجهِ البَدَويّات الرَعابيب :
حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطْرِيَةٍ ،
وفي البداوةِ حُسنٌ غيرُ مجلوب[2].

ويرينا مهيار الديلمي شيئاً كثيراً ، منه :

يا أختَ فِهْرٍ والمحبةُ بَيْنَنا
نسبٌ ، وإن ناداك غيرُ نسيبِ.

(١) الغرام (الحبّ) عناني (جعلني شديد الشوق ؟) إلى السقام (المرض) تشوّقا إلى أن يعودني (يزورني في مرضي) محبوبي .

(٢) حسن الحضارة (في المدن) . التطرية : معالجة الوجه والعيون الخ باستخدام المساحيق كالأبيض والأحمر والكحل الخ .

لولاكِ لم أشِمِ الخِلابَ ولا صَبتْ
نفسي لِأحلامِ الكَرى المكذوبِ[1]

ومالَ الشعراءُ ، في هذا الدورِ (وفي شعرِهِمْ ، على الأقلّ) ، إلى حُبّ العربيّاتِ ، والبَدْويّاتِ مِنْهُنّ خاصّةً ، فقال مِهيارُ الديلميّ : « يا ابنةَ الجَمْرةِ من ذي يَزَنٍ »[2] ، كما قال أيضاً :

لولاك ، والأيّامُ دَوّالةٌ ، ما استعبدَ الفُرسَ الأعاريبُ[3] .

ثمّ إذا نحن الْتَفَتْنا إلى النسيبِ رأيناه أيضاً مملوءاً بألوانِ البادية من جِمالٍ وقِبابٍ وهَوادجَ[4] ثمّ بصفاتِ العرب في الحِجاز ونَجْدٍ ، ممّا يدُلّ دَلالةً واضحةً على أن شعراءَ هذا الدورِ قد أُعْجِبوا (أصالةً أو تقليداً) بالجَمالِ العربيّ على ما كان في الجاهليةِ وفي العصرِ الأمويّ .

خلاصة ما تقدّم :

يبدو لنا ممّا تقدّمَ أنّ الشعرَ في الدور الثاني من العصر العبّاسي (وما بعدَهُ قليلاً) لم يختلفْ في اتّجاهِه العامّ عمّا سبقه ،

---

(١) شام : تطلّع إلى الأشياء . الخلاب (الأشياء التي لا حقيقة لها) . صبا : اشتاق . الكرى : النوم . (ما كنت علّلت نفسي بأن أراك في نومي - وهذا شيء باطل) .

(٢) الجمرة : النار المتّقدة (القبيلة القويّة التي لا تنضم إلى أحد ، ثقة بقوّتها ، أو الجماعة من ألف رجل ، الخ) . ذو يزن : من ملوك اليمن .

(٣) الدوّالة (ليست في القاموس : مرة لهؤلاء ومرة لأولئك) . (بالضمّ : مرّة لهؤلاء ومرّة لأولئك) . الأعاريب جمع الأعراب (البدو) .

(٤) القبّة : الخيمة الكبيرة من جلد . الهودج بيت النساء المرفوع على الإبل .

بل ظلَّ هو إياهُ ، لولا تلك القوالبُ اللُّغويةُ الجديدةُ التي سُبِكَ فيها . فمن تلك القوالبِ ما حَسَّنَ المعانيَ السابقةَ ، ومن تلك القوالبِ ما أسَفَّ[1] بالمعاني السابقة . ثمّ فَشَتِ[2] المُبالغات وكَثُرَتِ التشابيهُ البعيدةُ عن المألوفِ والنافرةُ من الأسلوب المعقول . من هذه الوِجْهة فقط كان هذا العصرُ في الغَزَلِ - وفي بقيّةِ أبوابِ الشعر أيضاً - عصرَ تقليدٍ .

ثمّ يتّضحُ لنا أن الفَتْكَ (الجُرأة على الغزل الصريح ، قولاً وعَمَلاً) والمَجانةَ[3] أيضاً قد أحْدَثا رِدّةً في نفوس الشعراء العَبّاسيّين المُتأخّرين إلى الغزلِ العفيف يَنْسِجونَه على مِنوالِ الشعراء العُذْريّين في عصرِ بني أُميّةَ في تعابيرِ عصرِ بني العبّاس . بعدَ ذلك راحوا يَكْنُونَ عن عواطفِ النسيب في نفوسِهم بأسماءِ الأماكن المُقدّسةِ في الحِجاز خاصّةً ، ممّا شَفّ عن رَجْعة دِينيّة في نفوسِ هؤلاء فأَرَوْنا في شعرِهم المِثاليّ جانباً من خَصائصِ الشِعر الصوفيّ .

وهنالك تشبيهُ أعضاءِ المحبوب بأنواعِ السِلاح . ولقد كانوا قد سُبِقوا إلى ذلك - منذُ أيام الجاهلية - ولكن بما يتعلّقُ بالعُيون فقط . فتوسّعَ شعراءُ العصر العبّاسيّ في ذلك توسُّعاً شديداً . ومَعَ هذا كلّهِ فقد ظلّ في شعرِهم كثيرٌ من المُرْقِصِ والمُطْرِب .

ويُلاحِظُ القارىءُ أنّني لَمَسْتُ الشعرَ الصوفي لمساً خفيفاً ، في

---

(١) أسفّ : تدنّى ، انحطّ .

(٢) فشا : انتشر .

(٣) المجانة : قلّة الحياء .

جانبٍ ضيّق منه ، لأنّ التوسّعَ في الشعر الصوفي ينقُلُني إلى جوانبَ من الغزل والنسيب لم تكن مقصودةً في بحثي السابق .

الغزل بما هو غزل :

حينما ندرُسُ الغَزَلَ في الأدب العربي ، أو في غير الأدب العربي ، فإنّنا نُعْنى بالصِفات التي أحبّها الرجل في المرأة . هذه الصِفاتُ لم تختلفْ (في نَظَرِ الرجل) ، على مَرِّ الزمن ، اختلافاً كبيراً . إنّ التعبيرَ عن هذه الصِفات كان يختلفُ (على لسانِ الرجل) بين عَصْرٍ وآخَرَ ، لأنّ الإنسان عادةً يُعبِّرُ عن أفكارِه وآرائه بتعابيرَ يألَفُها المُعاصرونَ له .

والكلامُ في المرأة ـ كالكلامِ في كلِّ موضوعٍ آخَرَ ـ بحرٌ لا ساحلَ له . ولقد كنتُ أخذْتُ نَفْسِي باستعراضِ مظاهرِ الجَمالِ المادّيّ في المرأة في الشعر العربي ومررْتُ في هذا الاستعراضِ من الجاهلية إلى القرنِ السابعِ للهجرة (من القرن السادس إلى القرن الثالثَ عَشَرَ للميلاد) : ولم يكن من المفاجىء لي (كما أرى الآنَ ، بعدَ خمسينَ سَنَةً) أنّ الشاعرَ الإنسانَ كان ينظُرُ إلى المرأة من خِلالِ نفسِه (من خلال حاجتِهِ إلى المرأة) . وحُجّتي اليومَ أن الشاعرَ الجاهليّ والشاعرَ الأُمويَّ والشاعرَ العبّاسيَّ ـ وبكلمةٍ ثانيةٍ : الرجلَ في هذه الأعصُرِ الثلاثة ـ لم يُحِبَّ المرأةَ لأنّها آمرأةٌ فَحَسْبُ ، بلْ أحبّ صِفاتٍ مُعيّنةً حَرِص على أن يراها في المرأةِ ، كما يُحبُّ الرجلُ خصائصَ مُعيَّنةً يُريدُ أن تجتمعَ في البيتِ الذي يَبْنِيه (أو يسكُنُه) وفي الثوب الذي يلبَسُه (أو يَشتريهِ ثمّ لا يلبَسُه) وفي الطعامِ الذي يأكُلُهُ (أو يَضَعُه على مائدته) . أو كما

يُفَضِّلُ قِطعةَ العِملةِ الجديدةِ اللامعةِ الواضحةِ على غيرِها ، حينما يُريد أنْ يَقْبِضَها أو يَخْزِنَها أو يُنْفِقَها ، على قِطعةٍ من فِئتِها أقلَّ جِدَّةً ولَمَعاناً ووُضوحاً ، مَعَ أنّ قيمةَ القِطْعتَيْنِ في جَيْبِه أو في صُندوقِه أو في السوقِ واحدةٌ .

إنّ الإنسانَ العاديَّ ـ من أجلِ ذلك ـ يُحِبُّ ما يَتراءى في خيالِه ولا يُحِبُّ في العادة ، ما يُبْصِره بعينِه ولا ما يُدْرِكُه بعقلِه . ولو كان للجمالِ ، مَثَلاً ، عندَ جميعِ الناسِ ، مِعيارٌ واحدٌ (في خَيالِ جميعِ الناس) لَتَعَشّقَ جميعُ الرجالِ آمرأةً واحدةً ، ولَتَعَشَّقَتْ جميعُ النساء رجُلاً واحداً . ولكنّ الذي نراه في الواقع أن رَجُلاً يجمَعُ عدداً كبيراً من صِفات الجَمال في الرجالِ يتزوّجُ امرأةً (أو يعشَقُ امرأة) ليسَ فيها من صِفاتِ الجمالِ شيءٌ يُقِرُّ بِهِ الآخَرون (لأنّ ذلك الرجُلَ قد رأى بِعَيْنِهِ هو أو بخَيالِهِ هو أشياءَ في هذه المرأةِ رَبَطَتْهُ بها ربْطاً مُحْكماً) . وإنّ أحدَنا لَيَعْجَبُ إذا عَلِمَ أن أدْوَرْدَ الثامنَ مَلِكَ إنكلترةَ قد فَضَّلَ أن يترُكَ عرشَ بَريطانيةَ العُظمى بما يتبَعُ بريطانيةَ العظمى من إمبراطوريةٍ واسعةٍ في أنحاءِ العالم على أن يترُكَ امرأةً كان قد أحَبَّها (هي بَسِّي سِمْبسون) ـ وكان رَجُلانِ مِنْ قبلِه قد تَزوّجاها ثمّ طلّقاها .

ومعَ هذا كُلِّهِ فإنّني جامعٌ لك ـ فيما يلي ـ تلك الصفاتِ التي أحبّها الشاعر الجاهليّ في المرأةِ . غيرَ أنّي أريدُ أن أكونَ صادقاً مُخْلِصاً فيما أقولُ . إنّ هذهِ الصِفاتِ التاليةَ هي التي أعلَنَ الشاعرُ الجاهليّ أنّه يُحِبّها في المرأةِ . ولكنْ كم كان الشاعرُ الجاهليُّ يُصِرُّ

على آسْتِيفاءِ تلكِ الصفاتِ في المرأةِ التي كان يُتاحُ له أنْ يجتمعَ بها ؟

إنّ الإنسانَ الجاهليَّ قد أحبَّ في المرأةِ تلك الصِفات التي لا تزالُ محبوبةً في كلّ زمانٍ ومكانٍ إلى يومنا هذا ، مَعَ اختلافٍ يسيرٍ فيما يتعلّقُ بضَخامةِ المرأة ، وإن كان نَظَرُ الرجلِ قدِ اختلف ، بالإضافةِ إلى ضَخامةِ جسمِ المرأة ـ بالمِقدارِ فقط . إنّ هنري الثامنَ مَلِكَ إنكلترةَ لَمّا جِيء إليه بالمرأةِ التي يَجِبُ عليه أن يَتزوَّجَها ، بحَسْبِ القوانينِ المُتعلّقةِ بالعَرْشِ الإنكليزي وبمصَالِحِ المَمْلكةِ الإنكليزيةِ (ولم يكُنْ هو الذي اختارها) ، لم يَزِدْ على أنْ قال : تلكَ بَقَرَةٌ هُولندية .

وإليك ، الآنَ ، الصفاتِ التاليةَ :

يحسُنُ أن تكونَ المرأةُ أقربُ إلى الطُول ـ منها إلى القِصَر (على أن تكونَ دائماً أقصرَ من الرجل) ثمّ تكونَ مُمْتَلِئةَ الجِسم (مفصّلَةَ الأعضاءِ مجدولَةَ العَضَلات غيرَ مُسْترخِيَةٍ) مرتفعةَ الصدْرِ دقيقةَ الخَصْرِ عظيمةَ الكَفَلَيْنِ (وتلك صورةٌ كانتْ قريبةً جِدّاً إلى ما أحبَّه رجالُ القرنِ التاسعَ عَشَرَ عندَنا وفي أوروبّة أيضاً) . أمّا الغريبُ في ضخامةِ المرأةِ (في العصرِ الجاهليّ وفي العصر الأُمويّ أيضاً فَهِيَ أنْ تكونَ مِنَ السِمْنة بحيثُ تَعْجِزُ عن أنْ تقوم من قُعودِها وحدَها) .

ومعَ أنّ السُمرة كانت لونَ العرب ، فقد أحبّ الشاعرُ الجاهليُّ أنْ يكونَ الوجهُ أبيضَ مائلاً إلى الصُفرة (كَلَوْنِ الروم : اليونان) أو إلى الحُمرة (كلون الفُرْسِ) . ثم أحبَّ الخدَّ الأملس

المُستطيل (ولم يُحِبَّ الرأسَ المكوّر) . وأحبّ ، العُنُقَ الطويلة . أمّا الشَعْرُ فأحبَّه أسودَ كثيفاً طويلاً مَعَ سَعَةٍ في الجبين . وكذلك أحبّ الحاجبَيْنِ الرَقِيقَيْنِ (كأنّما خُطّا بالقلم) . وأمّا العينانِ فأحبَّ فيها أنْ تكونا كبيرَتَيْنِ واسعتين شَديدتا بياضِ المُقْلتين وشديدتا سَوادِ الحَدَقَتَيْنِ وأنْ تكونَ الأهدابُ في الأجفان كثيفةً مُتزاحِمَةً حتّى تَبْدُوَ مَنابِتُ تلك الأهداب الطِوالِ سُوداً كأنّما كُحِلَتْ بالإثْمِدِ (الكُحْل) .

ويحسُنُ أن يكونَ الفَمُ صغيراً وشَفتاه رقيقتَيْنِ سَمْراوَيْنِ (أو شَديدتَيِ السُمرة) ، كما يحسُنُ أنْ تكون اللِّثَةُ عجفاءَ (غيرَ متضخّمة) حمراءَ (كالرمل الخالص) أو مائلةً أيضاً إلى السُمرة ، مُبْتَلّةً غيرَ جافّةً ولا كثيرةَ البَلَلِ . وأحبّوا في الأسنان اعتدالَ حَجْمِها ونَقاءَ لَوْنِها وتَفَرُّقَها قليلاً وأن تكون مُؤشّرةً (خطوطُها ظاهرةٌ ، كما تكونُ أسنانُ الأطفال الصحيحةِ قبلَ أنْ يتراكمَ عليها ما يمنَعُ رُؤْيةَ تلك الخطوط) مَعَ طيبِ رائحةِ الفَمِ عُموماً وحلاوَةِ الريق .

وحَسُنَ عندَهُمُ الصدرُ إذا كان رحيباً وكان الثَدْيانِ فيه لا يزالانَ ناهدَيْنِ مُكوّرين . وأمّا الذِراعانِ والساعِدانِ والساقانِ فقد أحبَّ الجَاهليُّ فيها كُلِّها أن تكونَ مُمْتلئةً ريًّا (وناعمةً تُغطّي العِظامَ التابعةَ لها) بحيثُ يَعَضُّ السِّوارانِ على المِعْصَمَيْنِ ويَعَضُّ الخَلخالانِ على مَوْضِعِهِما من أسفلِ الساق فَوْقَ القدم .

فإذا نحنُ نَظَرْنا إلى هذهِ الصفاتِ مُتَفرّقةً (ما عدا البَدانةَ المُفْرطةَ) لم نَشُكَّ في أنّها صفاتٌ مُحَبَّبةٌ إلى النفس في الأعصر كُلِّها والأماكِنِ كُلِّها . ولكنّي لا أعْرِفُ إذا كانتْ كُلُّ هذه الصِفاتِ

يمكنُ أنْ تجتمعَ في جسمِ آمرأةٍ واحدةٍ ، ولا أستطيعُ أن أقولَ ـ ما دامَ الجَمالُ هو التناسُبُ بينَ الأعضاء ، في الشكْلِ والوضعِ واللون ـ إنّ مِثْلَ هذا الجِسمَ إذا اجتمعتْ فيه كُلُّ هذه الصفاتِ على ما قيلَ فيها يمكنُ أن يكونَ جميلاً . نحن نعلَمُ أنّه كان لليونان مقاييسُ لجمالِ الأجسام ، ولكنّ الموازنةَ بينَ المقاييسِ العربيةِ الجاهليةِ والمقاييسِ اليونانيّةِ القديمةِ يحتاجُ إلى دراسةٍ مُستقلّةٍ .

إنّ العربيَّ الجاهليّ قد أحبَّ الصِفاتِ التي كانتْ في المرأةِ المُعاصرةِ له في بيئَتِه ، كما يُحِبّ الرجَلُ الجِرمانيُّ في بِيئته المرأةَ الجِرمانية ، وكما يُحِبّ الزنجيّ المرأةَ الزَنْجيّة ، كما يحبّ الصِينيّ المرأةَ الصِينيّة . أما إذا وَجَدْنا رجُلاً فَرَنْسيّاً يَرْغَبُ في آمرأةٍ زُنْجية ،أو رَجُلاً صِينيّاً يَتَدَلَّهُ بامرأةٍ دنماركيةٍ ، أو رجُلاً زَنْجياً تقتصرُ رَغْبته على امرأةٍ صينية ، فذلك يكونُ في الأدْوارِ الشاذّةِ النادرةِ مِن حياةِ الفَرْدِ ، حينما يكونُ ذلك الفردُ لا يزالَ قَلِقاً . إنّ في الصِلة بينَ الرجلِ والمرأةِ عاملاً نَفْسانيّاً خَياليّاً يَطْغى في كثيرٍ من الأحيان على العاملِ الماديّ الطبيعيّ . وهذا العامل النفسانيُّ متقلّبٌ جِدّاً ثمّ هو مُختلفٌ بينَ الفردِ اختلافاً كثيراً ، كما يختلفُ في الفردِ الواحدِ نفسِه بِحَسْبِ أحوالِهِ الطارئة .

جانب العلم
في دراسة الأدب والفلسفة

إذا كان من غير الممكن أن نَبْنِيَ دراساتِنا في الأدب والفلسفة على أُسُسِ المَنطِق وقواعدِ العلم بناءً تامّاً ، فإن من غير المعقول أن نُجانِبَ هذه الأسسَ والقواعدَ في دراسةِ الأدب والفلسفة مُجانبةً تامّة .

إن العربَ لم يألفوا بعدُ في تاريخهِمُ الحديث مُعاناةَ العلوم الرياضية والطبيعية . إننا لا نزال في واقعنا الحاضر أميلَ إلى الاتجاه الشخصيّ في معالجة الأمور ؛ ومن هذه الأمور أمورُنا العِلمية والأدبية والفِكرية . وإذا كان اليومَ في عددٍ من بِقاع الوطن العربي نفرٌ من العلماء ومن الذاهبين في الأمور مذهبَ العلم، ومذهب العلم الرياضي والطبيعي ، فإنّ مثلَ هذا المذهبِ لم يُصبحْ بعدُ ثقافةً عامة لِجيلنا المُعاصر ولا هو الطابَعُ الغالبُ على الباحثين في الموضوعات الأدبية والفلسفية .

إن هذا الإنفصالَ الذي نراه بينَ جانبِ العلم وجانبِ الأدب

(*) هذا الفصل كان قد أعدّ (٢ / ٥ / ١٩٦٢ م) ليكون محاضرة .

خاصّةً ، في مُعظَمِ الكتب التي تملأ الأسواق والمكاتبَ ثم تُسيطر على توجيهِ الناشئين ، راجعٌ إلى افتراضٍ خاطىءٍ مبثوثٍ هنا وهنالك هو أنّ الإنسانَ يُولَدَ مُتّجهاً نحو العلم أو نحو الأدب . من أجلِ ذلك نَجِدُ بينَ المُشتغلين بالأدب نفراً كثيرين يعتقدون أنْ لا استعدادَ لهم للإنتاج العِلمي ولا للاتجّاه العلميّ ، وأنّ عقليّتَهُم أدبيةٌ مقطوعةُ الصِلة بالمناهج المنطقية مرتبطةٌ بالوُجدان الخالص والذَّوْق الشخصيّ . ويقتنع هؤلاء بما تجسَّم في خيالهم فيَنْطلِقون يُجيلون وُجدانَهم وأذواقَهم في تُراثنا الفِكري يختارون الرواياتِ التي تُلائم أذواقَهم تلك ، ثم يُصدِرون الأحكامَ التي تستهوي وُجدانَهم . ويتّفقُ أن يُرزقَ نفرٌ من هؤلاء أُسلوباً برّاقاً شائقاً فيُضفي أسلوبُهم هذا على تلك الأحكامِ لِباساً من الصواب الظاهر .

ويعظُم هذا السوءُ حينما يَصِلُ الناشئون إلى مرحلة التعليم العالي ويَقِفون ، إذا قُيِّضَ لهم أن يَقِفوا ، على عَتَبة الجامعة . إن مُعظم هؤلاء الناشئين يختارون أن ينتسبوا إلى الكُلّيات التي تعلّم الموضوعاتِ الاجتماعيةَ من الأدب والفلسفة والاجتماع والسِياسة ، لا لأنهم ذَوُو مواهبَ تُلائِمُها الموضوعاتُ الاجتماعيةُ ، بل هَرَباً من قُيود العلم ومناهجِ التنظيم الفِكري من تلك التي تَفرِضُها الكُلّياتُ العِلمية في الهَندسة والطِب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات الخالصة .

ويتّسع هذا السوءُ أحياناً على أيدي الأساتذةِ أنفُسِهم .

حينما يتقدّم طالبٌ إلى دخول الجامعةِ ثم يَجِدُ الأساتذةُ أن هذا الطالبَ ضعيفُ الاستعدادِ فإنهم يَنْصَحونه بأنْ يتحوَّلَ عن

دراسةِ العِلم والطِب والهَندسة إلى دراسة الآداب . إن في مثلِ هذه النصيحة إساءةً إلى الطالبِ نفسِه وإلى العلم معاً . إذا كان الطالبُ ضعيفَ الاستعدادِ فإنه سيكونُ طالباً ضعيفاً أينَما حلّ : في كلّيّة الهندسة أو في كليّة الآداب . ولنا في واقع الطُلّاب الذين هم من هذا الصِنف من الناس أدِلّةٌ قاطعةٌ قبل تخرُّجِهم في الجامعات وبعدَ أن يُعْطَوُا الشَهادةَ . غيرَ أنّ الطالبَ الذي لا ينجَحُ في الكلّيّات النظريةِ يُمكِنُ أن ينجحَ في ميادينِ الحياةِ المختلفة : في التجارةِ وفي الصِناعة اليَدَوية وفي الإشراف على الأعمال وفي دوائر الدولة في عدد من الأحيان . أعْرِفُ من حياتي المدرسية القديمة شابّاً كان قد رَجَع من الولايات المُتّحدةِ يحمل شهادةَ الدكتوراه في التربية . وتقدّم هذا الشابُّ في ذلك التاريخ السَحيق إلى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت فتعاقدَتْ معَه الجمعيةُ وقلبُها يطفَحُ سروراً بأنّها وقعت على كَنْزٍ : على شابٍّ يحمل شهادة الدكتوراه في التربية .

وعُهِدَ إلى الأستاذِ الجديدِ بأنْ يُعَلِّمَ في صف الفلسفة . ثم رأى المديرُ أنه قد تسرَّع قليلاً ، فإن هذا الأستاذَ ليس له اختبارٌ كثيرٌ فيَحْسُنُ أن يُعْهَدَ إليه بالصفِّ الذي هو دونَ صفِّ الفلسفةِ مُباشرةً . ثم تدرّج حضرةُ المديرُ بهذا الأستاذ الجديد في صُفوف المدرسة هُبوطاً حتّى وصل به إلى صفوف الحديقة . وفي آخر السنة رأتْ جمعيةُ المقاصد أن تُعْفِيَ هذا الأستاذَ من التدريس في معاهدها . غيرَ أن هذا لم يمنعْ هذا الأستاذَ القديمَ من أن يكونَ اليومَ من أصحابِ الأعمال الناجحين ، ولا شكّ في أنه يَمْلِكُ ثروةً لا بأسَ بها . لقد أضاعَ هذا الرجُلُ خمسَ سَنوات من حياته في تحصيل

شَهادةِ الدكتوراه في التربية ثم أضاعَ من حياته ومن حياةِ الطلاب في كلية المقاصد عاماً سادساً . إن التعليم الجامعيّ ليس في الحقيقةِ حقّاً لكلّ طالبٍ ، ولكنّه امتيازٌ للقادرين عليه . إن الطالب الذي لا يستطيع النجاح في العلوم لا يستطيعُ أن ينجحَ في ميادينِ الآداب وإن كانتِ الجامعاتُ تُعطيه شهادةً في عدد من الأحيان .

إن العلوم الرياضية والطبيعية تُكْسِبُ الذهنَ تنظيماً واقتداراً على معالجة الأمور . ونحن بحاجة إلى هذا التنظيمِ والاقتدار سواءٌ علينا أكُنّا ندرُسُ الهندسةَ أمِ الطبَّ أمِ الأدبَ أمْ فنَّ الرسم . إن العقلَ واحدٌ ، ولكن أوجُهَ نشاطِه مُختلِفاتٌ .

لعلّي أمْلَلْتكُمْ بهذه المُقدّمةِ الطويلةِ العامّة ، فأريدُ أن أنتقلَ الآنَ إلى أربعةِ أمثلةٍ من دراسةِ الأدب ودراسةِ الفلسفةِ ، ما دامَ نفرٌ كثيرون من الدارسين يُعامِلون الفلسفةَ مُعاملةَ الأدب .

ومعَ أن الفلسفةَ ليست في ميزان العلم أعلى مقاماً من الأدب ولا هِيَ في ميزان الاجتماع أدنى رُتبةً ، فإنّ نِطاقَ العلم والفلسفة من جانبٍ ثمّ نِطاقَ الاجتماع والأدب من جانبٍ آخَرَ مُختلفانِ .

لنبدأ بالأدب من حيث يبدأُ تاريخ الأدب :

في تاريخ الأدب أن أمرأ القيس تلقّى نَعْيَ أبيه وهو يَشرَبُ الخمر بمكان اسمه دمّون فقال : « اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ » . وهذه رواية وردتْ في عدد من كتب الأدب فأخذها معظم الدارسين المُحْدَثين وقَبِلوها في كتبهم ومحاضراتهم . ومعَ أن هذه الرواية غيرُ معقولة، فلم يكن بإمكان أحدٍ أن يرُدَّها ، ذلك لأن تاريخَ الأدب من العلوم

النَقْلية التي تعتمدُ الروايةَ وحدَها أو التعليلَ إذا أمكنَ ، ولكن بالاستناد إلى الرِواية .

وفي عام ألفٍ وتِسعمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ صَدرَ ديوانُ عَبيدِ بنِ الأبرص الأسديّ ، وهو شاعرٌ معاصرٌ لأمرىء القيس وأسنُّ منه . وكان عَبيدٌ من زُعماء بني أسدٍ الذين ثاروا على حِجْرٍ والدِ آمرىءِ القيس وقاتلوه وقَتَلوه . ويبدو أن امْرَأَ القيس وإخْوَةَ امرىء القيس كانوا في المَعْركة مَعَ أبيهم يقاتلون بني أسدٍ ويدافعون عن مُلْكِهم في نَجْدٍ . ولقد خاطبَ عَبيدُ بن الأبرص امرَأ القيسِ فقال له :

ولقد أبَحْنا ما حَمَيْـ ـتَ ، ولا مُبيحَ لِما حَمَيْنا .
هذا ، ولو قَدَرَتْ عليـ ـكَ رِماحُ قومي ما انْتَهَيْنا !

ثم إن عبيداً عيَّر امرَأ القيس هَرَبَهُ من المَعركة فقال له :

ورَكْضُكَ لولاهُ لَقِيتَ الذي لَقُوا ؛ فذاك الذي أنْجاك مِما هُنالِكا !

فسقطت بذلك الروايةُ التي تتعلّق بدَمُّون ووَجَبَ أن تَحِلَّ مَحَلَّها هذه الروايةُ التي يَرْويها مُعاصِرٌ لامرِىءِ القيس . ومعَ ذلك فلا يزالُ الدارسون ، بعد سبعين عاماً من صُدورِ ديوانِ عَبيدِ بنِ الأبرص يتعلّقون برواية دَمّون ، كأنّهم لم يقرأوا ديوانَ عَبيدٍ قطُّ . ولعلَّ مُعْظَمَهُمْ لم يقرأْ هذا الديوان .

وفي دراسةِ حياة طَرَفَةَ بنِ العبدِ البَكْريّ يُجانبُ مُعْظَمُ الدارسين سبيلَ العِلم ، فيذكُرون أنّ عَمْرو بنَ هندٍ ملكَ الحِيرة غضب على طَرَفَةَ وعلى خالهِ المُتَلَمِّسِ وكتب لهما كتابَيْنِ إلى المُكَعْبر عاملِهِ على البَحْرين وأوْهَمَهُما أنه أمرَ لهما في ذَيْنِك

الكِتابين بجائزةٍ يَقْبِضانها من المُكَعبر . وتزعُمُ الروايةُ أن المتلمِّس شكّ في الكتابِ الذي يحمله ففضّه ثم دفعه إلى صَبيّ من صِبيانِ الحِيرة فإذا في الكتاب أمرٌ للمُكعبر بقتل المتلمّس . فقال المُتلمّسُ عندَ ذلك لابنِ أخته طَرَفَةَ : « ما في كتابِك إلاّ مِثْلُ الذي في كتابي » . فلم يشأ طرفةُ أنْ يصدّق خالَه . فمَزّق المتلمّسُ كتابَه ونجا بنفسِه . ومضى طَرَفَةَ لِطِيّته حتى وَصَلَ إلى المُكعبر ، فإذا في كتابهِ أيضاً أمرٌ للمُكعبرِ بقتلِ طَرَفَةَ . وآمَرَ المكعبرُ طَرَفَةَ في الهَرَبِ فلم يشأْ طَرَفَةُ أن يَهْرُبَ وآثَرَ الموتَ على شَريطةِ أن يَسْقِيَه المُكعبرُ خَمْراً ثم يَفْصِدُ أكْحَلَه حتّى يموتَ .

وإلى جانبِ هذه الروايةِ التي تُجانبُ العقلَ كلَّ المُجانبةِ روايةٌ ثانيةٌ تذكُرُ أنَّ طَرَفَةَ كان صديقاً لعمرِو بن مامةَ أخي عمرِو بن هندٍ لأبيه ، وأن طَرَفَةَ وعمرَو بنَ مامةَ ذهبا إلى اليمن في تجارة للإبِلِ فخَرَجَتْ عليهما غارةٌ قُتِلا فيها كِلاهُما . ولكن مُعْظَمَ الدارسينَ يَرَوْنَ ما يُجانبُ العقلَ أحقَّ بالاهتمام مما يُناسِبُ العقلَ ، لأن الأدبَ ليسَ من العلومِ التي تستندُ إلى العقلِ في رأيهم .

وأغربُ من ذلك في شأنِ طَرَفَةَ عندَهم أن طرفةَ عاشَ سِتاً وعِشرينَ سنَةً .

إنّ طرفةَ ماتَ باكراً بلا ريبٍ ، ويبدو لي أنه كانَ قد جاوزَ الثلاثينَ من عُمُرِه لمّا قُتل في غارة اليمن . غير أنّ كثيرينَ من الدارسين يُصِرّون على أن طرفةَ تُوُفِّيَ في السادسةِ والعِشرين من عُمُره ويستشهدون على صحة قولِهِمْ ببَيْتَيْن للخِرْنِقِ أختِ طَرَفَةَ فيما قيل ، هما :

عَدَدْنا له سِتّاً وعِشرينَ حِجّةً ، فلمّا تَوفّاها اسْتوى سَيِّداً ضَخْما .
فُجِعنا به لما رَجَوْنا إيابَه على خير حالٍ لا وليداً ولا قَحْما !

لِنَفْرِضِ الآنَ أنّ البيتينِ للخِرْنِقِ ، وأن الخِرْنِقَ هذه هي أُختُ طرفةَ ، وأن هذين البيتين قد قيلا في طَرَفَةَ بنِ العبدِ البَكْريّ . ففي البيت الأول تقول الشاعرة إن مَنْ تَعْنيه قد سادَ في قومه لمّا بلَغَ السادسةَ والعِشرين من العُمُر . وليس في البيت ذِكْرٌ للموت ، إلا إذا كان هؤلاء يظنّون أن « تَوفّاها » (في البيت الأوّل) معناها « مات » . إنّ كل ما في هذا البيت الأوّل أنّ المَعْنيَّ بهِ قد ساد قومَه لما أتَمّ السادسةَ والعِشرين من العُمر ، وهذا مَعنى « توفّاها » .

أما في البيت الثاني ففيه أن الشخص المذكور قد مات في سَفْرة كان يرجى أن يَعودَ منها غانماً . ثم أن في البيت الثاني دليلاً على أن المَرْثيّ لم يكنْ وَليداً ، ولا كان أيضاً قَحْماً ؛ والقَحْمُ هو الكبيرُ السنِّ جِدّاً ، كما في القاموس .

لِنُغادِرْ الآنَ أرضَ الأدب إلى أرضِ الفلسفةِ ولنَسْتَرِحْ قليلاً على تُخومِ الأرضَيْنِ .

لأحدِ شيوخِ الأدبِ في العصر الحاضر قولٌ هو أنّ الشِعر لغةُ العاطفةِ وأنّ النثرَ لُغَةُ العقلِ ، ودليلُه على ذلك أن الفلسفةَ اليونانية كُتِبَتْ بالنَثْر .

إن هذا القول خليقٌ أن يُحلَّلَ في كتاب .

أنا لا أنكِرُ ، ولا يجوزُ لغيري أن يُنْكِرَ ، أننا إذا أردْنا أن نُعَبِّرَ عن عواطِفنا فإننا نَستعينُ على ذلك عادةً بالشعر ؛ وأما إذا أردنا أن

نُعالج موضوعاً فِكريّاً فإننا نلجأُ في ذلك إلى النثر . غيرَ أن ذلك ليس قاعدةً فاصلةً .

لَمّا فرّع اليونانيون القدماءُ أنواعَ الشِعر وَجدوها أربعةً : الشعرَ الغِنائي والشعرَ المَلْحميّ والشعر التمثيلي والشعر التَعْليمي . والشعرُ التعليميّ الذي عَرَفَتْهُ الأممُ المتحضّرةُ كلُّها لا صِلَةَ له بالعاطفةِ . ومعَ ذلك فاسْمه شِعرٌ . وأيّ عاطفةٍ في قولِ ابنِ مالكٍ في ألْفِيّتِه المشهورة في تَعْدادِ الأماكن التي تُكْسَرُ فيها همزةُ « إن » :

واكْسِرْ في الابتدا ، وفي بَدْءِ صِلَهْ ، وحيثُ « إنّ » ليمينٍ مُكمِلَهْ
وكَسَروا من بعدِ فِعْلٍ عُلِّقا باللامِ كاعْلَمْ إنّه لَذو تُقى !

ثم إن ابنَ خَلدونٍ ، وهو من نعلَمُ في تاريخ الفِكر وفي إصابة الرأيِ ، كان يَنْزِعُ عن ديوانِ المتنبّي صِفةَ الشِعر فيقول : « وكان مَنْ لَقِيته من شُيوخنا لا يَعُدّون المتنبي في الشعراء » ! إنّ شعرَ المتنبي عند ابنِ خَلْدونٍ ، وعندَ شُيوخ ابنِ خلدونٍ ، كان ضرباً من ضُروب الحِكمة وباباً من أبواب العقل . وكذلك القول المشهور : « أبو تمّامٍ والمتنبي حكيمانِ ، والشاعرُ البحتريُّ » دليلٌ آخَرُ على أن الشِعر لم يكن دائماً لُغةَ العاطفة ، بل كان في كثيرٍ من الأحيان ، عندَ نفرٍ من النقّاد ، لغةَ العقل . وإذا كنّا نحن جميعاً نُفضِّلُ الشعر الذي هو من باب العاطفةِ على الشعرِ الذي هو من باب العقل ، فإنه لا يجوزُ في بابِ العلم أن نَخُصَّ الشعرَ بالعاطفة وحدَها ، أو أن نَخُصّ العاطفة بالشعرِ وحدَه .

وبعدُ ، فَمَنِ الذي روى لنا أن الفلسفةَ اليونانية لم تكُنْ إلا في النثر . إن اليونانيينَ الأوّلينَ لم يفرّقوا عند تَدْوين الفلسفة بينَ النثر

والشعر . إن اكْنوفانِسَ مؤسّسَ المذهبِ الإيلي ثم بَرْمينيذِسَ زعيمَ ذلك المذهبِ ثم أنبذُقْليسَ فيلسوفَ الطِبّ والعلومِ الطبيعية ، وهُمْ مِن المشاهيرِ في تاريخِ الفلسفةِ القديمةِ، قدِ اختاروا أن يُدَوِّنوا فلسفتَهُمْ شِعراً . وكذلك كريتياسُ السُفْسطائي ويامبليخوس الذي كان من عَنْجَرَ ، في سهل البقاع ، على نحوِ خمسينَ كيلومتراً من مدينةِ بيروتَ ، قد دوّنا فلسفتَهما في الشِعر أيضاً .

إن الشعرَ ألصقُ بالعاطفة ، لا ريبَ في ذلك ؛ وإن طبيعةَ النثر أقربُ إلى العقلِ ، ما في ذلك شكٌ ؛ ولكنّنا لا نستطيعُ أن نُوافِقَ الذين يُريدونَ أن يُقيموا بينَهما سِتاراً حديديّاً .

ونأتي الآن إلى النثر .

لَمّا صَدَعَ محمّدٌ ﷺ بالدعوة ونَزَلَ عليه القُرآن الكريمُ وَجَمَ العربُ الجاهليون ثم قالوا عن مُحمّدٍ إنه شاعرٌ وعنِ القرآنِ إنه شعر . وما كان العربُ غافلين عن مواقعِ البلاغة ولا جاهِلين أنّ هذا الذي يقرأونه في المُصْحفِ أو يَسْمَعونه من الرسولِ نفسِه ومن القُرّاء كان نثْراً لا صِلَةَ بينَه وبين أوزانِهمُ المألوفة . ومعَ ذلك فقد كان هذا الذي يَسْمعونه من القرآن عندهم شِعْراً لا شكّ فيه البتّةَ، وردّدوا قولَهم هذا حتى دافعَ الله تعالى عن رسُولِهِ الكريمِ فقال فيه : **﴿ وما عَلَّمناهُ الشِعْرَ وما يَنْبَغي له ! ﴾** .

ثم ما نقولُ نحنُ عن هذا الفيضِ الذي يزيدُ على الفَيْضِ من النثر الخَياليّ ومِنَ القِصص الغرامية التي تضيقُ بها مكاتبُنا وتَضِجُّ ؛ أهِيَ من مَنْطِقِ العقل أم من عَرائِسِ الخيال ؟ أهِيَ من الكلام المنثور أم من الكلام المنظوم ؟

وبعدُ أنِ آسْترحْنا قليلاً على تخومِ الفلسفة نرى أن نُوغل في أرضِها قليلاً .

يتكلّم نفرٌ من الدارسين على الفلسفة الإسلامية ويجعلونها فلسفة تَوْفيقية بينَ العقل والدين .

إن التوفيق بينَ العقل والدين فِكرةٌ عظيمة جميلة ؛ ولكن هلْ كانتِ الفلسفة الإسلامية التي نَعْرِفها فلسفةً توفيقيةً بالمعنى الذي يقصده هؤلاءُ الدارسون ؟ لِنَسْتَعْرض آراءَ نفرٍ من فَلاسفةِ الإسلام في هذا الموضوع .

إن الفارابي يجعل السُكنى في مدينته (دولته) الفاضلة قاصرةً على الذين يذهبون مذهبَه في التفكير : وكان الفارابي من الذين يؤمنون بالفيضِ ، أي بأنّ هذا العالَمَ فاضَ من الله ضرورةً وبغير تَراخٍ في الزمن ، وليس في وجودِ العالم إرادةٌ قديمةٌ أو خِيَرَةٌ ، ولا فارقٌ في الزمن بينَ وجودِ الله وفيضِ العالم منه . وكذلك يرى الفارابي أن الخلودَ رُوحيّ وأن الأجسامَ لا تُبعث ، ثم هو يرى أن النُبوّة إنما هي للقُوة الخَياليّة . وإخوان الصفا يَرَوْنَ أنَ جميعَ الأديان ناقصةٌ ، وأنه لا بدَّ من سدِّ نقصِها بالفلسفة . أما ابنُ سينا فيعتقدُ أنه كلّما حَدَثَ في الأرضِ جسدٌ صالحٌ للحياة حدثَتْ له نفسٌ خاصة به . وهو لا يَدْري من أينَ جاءتِ النفس ولا ما يحدُثُ لها بعدَ مُفارقتها للبدن . ثم أنه يرى أيضاً أن الحُكماء الإلٰهيين يَرْغبون في خلودٍ غيرِ الخلودِ الذي جاءتْ به الأديان . وأما الغزّاليُّ فجعلَ هَمّه تهديمَ الفَلسفةِ ثم كفّر الفلاسفةَ والذين اتّبَعوهم . ونَسِيتُ علماءَ الكلام . إن الاشعريةَ من علماءِ الكلام كانوا يقولون : إذا اختلف

العقلُ والنقل فاتْبَعِ النقلَ ؛ والنقلُ هو الذي جاء به الدين . وأما خصُومُهُمُ المعتزلةُ فكانوا يقولون : إذا اختلفَ العقلُ والنقل فاتْبَعِ العقلَ .

وتنتقل بنا الفلسفةُ من المشرق إلى المغربِ من غيرِ أن تَمُرَّ بنا على فيلسوفِ حاول التوفيقَ بينَ الدينِ والفلسفة على النحوِ الذي أشارَ إليه أنصارُ هذه الدعوى . إن ابنَ باجّه يرى أن الوجود غيرُ مُتناهٍ ، وأن البشر أنفُسَهُم خالدون أزلاً وأبداً . أما ابن طفيل فبني كتابَه الوحيدَ : « قِصةَ حيٍّ بنِ يقظانَ » على النشوءُ المُرتجل للبشر من باطن الأرض بقوانينَ طبيعيةٍ ، ثم إنه جعَلَ الفردَ الفائقَ الفِطرةِ يُعلِّمُ نفسَه ويَسْتغني بعقله عن النبوّة . وأما ابنُ رشدٍ فيكفينا من آرائه في هذا البابِ رأيٌ واحدٌ ، هو أنه إذا ظهَرَ خِلافٌ بينَ الفلسفةِ وظاهرِ الشرع فعَلَيْنا أن نفهَمَ الفلسفةَ على ظاهرِها وأن نتطلّبَ لِظَاهِرِ الشرعِ تأويلاً يقبَلُه العقل .

فأينَ نَجِدَ لهؤلاء الفلاسفةِ قولاً في التوفيق بين الفلسفة والدين يُراد به أن تكونَ غايةُ الدين وغايةُ الفلسفة واحدةً أو أن يكونَ طريقاهُما متوازِيَيْنِ ؟ بل كيفَ يمكنُ أن يكونَ هؤلاء الفلاسفةُ قد جعلوا الفلسفةَ موافقةُ للدين واعتقدوا ذلك ونحن نجدُ أن الفقهاءَ قد كفّروا الفلاسفةَ أجمعينَ . حتّى الغزّاليُّ حُجّةُ الإسلامِ فإن كُتُبَه قد حُرِّقَتْ في المغرب لأن الفقهاءَ وجدوا فيها تفلْسُفاً ووجَدوا أن هذا التفلسفَ لا يوافقُ الدينَ بحالٍ .

غيرَ أن الذين تكلّموا في التوفيق بينَ الدين والفلسفة عندَ الفلاسفة الإسلاميين قد خُدِعوا بتعبيرٍ كان يُوصَفُ به نفرٌ من أولئك

الفلاسفة ، هو : « وكان ابنُ طفيلٍ » ، مثلاً ، « يجمَعُ بينَ الحكمة والشريعة » .

ولكلمة « الجَمْعِ » في الفلسفةِ الإسلامية معانٍ مختلفة : فالجَمْعُ عند المتصوّفين هو ذَوَبانُ شَخْصيّة الإنسانِ الفردِ في العِزّة الإلَهية حتى لا يَبْقى في الوجودِ إلا اللّهُ . والجمْعُ عند الفارابي قريبٌ من مَعْنى التوفيق الذي قَصَده أولئك الدارسون . للفارابي رِسالةٌ اسْمُها « الجَمْعَ بينَ رأيَي الحَكيمين أفلاطونَ الآلهي وأرسطو-طاليسَ » يذهَبُ فيها إلى أن كثيراً من آراء هذين الفيلسوفَيْن يختلفُ التعبيرُ عنها عند أفلاطون وأرسطو ، ولكنّ المَقْصُودَ منها عندَهُما واحدٌ . ولقدِ استطرد أولئك الدارسون ، بشيءٍ من التنجيم ، إلى أنّ الفارابي تكلّم على التوفيق بين أفلاطون وأرسطو حتّى يوفّق بين الدين والفلسفة ، زَعْماً لعمرُ أبيك ليسَ بمَزْعِمٍ ، كما يقولُ عَنترة عن أولئك الذين يَرَوْنَ إنّ حُبّ عنترةَ لِعَبْلَة كان عَرَضاً سَطْحيّاً لأنه كان يكْرَهُ أهلَها ويُقاتِلُهم :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتلُ أهْلَها ؛ زَعْماً ، لَعَمْرُ أبيك ليسَ بمَزْعَمِ

ونعود إلى الجَمْعِ بينَ الحِكمة والشريعة .

أما عند فلاسفةِ المغرب ابنِ باجّه وابنِ طُفيلٍ وابنِ رُشدٍ ، وعندِ فيلسوفِ المشرقِ ابنِ سينا أيضاً ، فإن الجميع بين الحِكمة والشريعة إنّما هو السُلوكُ في الحياة مَسْلَكَيْنِ مُخْتلِفَيْنِ : مسلَكاً مَعَ الناسِ ومسلكاً إذا كان الفيلسوفُ وحدَه أو مَعَ أنداده . وعُمدةُ الجمع بينَ الحِكمة والشريعة ، أو بينَ الدينِ والفلسفة ، أو بين المَعْقول والمنقول ، أو بين العَقْل والنَقْل ، هو أن يعتقِدَ الفيلسوفُ أن الدينَ

ضَروريٌ في الحياةِ وأنّ الفلسفة أيضاً ضَروريةٌ في الحياة . غير أنّ للدين نِطاقَه الواسعَ في المُجتمع ؛ إذ هو الوازِعُ الاجتماعي الوحيدُ والصحيحُ ؛ ولا سبيلَ إلى أنْ يُحْمَلَ البشرُ على عملِ الخيرِ في الدنيا ، عند هؤلاءِ الفلاسفة ، إلاّ بالدين . فعلى الفلاسفةِ أيضاً أن يتمسّكوا بظاهرِ الدين أيضاً ، كما يفعَلُ سائر الناس ، حتّى لا يَفْسُدَ الوازِعُ الاجتماعي بينَ البشر . وأما في نِطاق الفكر وفي الحياة المُغْلَقَةِ بينَ المُفكّرين من ذَوِي الفِطْرة الفائقة فالآراء الفلسفيةُ هي المُعْتَمَدَةُ وحدَها . وهكذا يجمَعُ الفيلسوفُ بينَ الشريعة في حياتِه مَعَ الناس إلى الحِكمةِ إذا كان مَعَ أنداده . فإذا كان هذا هكذا ، فمن أينَ جاء التوفيقُ بينَ الدين والفلسفة بالمعنى الذي قَصَدَهُ النفرُ الذين عَنَيْنَاهُمْ ؟ وأيُّ فلاسفةِ الإسلام ، كلِّ فلاسفةِ الإسلام ، ذكَرَ أن الدينَ والفلسفة شيءٌ واحدٌ ؟ بل أيُّ فُقهاءِ الإسلام رَضِيَ أن تُصْبِحَ الفلسفةُ ، كما يَفْهَمُها الفلاسفةُ ، على مُستوىً واحدٍ مَعَ الدين ؟

ولقد يعترضُ أحدٌ على هذا القولِ فيقولُ : « ولكنّ الشرعَ لا يُخالِفُ العقلَ » . إن هذا صحيحٌ ، والشرعُ لا يُمْكِنُ أن يُخالِفَ العقلَ أبداً . إلا أنّ موافقةَ الشرعِ للعقلِ بابٌ آخَرُ من أبواب البحث . ثم إنّ هذا لا يَحمِلُنا على القَفْزِ إلى أنّ الدينَ هو الفلسفةُ وأن الفلسفةَ هي الدينُ ، وإلى أنه يُمْكِنُ أنْ تَحِلّ مَحِلّه أو يَحِلَّ مَحِلَّها في التفكير والحياة .

لست الآنَ في مقامٍ من يريد أن يَفْصِلَ القولَ بين الفقهاء والفلاسفة في صِلة الدين بالفلسفة ، ولكنني في مقام من يأخذ على

نفرٍ من الدارسين المعاصرين مُعالجَتَهُمْ للقضايا الفلسفية أحياناً مُعالجةً هَوْناً غيرَ ناظرين إلى مقاييسِ العلم ولا إلى المناهجِ المنطقية عند البحث . إن النِزاعَ المريرَ بين الدين والفلسفة ، أو بين العَقْل والنَقْل ، قد بدأ مَعَ علماءِ الكلام قبلَ أن ينتهيَ القرنُ الأوّلُ للهجرة ثم استمرّ قُروناً كثيرةً بعدَ ذلك ، ومَعَ ذلك فإن نفراً من الدارسين المعاصرين لا يزالون يذكُرون التوفيقَ بينَ الدين والفلسفة على معنىً لم يَرِدْ عند فلاسفتنا ثم يزعُمون أنه لا يُخالِفُها وأنها لا تُخالِفُه . هذا مَعَ العلمِ اليقينِ بأنّ جميعَ فلاسفتنا بلا استثناءٍ اعتقَدوا الدينَ وأحلّوه مكاناً سامياً ، غيرَ أنهم جعلوه شيئاً غيرَ الفلسفة ، حتّى أن ابنَ رشدٍ جعلَ الحِكمة صاحبةً للشريعة ثم جَعلَهُما أُخْتَيْنِ رَضيعَتَيْنِ ، ولكنّه لم يقبلْ أن تَحِلّ إحداهما محل الأُخرى ؛ ولا يجوزُ لنا نحن ذلك .

إن الذي أرمي إليه من كلّ ما تقدم أن أقولَ :

إذا نحنُ جئنا إلى تأريخ الفلسفةِ فيجبُ علينا أن نَرْوِيَ عن الفلاسفةِ آراءهم على وَجْهِها ، لا أن نَنْسِبَ إليهم آراءنا نحن . إن نفراً كثيرين من الدارسين يسلُكون مَعَ الأسفِ مذهبَاً مُجانِباً للصواب : يكتُبُ قومٌ عن الفارابيّ أو عنِ المتنبي فلا تَرَى في ما يكتُبون إلّا آراءَهم ؛ أمّا رأيُ الفارابيّ أو رأيُ المتنبي فيكونُ في غَيابةٍ من مَنازِعِهِمْ هم وفي خيالٍ من هُواهُمْ هم .

إن الدراساتِ الأدبيةَ والفلسفية لا تزالُ في الشرقِ العربيّ متأخرةً جِدّاً عَمّا وصلتْ إليه مَثيلاتُها في الغرب الأوروبي والأميركي بعامِلَيْنِ أساسِيَّيْنِ لا حيلةَ لنا نحنُ اليومَ فيهما :

أوّلاً : إن الدراسةَ الأدبيةَ والفلسفيةَ في الغرب بدأتْ بعدَ أن خطا الغربُ خُطىً واسعةً في العلوم الرياضيةِ والطبيعية والنفسية ، فاستفادَ الدارسون الغربيون عندَ مُعالجةِ الموضوعاتِ الأدبيةِ والفلسفية من الجُهودِ التي كان علماؤهم قد بَذَلوها في ميادينِ العلم الخالص . أما نحن فلم يُتَحْ لنا بعدُ مثلُ ذلك . من أجلِ ذلك تَرانا نتّكىءُ في دراساتِنا الأدبيةِ والفلسفية على العُنْصُرِ الشخصيّ والأُسلوب الإنشائي إلّا قليلاً . وكثيراً ما يشعُرُ الباحثون عندَنا بهذا النقْص من أنفُسِهم فيعتَذِرون عنه بصُوَرٍ مختلفة لا تكونُ عُذْراً لهم بل حُجَجاً عليهم . منذُ خمسةٍ وثلاثين عاماً أو تزيدُ زارَ ابراهيمُ عبدُ القادرِ المازنيُّ مدينةَ بيروتَ فدَعَتْهُ كلّيةُ المقاصدِ واحْتَفَتْ به . وأذكُرُ أن الأستاذَ المازنيَّ لمّا نَهَض لِيُعبِّرَ عن عاطفتهِ نحو كلّيةِ المقاصدِ بدأ بالقول عنْ نفسه إنه حمارٌ في الرياضيات . لقد أرادَ المازني أن يَجِيءَ بنُكتة لأن أحدَ الطُلّابِ المتكلّمين كان قد عَرّجَ على الرياضيات في كلمتهِ . غير أنّ تلك النُكتة المزعومةَ كانت مُؤلمةً جِدّاً لأنها دلّتْ على اتجاه عنيدٍ نحو التَطْليقِ الباتّ بينَ الأدب والعلم . وكان أشدَّ إيلاماً من النُكتة أثرُها في الناشئين على جانِبَيْ طريقِ الأدب ؛ فلقد سمعتُ تلك الجُمْلة تُرَدَّدُ من على المنابرِ وفي الصُحف رَدْحاً غيرَ قصيرٍ من الزمن بعدَ ذلك .

ثانياً : هنالك فضلٌ لمؤرّخي الأدب والفلسفة في الغَرْب على مؤرّخي الأدب والفلسفة عندنا لا نَمْلِكُ فيه حيلةً أيضاً : ولقد أُقيم بناءُ الدراسات الأدبيةِ الفلسفية في الغَرْب بعدَ أن قام علماءُ الغرب بنَشْر المخطوطاتِ نشراً عِلْمياً وبإعدادِ دراساتٍ وافيةٍ ومُفَهْرَسَةٍ لجميعِ مصادرِ الأدب والفلسفة وبتأليفِ قواميسَ فنّيّةٍ لكل

فنٌّ من فنونِ المعرفة الإنسانية . من أجلِ ذلك نرى أن أحكامَ الدارسين في الغرب تأتي عادةً أقربَ إلى الشُّمول والصِحة والدِّقة ، حينما يريدُ الدارسون منهم ذلك ، لأنها تكون مَبْنِيّةً في الأصل على مصادرَ مدروسةٍ مُفَهْرَسةٍ . أما عندَنا فالأمرُ مختلفٌ من ذلك جدّاً . قد يضطرّ أحدُنا إلى دِراسةِ شاعرٍ فلا يَجِدُ لديوانِ ذلك الشاعر إلّا طبعةً رديئة أو لا يَجِدُ له ديواناً البَتّةَ . ولولا أنّ أوروبةَ قد أصْدرتْ عدداً من أُمّهات المصادر العربية ثم جاءتِ القاهرةُ تُحاوِلُ إتمامَ تلك المَهمّة الشاقّة ، في طَبَعات عِلْميةٍ كثيراً أو قليلاً ، لَما كان بإمكانِ أحدِنا اليومَ أن يَثِقَ من حُكْمٍ يُصْدِرُه على أديبٍ أو فيلسوف . ومعَ هذا كُلّهِ فإنّ عدداً من الدِراسات التي يقومُ بها أدباؤنا لا يزالُ يوحي بأنّ هؤلاء الأدباء لم يُكلّفوا أنفسَهم عَناءَ التقليب لهذه المصادر التي جَهِدَتْ أوروبةُ والقاهرةُ في إخراجِها مخرجاً كريماً قدْرَ الإمكان ، ذهاباً بأنفُسِهم عن مُعاناةِ شيءٍ من العلم الذي ظنّوا أنْ لا مَدْخَلَ له في الأدب . إن امرأ القيس لا يزال عندَ هؤلاءِ مُقيماً في دَمّونَ يشرَبُ الخمرَ بينما كان أبوه وإخوتُه يخوضون المَعْرَكةَ الفاصلة بينَ الحياة والموت في ثورةِ بني أسدٍ على حُكْمِ كِنْدةَ في نجد . ثم تمتلىء أعينُ أولئك الدارسين وقلوبُهم فَرَحاً لأنّ ذلك الفتى قد شدّ الرِحالَ إلى قبائلِ العرب ثم إلى القُسطنطينيةِ مُحاولاً أن يَسْترِدّ مُلْكَ أسرته . ويُضْطَرُّ هؤلاء إلى أن يُلْحموا بينَ صورةِ الفتى الخليعِ الذي يشرَبُ الخمرَ في دمّونَ في مساءِ الثُلاثاء وعزيمةِ ذلك الفتى نفسِه على الثأرِ لمقتَلِ أبيه وردِّ المُلكِ إلى أسرته في صَبيحةِ الأرْبعاء فيلجأون إلى عَصا الأُسلوب السِحرية ويَقْلِبون بها طبيعة امرىءِ القيسِ بينَ عَشِيّةٍ وضُحاها ثم

يَجِدون مُتّسعاً للقولِ في هذه الجُملةِ التي جاءتْ بها الرِواية الجميلةُ عن امرىءِ القيسِ : اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ !

ومعَ الإقرار بأنّ الدراسات الفلسفيةَ قد خَطَتْ في البلاد العَرَبية خُطُواتٍ واسعةً في عددٍ من النواحي ، في الجَمْعِ والتبسيط والنَقْد أيضاً ، فوق ما اتّفق للدراسات الأدبية ، فإن الدراساتِ في الفلسفة الإسلامية نفسِها لا يمكن أن تدنُوَ من الكَمال إلا بعدَ أن تتحقّقَ لها الأُمورُ التالية :

(أ) : التوسّعُ في نشرِ الأصولِ الفلسفية عندَ العرب مَعَ الفَهْرسةِ للألفاظ الفلسفية والآراءِ الفلسفية . إن قِسْماً من ذلك قد تحقّقَ فِعلاً ، ولكنّ الأحكامَ التي تُبنى على أصلٍ ناقصٍ تظَلُّ ناقصةً .

(ب) : استيفاءُ عَرْضِ الفلسفةِ الإسلامية عَرْضاً موضوعيّاً شاملاً ، وخصوصاً لأن فلاسِفَتنا قد جاءوا بآرائِهمُ المتآلفة في كُتُبٍ متفرّقةٍ أحياناً وفي أماكنَ متفرّقةٍ من الكِتاب الواحد أحياناً أخرى .

(جـ) : تمرُّسُ الدارسين بجوانبَ مختلفةٍ من العلم . إن الفلسفةَ تاريخُ الفِكْر الإنساني . والفِكرُ يتناول العلومَ الرياضية والطبيعية الاجتماعية والفَنية . فإذا لم يكنْ دارسُ الفلسفة مُلِمّاً بعدَدٍ من هذه العلوم إلماماً يسيراً على الأقلّ ، فإنّ مُعالَجَته للفلسفةِ ستظَلُّ قاصرةً على جانبٍ واحدٍ ، هو الجانبُ الوُجْدانيّ أو الشَخْصيّ ؛ وستكون جميعُ دراساتِه من أجلِ ذلك ناقصةً ، وخُصوصاً في ما يتعلّقُ بفلسفةِ الأندلسيين . إن مقداراً مُعيّناً من الرياضياتِ لا بدَّ منه في تَفَهُّمِ فلسفةِ ابنِ باجّه ، وإنّ الوصول

إلى فلسفة ابنِ طُفيلٍ لا يتيسَّرُ إلّا مَعَ قَدْرٍ وافٍ من العلومِ الطبيعية المُختلفة وشيءٍ من الهندسة خاصةً . أما فلسفةُ ابنِ خَلْدونٍ الاجتماعيةُ فتحتاجُ في فَهْمها وفي قَدْرِها حقَّ قَدْرِها إلى معارفَ متعدّدةٍ من رِياضيةٍ وطبيعيةٍ ونفسيةٍ واجتماعيةٍ وإنسانية .

(د) : اعتمادُ منهجٍ عربيّ في دِراسةِ الفلسفةِ العربية ، ذلك لأن الفلسفةَ العربيةَ مَعَ صِلَتِها الوثيقةِ بالفلسفةِ اليونانية فإنّها قد جاءتْ لِتَحُلّ عدَداً من المشاكلِ التي تبدّتْ للعقل العَرَبيّ في إطارٍ يتألفُ من عواملَ لم يكنْ بعضُها في إطارِ البيئةِ اليونانية . ثم إن الفلسفةَ العربيةَ قد حَرَصَتْ على أن تُعَلِّلَ عدداً من القضايا التي نَبَتَتْ في الإسلام ، وفي زَمَنٍ اختلفتْ فيه المُثُلُ العُلْيا عمّا كانتْ عليه في أيام الإغريق . والدارسون العَرَبُ الذين يعتمدون اليومَ مناهجَ للدراسةِ إنّما يعتمدون مناهجَ أوروبيةً ؛ والمناهجُ الأوروبية قد بُنِيَتْ في الأصلِ على الاتجاهِ في نَقْدِ العَهْدِ القديم أو على أحوالٍ في الغَرْب مُخالفةٍ للأحوالِ التي عاش فيها فلاسِفَتُنا . فاعتمادُنا مناهجَ الغربيين وحدَها في دِراسة فلسفتِنا لا يُمْكِنُ أن يَفِيَ بالغَرَض المطلوب منّا في دراسةِ فلسفتِنا . ومَعَ الإيقانِ بأنّ الاستفادةَ من المناهجِ المنطقية التي أقامَها الدارسون الغَرْبيون واجبٌ لا شكَّ فيه ، فإنّ على العَرَب أن يستَكْمِلوا العُدّةَ في هذه المناهجِ حتى تُصْبحَ وافيةً بدراسةِ فلسفتِنا أيضاً .

هذا شأنُ الدراسة الفلسفية . أما الدراسةُ الأدبية عندَ العرب فلا تزال أسوأَ حظّاً : إن للفلسفة شيئاً من الهَيْبة في نفوسِ العُقلاء فلا يَهْجُمُ عليها إلّا من آنَسَ من نفسه شَيئاً مِنَ الاستعدادِ . وأما دراسةُ الأدب فمالٌ سائبٌ .

ينهَضُ بينَ الحينِ والحينِ طالبٌ يسألُني سُؤالاً يدور حولَ الوَهْمِ التالي :

لماذا لا نَجِدُ في الشعر العَرَبي إلا المَدْحَ والرِثاء والهِجاء وهذا الغَزَلَ التافِهَ ، ثم لا نَجِدُ فيهِ شِعْراً إنسانياً يصوِّر خوالجَ النفس البشرية تصويراً واقعياً صحيحاً ؟ فأقولُ للطالبِ السائلِ : ومِنْ أيْنَ عرفتَ أن الأمر كما تقولُ ؟ فيقول لي : عَرَفته من الشِعْرِ الجاهليّ والشعر الأُمَوِيّ والشعر العباسيّ ! أليس هذا ما ندرُسُه في مِنهاجِ البكالوريا ؟

وأُجيبُ الطالبَ السائلَ بما يَرُدُّ الأمر إلى قريبٍ من نِصابه ؛ ثم ألتفتُ إلى نفسِي فأرى أنّ هذه المشكلةَ بعَيْنِها ليستْ مشكلةَ طُلّابٍ فَحَسْبُ ، إنها أيضاً مشكلةُ أساتذةٍ ومُؤلّفين ، وإلّا فمِنْ أين جَاء ذلك الطالبُ بهذا الحكمِ الفَطِير ؟

إن كثيرين من الدارسين ، وخُصوصاً في هذا البَلَدِ ، يتجنَّوْنَ على الأدب العربي مثل هذا التَجَنّي . هم يقولون : ليس في الشعر العربيّ طابَعٌ إنسانيّ عامٌ ، ليس فيه قَصَصٌ وُجداني ، ليس فيه مَلْحَمَةٌ ، ليس فيه تَمْثيلٌ . إنه أدبٌ فِطْريٌّ قاصر . إن الشعر العَرَبي رِياءٌ ، إنه تعابيرُ متحجّرةٌ وألفاظ جُوفٌ !

لا أُحِبُّ أن أُعَلِّلَ هذه الحَمْلَةَ الكاسحةَ على الأدب العربي كيلا أَنْصَرِفَ إلى جِدالٍ جانبيّ يخرج بنا عمّا نحن بسبيلِهِ من غيرِ أن يزيدَ الموضوعَ وضوحاً . غيرَ أنني أريدُ أن أُشيرَ إلى أن التقصير واقعٌ في تأريخِ الأدب العَرَبي ، حتّى في كُتُبٍ كثيرةٍ من تلك التي ألّفها مُعْجَبون بالعربِ ومُحِبّونَ للأدبِ العَرَبي .

إن التاريخَ يتناولُ في الأكْثرِ مَعالِمَ الحضارة ويسيرُ على الطريق السُلْطاني ، وقلّما يَحْفَلُ بِبُنَيّاتِ الطريق . والمشاهيرُ فقط هُم الذين يَجِدُونَ مكاناً في موكبِ التاريخ . وكلّما كان الرجلُ أبعدَ شُهْرَةً كانَ مكانُه في مَوْكِبِ التاريخِ أقربَ إلى الصَّدارة . وما كان تاريخُ الأدَبِ بِدْعاً في ذلك .

لمّا بدأ الاهتمامُ بالأدب العَرَبي وبتأريخه ونقدِهِ ، منذ العصرِ العباسيّ ، بدأ ذلك الاهتمامُ بالشعرِ وبأصحابِ المُعلّقـات مِنَ الشعراء لشُهرتهم ولِمَكانة شِعْرِهم في تاريخِ اللغةِ وفي معرفةِ الأنسابِ ومفاخرِ القتالِ . وكان الشعراءُ قد أولِعوا أيضاً بأصحابِ المُعَلّقاتِ فقلّدوهم . من أجْلِ ذلك أصبحَ مُعْظَمُ الشِعرِ الأُمويِّ يجري في عِنانِ الشِعر الجاهليّ الذي يمثّل المُعَلّقات ، فكانَ عندنا شعرُ النقائِضَ . ثم جاءَ العصرُ العباسيّ واستمر الإعجابُ بالقدماء فاستمرَّ التقليدُ لِشَكْلِ القصيدة الجاهلية .

ولقد مثَّل هذا الشعرَ الذي جَرَى ذلك المَجْرَى جانباً مُهمّاً من الحياة العَرَبية القديمة . وأُولِعَ الناسُ بهذا النوع من الشعر القديم قِراءةً ونَظْمَاً لأنه كان يُمَثِّلُ الجانبَ القوميّ من حياتِنا العربية . لقد كان ذلك الشِعْرُ خِزَانَةَ العَبْقريةِ العَرَبية وكتابَ التاريخِ وصُورةَ البيئة ودِيوانَ اللُّغةِ ومِلاكَ العِزّة . غيرَ أنه كان إلى جانبِ هذا النوعِ العامّ من الشِعْر العامّ نوعٌ آخَرُ خاصٌّ يدورُ على العاطفة الإنسانية والواقعِ البَشَري . ولكنْ شعراءَ هذا النوعِ الثاني لم يستطيعوا أن يُجاروا شُعراءَ النوعِ الأوّل في الشُهرة فَمَضَى تاريخُ الأدب يفسَحُ المجالَ للأوّلين ويُضيِّقُه على الآخرينَ .

وبما أن التاريخَ لا يَحْفِلُ إلا بالمشاهيرِ ، كما رأينا قبل قليلٍ ، فقد غُمِرَ شُعراءُ النوعِ الثاني في غِمَارِ المشاهيرِ من شُعراءِ النوعِ الأول . ثم جاء الدارسون المُعاصرون فساروا على الطريقِ المُعَبَّدِ ووسّعوا اهتمـامَهُمْ بالمشـاهيرِ وحـدَهم فغابَ الشعـراءُ الشخصيّون في خِضَمِّ المَنازعِ القَوميّة ، وكان ذلك فخراً لنا أيضاً . ولكنْ لم يكُنْ من الصَوابِ أن نُهْمِلَ الشُعراءَ الشَخْصيِّين .

وكان الدارسون المُعاصرون منا قدِ اطّلعوا على شيءٍ قليلٍ أو كثيرٍ من الأدب الغَرْبي ونَقْدِه فوجدوا فيهما أشياءَ لم تكُنْ موجودةً عندنا فقفَزوا إلى استنتاج يخطُرُ للإنسان عادةً في مطلَعِ حياتِه العمليّة ، وهو أن كلَّ ما زادَ في شيءٍ كان نَقْصاً في شيءٍ آخَرَ . وبما أن في الشعر الغَرْبي مَلاحِمَ فقد عابوا على الشعر العربي خُلُوَّه من مَلاحِمَ بالمعنى المألوف عند الإفرنج . وبما أن في الشِعر الغَرْبي مَسْرحياتٍ فقد نَعَوْا على الشِعْرِ العربي فَقْرَه في هذا الباب . ثم إنهُمُ انطلقوا يُبْرِزُون ما نَقَص في الشعر العربي من خصائِصِ الشعر الغَرْبي وفُنونه حتّى تَجَسّم في خَيالِهِمْ تقصيرُ الشعرِ العربي عنِ الشعر الغَرْبي جُملةً .

والواقع أن في الشعر الغَرْبي خصائِصَ وفنوناً ليست في الشعر العربي ، كما أنّ في شِعْرِنا العربيِّ خَصائِصَ وفنوناً أكثرُ عدداً لم يَعْرِفْها الشعرُ الغَرْبي قطُّ ، ذلك لأن كلَّ شعرٍ كانَ يُصوِّرُ بيئةَ أهلِهِ وثقافتِهِم ، فلم يكنْ من المُنْتظرِ أن تكونَ خصائصُ الأدب العربي شَبيهةً بخصائص الأدبِ الأوروبيّ ، كـمـا أن خصائصَ الأدب الجِرمانيّ تختلفُ اختلافاً كبيراً من خصائِصِ الأدب اللاتيني . هذا

مَعَ العِلم اليقينيّ بأن الخَصائصِ والفُنون في الشعر العبّاسي العَرَبيّ تختلفُ عنها كُلِّها في الشعر الأُمَويّ العَرَبي . وكذلك الخصائصُ في الأدب الإنكليزي مثلاً تختلفُ في العصر الفيكتوري منها في عصر هَنْري الثامنِ وأليزابث الأُولى . ومثل ذلك الأدبُ الفَرَنْسيّ ، فإن خصائص الرُومانسيّين وفُنونهم فيه تختلف من خصائص البَرْناسيّين وفُنونهم .

إنّ الاختلافَ بينَ أمرينِ لا يجعلُ أحدَهُما أفضلَ من الآخَرِ ضَرورةً ، ولكنّ مثلَ هذا الاختلافِ ضَروريٌّ جدّاً وطبيعيّ أيضاً حتّى يكونَ لدينا مُسَوِّغٌ حينما نُشيرُ إلى أدَبَيْنِ في لُغتين مُخْتَلِفَتين أو إلى عَصرين أدبيّين في لُغة واحدةٍ . وقد يجمَعُ العصرُ الواحدُ في اللغة الواحدةِ خصائصَ وفنوناً مختلفةً أو متناقضةً في بعضِ الأحيان كالذي نراه مثلا في شِعْرِ عُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ وشعرِ مُعاصِره الفَرَزْدَقِ ، أو في نثرِ عبدِ الحميد ونثرِ تلميذِه عبدِ اللّهِ بنِ المُقفّعِ .

غيرَ أنّ التوسُّعَ في هذا الموضوع يقتضي التِّيهَ في فَيافي المُقارنات وخِضَمِّ الاستشهادات ، فَلْنَرْجِعْ إلى انتقاداتِ شُبّاننا المتأدّبين الذين يَنْعَوْنَ على الشعرِ العربي ، قبلَ أيامِهم خاصّةً ، خُلُوَّهُ من العُنْصُرِ الشخصي المُعَبِّر عن خَلَجات النفس وخَواطرِ الخَيال وعنِ الرُؤى الحَمراءَ المُجَنَّحَةَ وحَبّاتِ الرمل الظَمأى إلى غَمَزاتِ النجوم ، وما إلى ذلك من أوْهامِ العِشْرينَ وأوهامِ ما دونَ العِشرين .

إنني في مَوْقِفي هذا أريدُ أيضاً أن أُطمئِنَ هؤلاء بأنَّ في الشعر العربي فنوناً أكثرَ عدداً مما يَتَوهّمون ، وليسَ للأدب العربيِّ

من ذَنْبٍ إذا كان مِنْهاجُ البكالوريا لا يأتي بها مَفْروضَةً على الطُلّاب الذين يُهِمُّهُمْ أن يُهْرَعوا إلى تَسويدِ الأوراق في شهرِ حَزيران أو في دورةٍ ثانيةٍ في شهر تشرينَ أو في دَوْراتٍ لواحِقَ .

كان مالكُ بنُ الرَّيْبِ التميميُّ قد خَرَجَ في جُيوشِ الفتح إلى خُراسان مَعَ واليها سعيدِ بنِ عُثمانَ بن عَفّان ، في أيامِ مُعاوية بنِ أبي سُفيانَ . ومَرِضَ مالكٌ هذا في مَرْوٍ عاصمةِ خُراسانَ مرضاً أيقنَ مَعَهُ بالموت فوَصَفَ حالَهُ تلك في قصيدةٍ طويلةٍ جاء فيها :

تذكّرت من يَبْكي عليّ فلم أجِدْ
سوى السيفِ والرُمْحِ الرُدَيْنيّ باكِيا ،
وأشقرَ خِنذيذٍ يجُرُّ عِنانَه
إلى الماء لم يَتْرُكْ له الموتُ ساقيا[1] .
صريعٌ على أيْدي الرجالِ بقَفْرةٍ
يُسَوُّونَ قَبْري حيثُ حُمَّ قضائيا
فيا صاحِبَيْ رِحْلي ، دنا الموتُ فانْزِلا
بِرابيةٍ ،إنّي مُقيمٌ لَياليا .
أقِيما عليَّ اليومَ أو بَعْضَ لَيْلةٍ ،
ولا تُعْجِلاني ،قد تَبَيّنَ ما بِيا !
وقُوما إذا ما اسْتُلَّ رُوحي فهَيِّئا
ليَ السِدرَ والأكفانَ ثم ابْكِيا لِيا ،
وخُطّا بأطرافِ الأسِنّةِ مَضْجَعي
ورُدّا علَى عَيْنَيّ فَضْلَ رِدائيا .

---

(١) الخنذيذ : الطويل الضخم من الخيل . أشقر : لونه مائل إلى الحمرة .

ولا تَحْسُـداني ، بـاركَ الله فيكُمـا ،
من الأرضِ ذاتِ العَرْضِ أن تُوسِعا لِيا

خُـذاني فجُـرّاني بِبُـردي إلَيْكُمـا ،
فقـد كُنْتُ قبلَ اليـومِ صَعْباً قِيـادِيا!

يقولون : « لا تَبْعَدْ » وهُم يَدْفِنونني ؛
وأينَ مكـانُ البُعْـدِ إلا مَكـانِيا!

ويقولُ نفرٌ من الدارسين : وما فعلَ مالكُ بنُ الرَّيْبِ ؟ لقد قالَ سقراط في ساعةِ موته أحسنَ من هذا الكلامِ ، وقبلَ مالِك بن الرَّيبِ أيضاً .

هذا أيضاً تحامُلٌ ظاهرٌ : إنّ مالكَ بنَ الرَّيْبِ ماتَ في نحوِ الثلاثين من عُمُره ، وقد كان في أوّلِ أمره شابّاً بعيدَ الهوى تَبِيعاً للنَّفس ؛ وكانَ قبلَ ذلك وبعدَه شاعراً . أما سُقراطُ الحكيمُ فكان كبيرَ السنِّ ناضجاً ، ثم كان فيلسوفاً . ولقد نَسِيَ المُعْترضون ما هُوَ أهَمُّ من ذلك : إنّ الذي وَصَل إلينا مِمّا رُوِيَ أنّ سُقراط قالَهُ في ساعةِ الموتِ قد قاله - في الحقيقة - تِلميذُه أفلاطُونُ . ونحنُ لا نعلمُ ، على القَطعِ ، ما قالَ سُقْراطُ فِعلاً في ساعة موته . ولعلّ أفلاطونَ قد حَسّنَ آراءَ أُستاذِهِ وزيّنَها وزاد فيها جَرْياً على عادتِهِ في ما يَنْسِبُه إلى سُقراط ، مما هو مَعْروفٌ في تاريخ الفلسفة اليونانية . أما الشعرُ الذي مرّ بكَ فهو قولُ مالكِ بنِ الرَّيْبِ نفسُه .

إن كثيرينَ من الدارسين يُجانبون العِلم في دراساتِهِمُ الأدبيةِ والفلسفية لأنهم يعتقدون أن الأدبَ شيءٌ والعِلم شيءٌ آخر . لا

رَيْبَ في أن الإنتاجَ الأدبيّ والإنتاجَ العِلْميّ شيئانِ مُخْتلفانِ ، ولكنّ دراسةَ الأدبِ لا يجوزُ أن تكونَ مقطوعةَ الصِلَةِ بالأُسُسِ التي تَجْري عليها دِراسةُ العلم . إن الدِراسة منهجٌ ، والمنهجُ ابنُ المَنْطِقِ وصِنْو العلم . وليس يرفَعُ من شأنِ الأديبِ أن يكونَ جاهلاً بالعلم ، كما لا نَرْضى للعالِمِ أن يكون غافِلاً عن قيمةِ الآدابِ والفنون . إن الحياةَ نفسَها لَيْسَتْ لَوْحاً مُسْتَعْرِضاً ، ولكنّها بناءٌ متَعدّدُ الجوانبِ . والنظرُ إلى الحقيقةِ كالنَظَرِ إلى الواقعِ كِلاهُما صحيحٌ في نِطاقه ، وكلاهُما ضَروريٌّ في الحَياةِ وللحَياةِ .

زَعموا أن جمعيةً دَوْليةً أعلنتْ عن مُباراة موضوعها : الجَمَلُ . فاشتركَ في تلك المباراةِ فرنسيٌّ وألمانيٌّ وإنكليزيّ . أما الفَرَنسي فَذَهَبَ إلى السوق واشترى مؤونةَ عام من الطعام والخَمْر ثم حَبَسَ نفسَه في غرفته وجلس يكتُبُ . وبعدَ عامٍ كان قد كتب في الجملِ كِتاباً جميلاً شائقاً . وأمّا الألمانيُّ فإنّه ذهَبَ إلى المكتبة العامّة واستعارَ منها كلَّ كتابٍ يَتَعلّق بالإبلِ . وبعدَ عامٍ انتهى من وضع كتابٍ جمع فيه كلَّ شاردةٍ وواردةٍ ذَكَرَها المؤلّفون القُدامى والمُحدَثون والمُعاصرونَ له عنِ الجمل . وأما الإنكليزي فشدَّ الرِحال إلى نَجْدٍ واشترى جَمَلاً ثم قضى عاماً يراقب الجمل في بيئتِهِ ويُدوِّنُ الملاحظاتِ حتى استطاعَ أن يضعَ كتاباً أرضى به نفسَه وعقلَه وأرضى الحقيقةَ والواقع .

لقد مرّ من حياتنا ردحٌ طويلٌ من الزمن كان فيه نفرٌ كثيرون منا يكتُبون في الأدب والفلسفة كما كَتَبَ ذلك الفرنسيُّ عن الجمل .

ثم مر وقتٌ آخَرُ غيرُ قصيرٍ كان الدارسون منا في أثنائه يفعَلون فِعْلَ الرجل الألماني . أما الآنَ فقد حان الوقتُ لأن يشتريَ الدارسُ منا قبلَ أن يبدأ بِدراسة موضوعه جَمَلاً .

إذا كان من طبيعةِ الفلسفةِ ومن طبيعة الأدبِ خاصةً ألاّ يستطيعَ الباحثُ فيهما أن يحصُرَ جَميعَ جُهودهِ في نِطاقِ العلم ، فلا أقلَّ من أن يستفيدَ من نتائج البحثِ العِلْمي حتى نستطيعَ أن نكبَحَ من جَماحِ الخَيال الذي استبدّ عندَنا بدِراسة الأدب ودراسة الفلسفةِ زمناً طويلاً . إن هذا وحدَه يستطيعُ أن يَضْمَنَ لنا رَقابةً فعّالة على مقاييسِ الدِراسة وعلى مُستوى الاستعدادِ في الدارسين على معالجة الموضوعات . إننا نريد باحثين في الأدب والفلسفة لهم آلة البحث العِلمي وتنظيمَ العقلِ العِلمي ومِنهاجِ العَمَلِ العِلمي . غيرَ أن هذا لا يَتِمُّ إلّا إذا أعْدَدْنا طُلاّبَنا على مثلِ ذلك . وأنا أرجو من أساتذةِ الجامعات إذا تقدّمَ إلَيْهِم طالبٌ ثم وَجَدوا أنه لا يصلُحُ لِكُلّيةِ الهندسةِ أو كلّيةِ الطِبّ أو كلّيةِ الطبيعة والكيمياء ألاّ يقولوا له :

« لا تيأَسْ ، يا بُنَيَّ ، ادْخُلْ إلى كُلّيةِ الآدابِ » .

الترجمة أو نقل الكلام من لغة إلى أخرى

الترجمة(*) كلمة أعرابية[١] وردت في اللغة الأكّديّة[٢] وفي

(*) راجع هذه الكلمة واشتقاقها ومعانيها والاستشهاد عليه في مسودة المعجم الكبير (لمجمع اللغة العربية في القاهرة) المبلغة إلى الأعضاء في ١٩٧٤/٨/١٤ (في النسخة الواصلة إليّ) وذلك للمناقشة في الدورة الأربعين . راجع « ت ر ج م » (ص ٦٥ - ٦٦) .

(١) إن اللغة العربية وأخواتها البابلية والآرامية والكنعانية والعبرية والحبشية وغيرهن يرجعن إلى أم واحدة كان علماء اللغة الغربيون قد سمَّوْا تلك الأم اللغة السامية : يزعُمون بذلك أن أولاد نوح الثلاثة : ساماً وحامًا ويافثَ تكلموا ثلاث أسر مختلفة من اللغات : لغات الأسرة السامية (في غربي آسية) ولغات الأسرة الحامية (في أفريقية) ولغات الأسرة اليافثية (في أوروبة) . وقد اعتمد أولئك العلماء في ذلك ما ورد في التوراة الموجودة بأيدي الناس (سفر التكوين ١١ : ١ وما بعد) . إن الأخذ بهذه النظرية بعيد عن العلم وعن الواقع ، فليس من المعقول في شيء أن يتكلم أبناء رجل واحد لغات ذات خصائص متباعدة . وكان صديقي الدكتور زكي النقاش (ولد في بيروت ١٨٩٦ م) قد اقترح أن يقول « اللغات الأعرابية » مكان « اللغات السامية » ، وهو على حق لأن أصل هذه اللغات من شبه جزيرة العرب . والأعراب أو أهل البادية هم أهل اللغة الفصحى الصحيحة .

(٢) الأكدية (ويقولون أيضا : الأكادية) دولة أعرابية عادية (قديمة جدا) نشأت في جَنوبي العراق . وربما لاح لي أن هذه الدولة يجب أن تسمى « العقدية بالعين والقاف » ، لما في « الجذر » « ع ق د » من أسماء القبائل والأماكن والأراضي =

الآرامية وفَسِيلتها السُريانية[1] وفي العِبرية والحبشية[2] ، ومعناها الأصلي : « تفسير الكلام »[3] . وفي القاموس المحيط (٤ : ٨٣) وفي المعجم الوسيط (ص ٨٣ أيضا) وفي تاج العروس (٨ : ٣١٠) ولسان العرب (مادّة : رجم) ترجم الكلام : فسّره ووضّحه . وللترجمة معنيان آخران : سيرة فرد من الناس أو تاريخ

= الخصبة وبساتين النخيل مما يصلح أن يشتق منه اسم « بلد » أو دولة . ففي تاج العروس (طبعة الكويت) ، فالعقد (بفتح ففتح) قبيلة من بجيلة أو اليمن خرج منها رجال مشاهير . وبنو عقيدة (بالتصغير) قريش . والعقديون (بالضم) جماعة من طيء مشهورين . وعقد : لجأ .

والعقدة (بالضم) : الولاية على البلد ، والمكان الكثير الشجر أو الكثير العشب ، وهو الحائط (البستان المسور) الكثير النخيل أو القرية الكثيرة النخيل وكل أرض مخصبة . وعقدة : قرية قرب يزد في طرف المفازة (البادية) . والعقد (بضم ففتح) علم بين البصرة وضرية . وعقدة (بالضم) قرية في مصر . والأعقد البناء المعقود (المبني بناء مصمتا بقناطر متينة مملوءة بالحجارة المثبتة ، كما تبني القلاع) . وعكد بالكاف مثل عقد بالقاف (لجأ) والمعكد (بفتح الميم وكسر الكاف) : المجلس . (٨ : ٣٩٥ ـ ٤٠٥) . وأكد (اسم الدولة) مأخوذ من أجد (أو أجاد ، إجادة) بكاف بدوية : اسم عاصمة تلك الدولة بناها شروكين (عند المحدثين من المؤلفين : سرجون) عاصمة لدولته . ولعل معناها المدينة « الجديدة » أو « المتينة » (راجع جدة في الحجاز) . ـ وهذا التردد بين أن تكون أكد بالهمزة أو بالعين راجع إلى أن هذه الكلمة الأعرابية كانت تكتب بالخط المسماري أو الإسفيني الذي كتبت به اللغة السوميرية (السومرية أو الشومرية) واللغة الأشورية ، وقد غابت منهما العين ، فهل كانت العين موجودة في الأكدية ولكن لم يكن لها حرف ؟ يحسن أن يتولى علماء الأعرابيات الجواب على هذا السؤال .

(١) راجع اللباب للقرداحي (٢ : ٦٣١) وقد وردت صيغ كثيرة من جذر « ت ر ج م » .

(٢) راجع (في باب رجم ، وترجم)

Herbew and English Lexicon of the Old Testament, by Gesenius (Boston 1844) p.973 and 1128.

(٣) القاموس المحيط (في باب ترجم ، ٤ : ٨٣) وتاج العروس (٨ : ٣١٠) : وفي لسان العرب (في باب رجم) .

حياته ثمّ نقْل الكلام من لغة إلى لغة .

والشواهد على المعنى الأول (التفسير للكلام والتوضيح) نمرّ به كثيرا في تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم ، في ذلك الدور الذي نقل العرب فيه العلوم والفلسفة من اللغات المختلفة . والمدرك الملموح في هذا المعنى هو أنّ كثيرين من النَقَلة لم يكونوا بارعين في اللغات التي نقلوا عنها خاصّة ، فلم يكن نقلهم كاملاً دقيقاً ، بل كان عَرْضا للآراء التي كانت في الكتاب الأصلي (أو ما نسميّه أحيانا : نقلاً بتصرّف) . ودليلُنا على ذلك أنّ كثيراً من الكتب المنقولة أصلَحها فيما بعدُ نفرٌ أكثرُ علماً من نَقَلَتِها الأولين .

لنتأمل النص التالي :

يقول ابن خلدون[1] : « والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة (صناعة الهندسة) هو كتاب الأصول أو الأركان (لإقليدس) ، وقد كان أوّل ما تُرْجم من كتب اليونانيين في المِلّة (في الإسلام) أيّامَ أبي جعفرٍ المنصور . ونُسَخُه مختلفة باختلاف المترجمين ، فمنها لحنينِ بن اسحاقَ ولثابتِ بن قُرّة وليوسفَ بن الحجّاج » .

وفي كتاب الفهرست[2] أنّ الحجّاج بن يوسف بنِ مطر[3] نقل كتاب أصول الهندسة لإقليدس نقلين (مرتين) النقلَ الأول يعرف بالهاروني (نسبةً إلى هرون الرشيد وفي أيامه) ثم نقلاً ثانياً

---

(١) مقدمة ابن خلدون « دار الكتاب اللبناني » بيروت ١٩٦١ ص ٩٠٢ .

(٢) طبعة ليبسيك ٢٦٥ .

(٣) الحجاج بن يوسف بن مطر (المطران) الحاسب الوراق من قدماء الناقلين .

يعرف بالمأموني (نسبة إلى المأمون بن هرون الرشيد وفي أيامه) ، وكان العلماء يعولّون على النسخة المنقولة في أيام المأمون . وكذلك نقل اسحاق بن حنين[1] هذا الكتاب كله ثم أصلح ثابت بن قرّة[2] نسخة اسحاق هذه .

فإذا نحن لم نرضَ أن نَجْزِم بأن النقول المختلفة تقوم على أن ما تلا منها كان أقرب إلى الصِحة مما سبق منها ، لم يكن لنا مَعْدًى عن أن نَجزِمَ بأن النسخة التي عملها اسحاق بن حنين المتطبب (والذي عاش في الحقيقة على شهرة أبيه حنين بن اسحاق) كانت تنوء بأخطاءٍ كثيرة ممّا حمل ثابتَ بنَ قُرّةَ الرياضيَّ البارعَ على إصلاحها[3] .

وأما الترجمة بمعنى « سيرة رجل أو تاريخِ حياته » فهي مُدْرَك مولّد متأخر النشأة (راجع المعجم الوسيط ٨٣) ، وهي لا تدخل في موضوع هذا المقال .

وأمّا « الترجمة » بمعنى نقل الكلام من لغة إلى لغة فهو موضوع هذا البحث .

مرّت الإشارة إلى أنّ كلمة « ترجمة » أصيلة في اللغات الأعرابية ، فهي (كما جاء في « مسوّدة المعجم الكبير » المذكورة آنفا : ترجمانو (بالجيم غير المعطّشة كما في جمل ، والواو علامة

(١) اسحاق بن حنين (ت ٢٩٨ هـ - ٩١٠ م) ناقل . وكان مثل أبيه حنين بن اسحاق عارفا باليونانية والسريانية والعربية . ويبدو أنه نقل أشياء كان أبوه قد نقلها ، وكان طبيبا .

(٢) ثابت بن قره الحراني (ت ٢٨٨ هـ - ٩٠١ م) ناقل بارع وعالم بالرياضيات والطب .

(٣) راجع أيضا فيما تقدم مباشرة « تاريخ العلوم عند العرب » لـ (كاتب المقال) ، ص ١٢١ .

الرفع) ؛ وتأتي التاء فيها بالفتح أو بالضمّ) ؛ وكذلك تأتي الجيم فيها مفتوحة ومضمومة . . أمّا في الآرامية والسُريانية (اللهجة الغربية من الآرامية) والآرامية اليهودية (التي انحرف إليها لسان اليهود حينما كان اليهود في الأسر البابلي) فهي ترجمانا (بفتح التاء في السُريانيّة ، وضمّ التاء في الآرامية اليهودية ثمّ بإمالة الجيم فيهما) .

والراجح أن الكلمة انحدرت من الأكّدية إلى عرب الجاهلية (أو أنها رحلت مع الأكّديين) ، وأنا أميل إلى أن أسمّيَهم العُقَـديين[1] ، من اليمن (جَنوب بلاد العرب) إلى جَنوب العراق . إن « الترجمان » في العربية تأتي بفتح التاء وضمّها وبضمّ الجيم . وتأتي أيضا بفتح التاء والجيم . ومن الأدلّة على أن كلمة « ترجمان » أصيلة في العربية أيضا أنّ العرب سمَّوْا بها . ففي القاموس المحيط (٤ : ٨٣) التَرجُمان (بفتح التاء وضمّ الجيم) ابن هريم (بالتصغير) بن أبي طَخْمة (بالفتح) م(أي معروف) . وهنالك علاء الدين محمد بن محمود الترجماني المكّي الخوارزمي (ت ٦٥٤ هـ - ١٢٥٧ م) ، له « يتيمة الدهر في فتاوى أهل العصر »[2] .

وكلمة « ترجمان » وردت في الشعر العربي مراراً ، في الشعر القديم وفي الشعر المُحْدَث . قال الراجز نُقادةُ الأسدي[3] :

(١) راجع الحاشية الطويلة في مطلع هذا المقال .

(٢) بروكلمان ١ : ٤٧٤ ، الملحق ١ : ٦٥٤ .

(٣) راجع مسودة المعجم الكبير ، ثم لسان العرب (مادة : رجم) وتاج العروس (القاهرة) ٨ : ٣١٠ .

... فهنّ يَلْغِطْنَ به إلغاطا   كالترجمان لَقِيَ الأنباطا[1].

وكذلك قال ابن الرومي يصف مغنيةً تَعْزِف على العود (وهو يُشَبِّه العودَ بأنّه طِفل في حضن أمه)[2] :

أمُّه ، دهرَها ، « تترجمُ » عنه   وهو بادي الغِنى عن « التَرجُمان ».

غيرَ أنْ ليس يَنْطِقُ الدهرَ إلّا   بالتزامٍ من أمّه واحتضان .

ووردت كلمة « ترجمان » مفردة ومجموعة عند المتنبي[3] :

* ملاعبُ جِنّةٍ لو سار فيها   سُليمانٌ لسار بتَرجُمَانِ[4] .

* تجمّع فيه كلّ لِسْنٍ وأمّةٍ   فما يُفهِمِ الحُدّاثَ إلّا التراجمُ[5] .

والترجمة أو النقل من لغة إلى لغة ليست أمراً يسيرا : إنّها أصعب من التأليف ، ففي التأليف يستطيع المؤلّف أن يختار المعنى الذي يريده وأن يعبّر عنه باللفظ الذي يختاره . أمّا في النقل فإن الناقل مقيد تقييداً شديداً بالنص الذي يكون أمامه .

وللنقل من لغة إلى لغة أربعةُ شروط متلازمة :

- براعةٌ في اللغة المنقول منها ،

(١) اللغط الأصوات المختلطة المبهمة التي لا تفهم . الأنباط والنبيط : أخلاط من الناس غير العرب (الصورة اللغوية : ترجمان ينقل الكلام بين متخاطبين من غير العرب لا يفهم السامع العربي ما يقول الترجمان ولا ما يقول الفريقان) .

(٢) ديوان ابن الرومي (اختيار كامل كيلاني - القاهرة) ٨٤ .

(٣) ديوان المتنبي (العرف الطيب لليازجي) ٥٩٠ ثم ٤٠٤ .

(٤) الجنة : الجن . ملاعب جنة (مناطق كثيرة يسكنها جماعات مختلفو اللغات كأنهم جن لا يفهم الإنسان ما يقولون . يقال في سليمان بن داوود إنه كان يعرف لغات كثيرة ويعرف لغة الطيور .

(٥) اللسن (بالكسر) اللغة . الحدّاث : المتحدثون (ولا واحد له من لفظه) .

- براعةٌ في اللغة المنقول إليها ،
- معرفة بالموضوع المنقول ،
- ثقافة عامة في موضوعاتٍ مختلفة .

أما الشرطان الأولان (البراعة في اللغتين) فأمرُهما واضح لا يحتاج إلى تفصيل ولا إلى دفاع . وأمّا معرفة الموضوع فهو المِحَكّ الذي يظل الناقل أمامه متهيبا .

لمّا طُلب مني نقلُ مذكّرات أيوبَ خان (رئيس باكستان سابقا) : « أصدقاء لا سادة » من الإنكليزية إلى العربية واستعرضت تلك المذكرات داخلني شيء من الهيبة لأنّ تلك المذكرات تنطوي على أمورٍ سياسية واقتصادية وعسكرية وقضائية واجتماعية وكلّها تتعلق بالهند وباكستان (والمصطلحات في هذه كلها مختلفة عمّا قد ألِفْناه نحن في البلاد العربية) . ولمّا حدث الإصرار على أن أتولى أنا هنا النقلَ قبلت بعد التفاهم على أن أرْجِعَ فيما لا أدْريه إلى سفارة باكستان في بيروت . وكان رجوعي إلى السفارة (من طريق التلفون أو مباشرة) كثيرا . وكثيراً ما كنت أقف أمام فكرة أو أمام مصطلح لم يكن في السفارة من يَعْرِفه فكانت السفارة تكتب إلى باكستان في استجلاء ذلك . ومعَ هذا كله فقد استدركَ علي الصديق اللواء الركن محمود شيث خطاب تعبيرا عسكريا لم أعرِفه (ولم يُقَلْ لي في الأغلب) هو « حظيرة » لعدد قليل من الجنود .

ولما نقلت محاضرة جورج سارطون « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط » ثم كتاب « الطريق إلى النجوم » (في

الفلك) كنت أحياناً أكتب إلى المؤلِّفَيْنِ في استجلاء عدد من المشاكل في المعاني والمدارك وفي التعابير .

ومعَ هذا فإن الناقل لا يسلم من المواقف الحرجة حينما يريد ألّا يكتفيَ بنقل الألفاظ وحدَها ، ولكن يريد أن ينقل شعور المؤلّف (في الآثار الأدبية خاصة) إلى القارىء في اللغة الثانية . لمّا نقلت كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » (لمحمد أسد) مرّ بي تعبير يمثّل الخلاف بين أمرين كان المؤلّف قد ضرب لهما مثلا بحصان الركوب وحصان الجرّ . إنّ المثل المضروب بهذين النوعين من الخيل يفهمه القارىء الغربي (بالغين المعجمة) لأن هذين النوعين معروفان في أوروبة . أما نحن فنعلم الحصان للفروسية ، ولا نألف الحصان الضخم الذي يستخدم في غربي أوروبة خاصة للجر وللحمل . من أجل ذلك ضربت أنا المثل بالنجيب (الهجين من الإبل المعروف بسرعته) ثم بالبعير (الجمل المستخدم عندنا في الحمل . ثم وضعت حاشية أشرح فيها ما فعلت) .

وللنقل من لغة إلى لغة ـ منذ كان ـ طرائق عديدة أصلها طريقتان :

ـ الطريقة اللفظية ، وهي أن يجيء الناقل إلى كل جملة من النص الذي يريد نقله فيضع فوق كل كلمة في النص الأصلي ما يقابله في اللغة التي يريد أن ينقل ذلك النص إليها (وكثيرا ما يلجأ هذا الناقل اللفظي إلى القاموس يستخرج منه معانيَ الكلمات المطلوبة . وربما اكتفى بالمعنى المألوف في بيئته . وكان يشترط في هذا النقل اللفظي أن يكون عدد الكلمات في النص الجديد من

اللغة الثانية مثل عدد الكلمات في النص الأول) . وهذه الطريقة اللفظية يلجأ إليها واحد من ناقلين : ناقل غير ضليع من إحدى اللغتين أو منهما كليهما فلا يثق بنفسه بل يلقي تَبِعَة ما يختار من الكلمات على القاموس . وأما ثاني ذينك الناقلين فهو الذي يُعْهد إليه بنقل أثرٍ سامٍ كالكتب المقدسة والوثائق الرسمية .

ـ الطريقة المعنوية ، وهي أن يقرأ الناقل النص كله قبل أن يبدأ النقل حتى يستطيع أن يعرف منحى المؤلف الأصلي واتجاه تفكيره ونوع ألفاظه وصورة تراكيبه . فإذا عاد الناقل ليبدأ عمله قرأ كل جملة تامة ثم أدارها في ذهنه حتى يوقن أنه قد فهم معناها ومرماها . بعدئذ يختار لها الألفاظ التي تعبر عن مقصد الكاتب لا عن تراكيبه فقط ويسوق الجملة في اللباس العربي الموافق ، وليس عليه أن يكون عدد الكلمات في جملته مثل عددها في النص الأصلي أو أكثر أو أقل .

لما وضعت كتابي « عبقرية العرب في العلم والفلسفة » قال لي بعضهم : إن الفصل المتعلق بعلم الأنساب (المثلثات) في كتابي خير من الفصل الموجود في كتاب قدري طوقان . فقلت له : إنني في فصل المثلثات الذي في كتابي قد اعتمدت على كتاب قدري طوقان . وأين أنا في الرياضيات من قدري طوقان . هو رياضي عبقري ، وأنا عملي في التعليم كان قاصراً على الأدب والتاريخ والفلسفة . ولكني عملت جهدي في فهم الفصل الذي كان في كتاب قدري طوقان ثم عبّرت عنه تعبيرا واضحا (أقول : تعبيرا واضحا) . ولقد خبرت أشياءَ كثاراً من مثل ذلك حينما وضعت كتابي « تاريخ العلوم عند العرب » . لقد بدا لي أن العلماء

في معظمهم يعتقدون أن كل شيء يعرفونه هم يجب أن يعرفه كل أحد . فإذا عَرَض أحدهم لنظرية عَرَضها بأقلّ ما يمكن من الشرح ، وإذ هو أراد بسط مسألة أدار حلها في أقل عددٍ من الخطوات الممكنة . وربما أشار أحدهم إلى الفكرة أو إلى المعنى الغامض أو الواضح كما يشير أحدنا إلى الشيء المألوف عنده وعند الذي يحدثه .

كنت إذا وقفت أمام شيء من مثل ذلك أفضت في الشرح بحسب الحاجة أو زدت في خطوات حل المسائل بحسب الحاجة أيضا .

وفي الترجمة أو نقل النصوص من لغة إلى ثانية طريقة أخرى فاسدة .

قد يقرأ رجل كتابا بلغة أجنبية فيعجبه فيحب أن يكون هذا الكتاب في اللغة العربية (مثلا) فيكون له في ذلك مجريان :

ـ يبدأ قراءة هذا الكتاب فيأخذ الجمل التي تعجبه (أو التي يظن أنها أعجبته أو أنه فهمها) فيضعها في لغة من عنده قد تكون معبرة عن النص الأصلي وربما لم تكن . وبعدئذ إما أن يذكر على غلاف الكتاب أنه قد نقله أو يهمل ذلك . وفي أكثر الأحيان يحذف ذلك الرجل الجمل التي تكون « صعبة » .

حينما كنت تلميذا في الجامعة الأميركية (في بيروت) درسنا عددا من روايات شكسبير . وكانت رواية « مكبث » أصعب تلك الروايات فكنت أقف أمام جمل كثيرة فيها موقفا لا مخرج منه . فخطر لي أن أشتري نسخة فرنسية من « مكبث » فأفهم منها تلك الجمل التي لم أفهمها في ثوبها الانكليزي . ولكن المفاجأة كانت

أن جميع الجمل التي غمض علي معناها أو مرماها في النسخة الانكليزية كانت غائبة من النسخة الفرنسية .

ـ وأحيانا ينسى الناقل أنه ينقل عن لغة أجنبية لها حضارتها وعادات أهلها وطبيعة أرضها ومنحى التفكير فيها وخصائص تركيبها فيلجأ إلى خياله هو فيخرج ما ادّعى أنه منقول عن لغة أجنبية وكأنه قد كتب ابتداء بلغة الناقل نفسه .

لما نشر مصطفى لطفي المنفلوطي (ت ١٩٢٤ م) رواية « الشاعر أو سيرانو ده برجراك » (لمؤلفها أدمون روستان) بدا فيها سيرانو وهو يعاتب حبيبته روكسان وكأنه عنترة يخاطب عبلة . (ولقد كان عذر المنفلوطي أنه لم يعرف اللغة الفرنسية ولا لغة أخرى غير العربية . فكانت الروايات تسرد له سردا عاديا فيضعها هو في اللغة التي يراها مناسبة) .

ومن مثل هذا رواية « آلام الشاب فرتر » (للشاعر الألماني غوته) ، وهي تمتاز بأنها من النثر السهل (وأذكر أنها أول ما طالعته من الكتب في الألمانية لسهولة تراكيبها وفصاحة ألفاظها) . وقد نقل هذه الرواية إلى العربية أحمد حسن الزيات[1] بعنوان « آلام فرتر » بأسلوب مُتخَم بالصِناعة مُثقَل بالتعمّل (وأظن أن عذره في ذلك أنه نقلها عن الفرنسية لا عن الألمانية) .

---

(١) أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨ م) أديب مصري تلقى علومه في الأزهر وفي الجامعة المصرية ثم درس الحقوق وعرف اللغة الفرنسية . وهو صاحب مجلة الرسالة (١٩٣٢ ـ ١٩٥٢ ؟) له : تاريخ الأدب العربي (وهو كتاب مدرسي موجز) ـ في أصول الأدب (مقالات في موضوعات تتعلق بالأدب العربي خاصة) ـ دفاع عن البلاغة . وقيمة أحمد حسن الزيات في مقالاته في « الرسالة » وفي الأثر الذي تركته هذه المجلة في العالم العربي .

وفي الآثار المنقولة مشكلة واضحة :

إذا وقع خطأ في نقل كتب العلم فإن إصلاح الأخطاء فيها يكون في العادة سهلاً . أما إذا كان الخطأ في كتب التاريخ والدين والفلسفة فإن إصلاح الخطأ الذي يقع فيها مستحيل .

وأحب ، فيما يلي ، أن آتيَ بنماذجَ من النقل - مما عانَيْته أنا - تفسيراً للملاحظات التي سبقت .

١ - في رواية « هملت » لشكسبير هذه الجملة التالية :

To be or not to be, that is the question.

ونسَقَها اللغوي : الكون أو لا الكون هذا هو السؤال . وربما تصرّف بعضهم فيها فقال : « أن نكون أو أن لا نكون ، هذا هو السؤال » . حتى لقد أصبح هذا التعبير الأعرج الغامض واحداً من الشعارات التي يُنادى بها : نكون أو لا نكون » .

وليس هذا ما قصده شكسبير . أما مقصد شكسبير فلا يُفهم إلّا إذا نحن عَرَفنا الموقف الذي اقتضى « الجهر » بهذه الجملة أو بهذا القول .

كان هملت الكبير ملكاً على الدنمارك ، وكان له ابن اسمه أيضاً هملت أرسله إلى إنكلترة ليتعلم فيها العلم أو عادات الملوك . في هذه الفترة أحبتِ امرأةُ الملك هملت أخا الملك هملت ثم قتلا الملك وجلس العشيق على العرش مكان الزوج . وأحبّ أنصارُ الملك هملت أن ينتقموا من الخائنين فأرسلوا إلى هملت الصغير أن يَرْجِع إلى الدنمارك ثم حبكوا مؤامرة لذلك .

وكانت عادة أمّ هملت الصغير وعشيقها النُزهةَ في كل ليلة على سطح القصر فكانا يصعدان إليه من سُلّم معيّن . ثمّ إذا انتهت نزهتهما الليلية نزلا من سُلّمٍ آخر معين . وكان ترتيب المؤامرة أن يقف هملت الصغير عند السلّم الذي ينزل منه العاشقان بعد انتهاء النزهة ، وأن يتوزع المتآمرون الباقون في الطرف الذي يصعد منه الملك الجديد وعشيقته أم هملت (إذ كانتِ الغاية أن يكون لهملت الصغير يد في المؤامرة ليصبح له حق في استعادة عرش أبيه) . ولكن في الليلة التي عُيِّنَتْ لتنفيذ المؤامرة غيّر العاشقان خُطّة سيرهما فصَعِدا من السُلّم الذي كانا ينزلان منه ، حيث يقف هملت الصغير .

أصبح هملت الصغير الآن في موقف شديد الحَرَج : لا يستطيع أن يستنجد برفاقه المتآمرين ولا كان هو قادراً على مقاومة الملك الجديد والملكة إذا هما رأياه في موقفه هناك . . .

حينئذ صرخ هملت الصغير قائلا :

To be or not to be, that is the question.

« القضية قضية حياة أو موت » .

ولا وجه للجملة الشوهاء : أكون أو لا أكون ، هذا هو السؤال .

٢ - في عام ١٩٣٨ نقل فيليكس فارس[1] كتاباً للفيلسوف الألماني نيتشه وأرسل نسخة « للنقد والتقريظ » في مجلة

---

(١) فيلكس فارس (١٨٨٢ هـ - ١٩٣٩) أديب وخطيب لبناني عاش في مصر ، أكثر آثاره نقول وقصص ، له رسالة المنبر إلى الشرق العربي (محاضرات) - اعترافات فتى العصر (منقولة عن الفريد دي موسيه) - هكذا تكلم زرادشت .

الأمالي[1] . قرأتُ الكتاب وعارضته بالأصل فوجدت عدداً من الأخطاء أولا في عنوان الكتاب . عنوان الكتاب في الألمانية :

Also Sprach Zaratustra.

فجعل فيليكس فارس العنوان بالعربية : « هكذا تكلم زرادشت » . وبما أن الأخطاء كانت كثيرة ، فقد كتبت النقد ثم بعثت به إلى فيليكس فارس وقلت له أن يرى رأيه في الأخطاء المذكورة . وله أن يختار بعد ذلك نشر هذا « النقد » كما هو أو أن يطلب إغفال نشره .

وكان فيليكس فارساً نبيلاً فكتب إلي يقول : لقد عرض الأمر على صديق له فرنسي يعرف اللغة الألمانية ، فتبين أن الأخطاء في النسخة العربية قد أتت من الترجمة الإفرنسية . ونشرت النقد تاما[2] .

أما العنوان فيجب أن يكون : « كذلك قال زرادشت » (لا : هكذا تكلم زرادشت) . ومن الأخطاء أن فيليكس فارس استعاض عن الأسلوب السهل في كتاب نيتشه بأسلوب منمق (وقيمة نيتشه إنما هي في تفكيره البعيد في التعبير السهل ، لا في التعبير الفخم عن الأفكار الغامضة) . وثالثةٌ أن نيتشه يعارض[3] شخصية المسيح

(١) مجلة (١٩٣٨ - ١٩٤١ ، بيروت) كانت تبحث في الثقافة . أصدرتها بالتعاون مع نفر من الزملاء .

(٢) الأمالي ، السنة الأولى ، العدد ٢٣ (٣ / ٢ / ١٩٣٩ م) ص ٢٩ . راجع أيضا نقدا لهذا الكتاب لخليل هنداوي (ت ١٩٧٨ م ؟) ، في الأمالي ، السنة الأولى ، العدد ٤٥ (٧ /٧/ ٣٩) ص ٦ .

(٣) عارض الرجل الجبل : سار معه ، جعل الشيء موازيا لشيء آخر (أما المعارضة بمعنى المناقضة فتعبير سياسي متأخر) .

في الإنجيل بشخصية زرادشت إلّا في واحدة هي أن زرادشت لا يعطف على الضعاف (بخلاف المسيح) . وهذه الخاصة مفقودة في النسخة العربية (لأنه يعز على فيليكس فارس أن يقرّ بصواب رأي نيتشه في رفض العطف على الضعاف ، وهو أساس من أسس الدعوة النصرانية في الإنجيل - ولعل هذه الخاصة كانت مفقودة في النسخة الفرنسية) . ثم رابعةٌ هي أن اعتقاد نيتشه في سواد الشعب كاعتقاد المتنبي : « وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم » . يرى نيتشه قوما بلغ من جهلهم إلى أن يظنوا أنهم أسعد الناس لأنهم لم يعرفوا حالا خيراً من حالهم فتراه يعير هؤلاء بقوله إنهم في غبطة تستدر الرحمة . والنسخة العربية فيها « غرور يستحق الإشفاق » (ص ٦) .

* * *

ونقل كتب العلم على العلماء هين لأن العالم ينقل كتبا يعرف موضوعاتها ومصطلحاتها ولا يتكلف في النقل : إنه يريد نقل المعاني في أبسط صورها . أما نقل الأدب فإنه صعب ، لأن الأدب الجيد يقوم على متانة التعبير وعلى الصور البلاغية من تشابيه واستعارات وكنايات ، وهذه تختلف في اللغات المختلفة اختلافا كبيرا .

إن القمر عندنا أبيض جميل قَرِح ، وفي الإنكليزية أصفرُ شاحبٌ . ثم هو مؤنث في الإنكليزية والفرنسية ومذكر في العربية والألمانية . والشمس بعكس ذلك مذكرة في الإنكليزية والفرنسية ومؤنثة في العربية والألمانية . فإجراء التشابيه والاستعارات في

الشمس والقمر لا يمكن أن يكون واحدا في هذه اللغات . والحمار والكلب من صفات المدح في اليونانية والإنكليزية . والذم في الإنكليزية إنما هو في التشبيه بالكلبة وبالجحش (ولد الحمار : الحمار الصغير) . ونحن نتشاءم بالبومة . والألمان يعدون البومة من علامات الفأل فيضع أحدهم عند بابه صورة بومة كما يضع قوم من الناس عندنا حدوة حصان فوق أبوابهم .

فإذا قام أحد بنقل نصوص من الأدب من لغة إلى لغة فعليه أن يتفطن لكل ذلك وإلّا فَقَدَ عملُه التأثيرَ المطلوبَ من القارىء .

وأكثر ما يتبدّى هذا في أمثال الأمم :

* هم يقولون مثلا : العامل المخطىء يلقي اللوم على أدواته . ـ وشاعرنا يقول « إذا أساء صنيعاً عاتبَ القدرا » .

* وهم يقولون : العامل في كل الصناعات لا يتقن صناعة . ونحن نقول : « كثير الكارات قليل البارات » .

* هم يقولون : الشجرة تعرف من أثمارها ، ونحن نقول : « يقرأ الكتاب من عنوانه » .

٣ ـ وليس كل الشعر يُعير نفسَه للنقل . ذلك لأن لكل لغة عبقريةً وموسيقى . فنقل الكلمات أحياناً لا يؤدي إلى نقل المعاني ولا إلى نقل الأثر النفسي من القائل إلى السامع .

في الشاهنامه للفردوسي شاعر الفرس الأكبرِ بيتٌ هو :

زهر كونه أزمرغ وأز چارپاي   خرد كرد ويك يك بياور بجاي

وترجمته الحرفية : من كل نوع من الطيور ومن ذوات الأربع صَنَع أطعمة وكان يجلبها واحدا واحدا إلى الخِوان .

وهذا البيت الفارسي لا يستقيم في بيت عربي واحد ، بل نحتاج إلى بيت ونصف بيت ، معَ شيء من التصرّف أيضا .

من كل طير وذوات الأربع
طها طعاماً وغدا يأتي به
إلى الخِوان واحداً وواحدا

ولكن هذا الكلام منظوم على بحر الرجز ،وليس شعرا في اللغة العربية . إن هذا البيت من الشعر في اللغة الفارسية لا يُعير نفسَه للنقل إلى اللغة العربية ، ولكن لعله يعير نفسه للنقل إلى لغة غيرِ عربية .

ومثل ذلك قول شكسبير :

When icicles hang by the wall
And Dick the shepherd blows his nail,
And Tom bears logs into the hall,
And milk comes frozen home in pail;

حينما تتدلى المقرنصات بجانب الجدار
و« دِك » الراعي ينفخ ظفره
و« توم » يحمل الخشب إلى القاعة
ويصل اللبن الحليب جامدا في عُلَبه . . .

فإننا إذا سمعنا هذا الكلام ظَنَنّاهُ رُقْيَة من السحر لا أشطراً من

الشعر ولا نكاد نعلم منه أن شكسبير يريد أن يصف شدة البرد في بعض أيام الشتاء .

وكذلك إذا سمعنا ألفرد دي موسيه يقول (في الفرنسية)

Après avoir souffert, il faut souffrir encore
Il faut aimer sans cesse après avoir aimé.

وبعد أن تألمتَ يجب أن تتألم أيضا ،
يجب أن تحب بلا انقطاع بعد أن تكون قد أحببت

أو يقول :

Le mal dont j'ai souffert s'est enfui comme un rêve.
Je n'en puis comparer de lointain souvenir
Qu'à ces brouillards légers que l'aurore soulève
Et qu'avec la rosée on voit s'envanouir.

إن الشر[١] الذي تألمت منه قد هرب كأنه حلم .

ولا أستطيع أن أشبه الذكرى البعيدة
إلّا بذلك الضباب الخفيف الذي يرفعه الفجر
وإلّا بالندى (حينما) يُرى وهو يتلاشى .

فإننا ندرك أن الشطرين الأولين يصعب نظمهما شعراً عربياً لخلائهما من صورة شعرية ثم لاقتصارهما على موسيقى لفظية اتفق

---

(١) إن كلمة mal تعني في أكثر الأحيان : المرض والأذى أو الألم ، ولا أعتقد أن الشاعر قد قصد هنا بهذه الكلمة معنى الشر ، بدليل ما ورد في بقية القصيدة وعنوانها : ليلة تشرين .

هنا أنها من طبيعة اللغة الفرنسية وليست في طبيعة اللغة العربية .

أما الأشطر الأربعة التالية فإنها تعير نفسها للشعر العربي لأن في كل شطر منها استعارةً نستطيع أن نُخرج منها صورة شعرية في اللغة العربية (وفي غير اللغة العربية أيضاً) إذا اجتمعت فينا آلة النظم .

وقد قال أبو العلاء المعري (قبل ألفريد دي موسيه) بنحو ألف عام :

هربَ النومُ عن عيـوني فيها هَرَبَ الأمنِ عن فؤاد الجبان.

إن الكلمات ، بلا ريب ، مختلفة . ولكن الصورة الشعرية والأثر النفسي هنا يشبهان ذينك هناك .

وكذلك في أشعار الأمم كلها أبيات لا تعير نفسها للنظم الجميل في لغات أخرى بعامل الموسيقى اللفظية التي تتألف من كلمات كل لغة . أما إذا ضَمَّتِ الأشعارُ صُوَراً بلاغية واضحة فإنها حينئذ تدخل في الوزن في كل لغة من تلقاء نفسها وتتبدّى جميلة في كل لغة كما تبدو الفتاة الجميلة جميلة في كل ثوب . من هذا النوع الأخير مطلع قصيدة للشاعر الألماني فون أرنت :

Der Gott der Eisen wachsen liess
Der wollte keine Knechte.

اتفق يوما أن مررت به فتصور في ذهني سريعا :

والذي أنبتَ الحديدَ من الأر ض أبى أن يكونَ في الأرض عبدُ.

ثم اتفق أن قرأتُ في « لزوميات المَعَرّيّ » بيتًا (لم أكنْ قد قرأته من قبل) :

والله إذ خلق المعـادنَ عالمٌ   إن الحِدادَ البيض منها تُجعَلُ .

هنا أيضا تجد الصورةَ الشعرية التي تحمل منحى التفكير في الأبياتِ الثلاثةِ واحدةً ولكنّ الكلماتِ تختلف في الأبيات الثلاثة قليلًا أو كثيرا . إن الشعر ليس في اللفظ وحدَه (كما يقول ابن خلدون) ولا هو في المعنى وحده (كما يقول ابن رشيق) ، ولكنه في الصورة البلاغية (الشعرية) كما يقول ضياء الدين بنُ الأثير .

والشعر الجيد هو الذي يتعاون فيه اللفظ والمعنى على إبراز الصورة البلاغية بروزاً واضحا . وعند نقل مثل هذا الشعر من لغة إلى لغة يجوز للشاعر الناقل أن يضع معنىً جزئياً مكان معنىً جزئيٍّ ، ولفظةً معينة مكان لفظةٍ معينة ، ولكن الصورة المقصودة يجب أن تبقى واحدة معَ الهِزة الشعرية التي يجيء بها الشعر الجيد .

للشاعرة الإنكليزية أنّا لائيتيشيا باربولد (١٧٤٣ ـ ١٨٢٥ م) أبيات هي :

Life! I know not what thou art,

But know that thou and I must part;

And when, or how, or where we met

I own to me's a secret yet.

Life! we've been long together,

Through pleasant and through cloudy weather;

'Tis hard to part when friends are dear-

Perhaps 'twill cost a sigh a tear;

- Then steal away, give little warning,

Choose thine own time;

Say not good-night- but in some brithiter clime

Bid me good- morning.

نقلتها إلى العربية فجاءت كما يلي ، ولكن بتصرف بدّل عدداً من كلماتها ، إذ عَدَلْتُ في تلك الكلمات عن مؤدّاها الاجتماعي في اللغة الانكليزية إلى مؤدّاها الاجتماعي في اللغة العربية . من ذلك مثلا مطلع هذه الأبيات فقد قلت فيه : « يا نفس » في مكان « يا حياة » ، لأن العرب لا ينادون الحياة في الالتفات والتجريد (مخاطبة الإنسان لذاته أو لشخص مجرد من ذاته) ، بل يخاطبون النفس . لقد قلت :

إيه يا نفسُ ، لست أعلم شيّا
عنك إلّا بأننا لافتراق
أين كنّا ؟ وأين كان التلاقي ؟
ذاك سرّ ما زال ، بعدُ ، خَفِيّا
(ودهورٌ إثْرَ الدهور تَوَالى)

* * *

نحن كنّا معَ الصِبا أترابا
في نعيم من الحياة وضيقِ
قد يَضيم الصديقَ فَقْدُ الصديق
يُذْرَفُ الدمعُ لَوْعَة واحتسابا
حينما تُزمِع النفوسُ ارتحالا

* * *

فانسِلي خِفيةً بلا إنذارِ
حينما ترغَبينَ ، يا نفسُ ، هجرا
أنتِ ، يا نفسُ ، باختيارك أدرى
لا تَبيني والليلُ في اكفهرارِ
ودّعيني إذا النهار تَعالى

وربّما جاءت الأبيات طويلة فيتصرف الناقل في اختصار معانيها ، ما دام المقصود من الشعر أن يُلقِيَ أثراً في النفس لا أن يُحصِيَ كلماتِ الأبيات :

من ذلك مثلا هذه الأبيات لشكسبير :

Come away, coma away, death,
And in sad cypress let me be laid;
Fly away, fly away breath;
I am slain by a fair cruel maid.
My shroud of white, stuck all with yew,
O prepare it!
My part of death, no one so true
Did share it
Not a flower, not a flower sweet
On my black coffin let there be strown;
Not a friend, not a friend greet
My poor corpse, where my bones shall be thrown:
A thousand thousand sighs to save,

Let me, oh, where
Sad true lover never find my grave
To weep there.

إن المقطع الأول يستحيل نقله إلى العربية في شطره الثاني وشطره الخامس وهما عمدة الصورة الشعرية في هذا المقطع فجمعت المقطع كله في بيت واحد .

أنا إن أخفتَ الحِمامُ فؤادي   وخلعت الحيــاةَ عن مِنكبيـا
لا تدع زهرة على النعش تُلقى   قد كساها الربيع زهْواً ورِيّا
لا ولا صـاحباً يُحيِّي رُفـاتي   حسْبُه ما بكى وقد كنت حيّا
ألْقِني حيثُ لا يـراني مُحِبٌّ   عاثرٌ في الهـوى فيبكي عليّا

وحينما أقولُ إنّ الشعر لا يعير نفسه للنقل فأنا أعني شيئا واضحا معينا . حينما أنقل أنا قطعة من الشعر لشكسبير تبطُل هذه القطعة في ثوبها العربي الجديد أن تكون لشكسبير إنّ المعاني وحدَها تبقى لشكسبير ، ولكن الشعر ـ اللباس اللفظي الذي يجعل من الكلام شعرا ـ يكون دائما شعرَ الناقل لا شعرَ المنقول عنه . إنّ رباعيّاتِ عُمَرَ الخيّام ، مثلًا قد نقلت إلى لغاتٍ كثيرةٍ نقـولاً مختلفة . ولهذه الرباعيات في اللغة العربية نقول لأحمد حامد الصرّاف ولأحمد الصافي النجَفي ولأحمد رامي ولوديع البستاني ولغيرهم . والفروق بين هذه النقول مختلفـة باختـلاف مقدرة أصحابها ، ولذلك فهي تمثلهم هم ولا تمثل عمرَ الخيام إلّا بما بقي فيها من المعاني الخاصة بعمر الخيام . ولو كانت تلك النقول تمثل عمر الخيام لكانت كلها تعبيراً واحدا على مستوىً واحـدٍ من

الصِحّة والدِقّة والأثَر في النفس . ومعَ أن الصراف والصافي قد نقلا رباعياتِ الخيام عن الفارسية بينما وديع البستاني قد نقلها عن الإنكليزية بعدَ أن كان فيتزجيرالد قد نقلها عن الفارسية، فإننا نجدُ هذا الفرقَ بين ترجمتي الصراف والصافي وترجمة البستاني . إن ترجمة الصافي والصراف أدق وأكثر صِلةً بالأصل ، ولكن القارىء العادي يَجِدُ ترجمةَ البستاني أهونَ وأعذبَ في القراءة . ولعل هذا القارىء العاديَّ يُحِسّ روح الخيام في عدد من الرباعيات من نقل البستاني أكثر مما يُحِسّ روح الخيام في عددٍ آخرَ من نقلَي الصراف والصافي[1] .

لنأخذ مثلا واحدا من رباعيات الخيام (والرباعية أربعة أشطر) :

لعمر الخيام رباعية نقلها أحمد الصافي النجفي نقلا حرفيا صحيحا كما يلي[2] :

أتمنّى ديوانَ شعرٍ ونِصفاً
من رغيفٍ وكوزَ صهباءَ حانِ
وجلوساً معَ الحبيبِ بقَفْرٍ
ذاك خيرٌ من مُلكِ ذي سلطانِ

ونقلها أحمد رامي فجاءتْ عنده كما يلي[3] :

(١) لأحمد حامد الصراف ترجمة لرباعيات الخيام (١٩٣١ م) ليس بين يدي نسخة منها الآن .

(٢) بلا اسم لمكان الطبع ولا لتاريخه . ويبدو أن هذه الترجمة كانت قد انتهت في سنة ١٣٤٥ للهجرة (١٩٢٩ م) . راجع ص ١٢١ .

(٣) الناشر مكتبة غريب (القاهرة) ١٩٦٩ م ، ص ٩٤ .

زجاجةُ الخمرِ ونِصفُ الرغيفْ　　وما حوى ديوانُ شعرٍ طريفْ
أحبّ لي إنْ كنتَ لي مؤنساً　　في بَلْقعٍ من كل مُلْك مُنيفْ

وقد نقلها محمد السباعي خُماسية[4] :

واخْلُ بي نحسو شراباً عُتّقا　　ثم نلهو بنشيدٍ نُمّقا
ورغيفٍ تحت ظِلٍّ أورقا　　وأشدُ بالألحانِ يرتدُّ الخلا
جنّة راقَ بها الحُسن وراعْ

أمّا وديع البستاني فجعلها سُباعيّة[5] .

ومُقامي غصنٌ ظليلٌ بقَفْرِ
ورغيفانِ معْ زجاجةِ خمرِ
كلّ زادي ؛ والأهلُ ديوانُ شعرِ
وحبيبٌ يهواه قلبي المُعنى
بشجيٍّ يُذيبني يتغنّى :
هكذا أسْكُنُ القِفَارَ نعيماً ،
وأرى هذه القصورَ خرابا

في الأصل الفارسي للرباعية المنقولة هنا (نصف ناني: نصف رغيف) ، وقد نقلها أحمد الصافي النجفي وقال أيضا « نصف رغيف » . ومثله فعل أحمد رامي . أما محمد السباعي فقال « ورغيف » . وأما بديع البستاني فقال : « ورغيفان » . وهذا كله يدل على أن اللفظة لا تصنع الشعر ولا التركيبُ النحوي يصنعه ، وإنما يصنع الشعرَ الصورةُ البلاغيةُ . فأي هؤلاء النَقَلة

(٤) المكتبة التجارية الكبرى (مصر) ، بلا تاريخ للطبع . ص ٤١ .

(٥) دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م ص ٥٣ .

الأربعةِ قد مثل الخيام ؟ أنا أرى أن كل واحد من هؤلاء قد مثل نفسه وأسلوبَ نفسِه وخيال نفسه . ولكن فضلَهم في أنهم نقلوا لنا « المعاني التي أراد الخيام أن يطرُقَها » .

غير أن هذا لا يمنع من أن يكون نفر من هؤلاء قدِ اقترب بنا من روح الخيام مرة بعد مرة تقليداً لا تمثيلاً . والدليل البات الجازم في ذلك أن الثابتَ للخيام نحو مِئَةِ رُباعيةٍ . ثم جعل نفر من الشعراء الفرس يَنْظِمون رباعيات وينسبونها إلى الخيام . وقد انجرف أحمدُ الصافي النجفي في تيار هؤلاء وطوى ترجمته على ثلاثمائة وواحدة وخمسين رباعية نسبها إلى عمر الخيام ، فكيف يمكن أن نقول إن ترجمة أحمد الصافي النجفي لرباعية منسوبة إلى عمر الخيام يمكن أن تمثل عمر الخيام ؟

إن قراءة الأدب لا تجوز إلّا في لغته الأصلية . ولا تحدُث الهِزّة في العاطفة إلّا إذا قرأ الإنسان النص الأدبي في لغته . أما النقول فتنقل إلينا المعاني المُفرَدة والاتجاه الفكري العامّ . وإذا لم يكنِ الإنسان عارفاً بلغة ، فلا عليه أن يقرأ شيئا من أدب تلك اللغة بلغته هو .

في أيام دراستي في ألمانية زرت باريس زورتين طويلتين . وفي إحدى الزورتين ضمني معَ نفر من الطلاب أمثالي مجلس . ولكنّ اثنينِ من الطلاب دخلا في جدال في أي الشاعرين أحسنُ شعراً : فكتور هيغو (شاعر فرنسة) أو غوته (شاعر ألمانية) . ثم بدا لأحدهما أن يُدخِلَني فيما كانا فيه فقال لي : « وما رأيك في ذلك ؟ » فسألته : « هل تَعرِّف الألمانية ؟ » فقال : « لا » . فقلت له حينئذ : « فيمَ تتجادلان ، إذن؟» .

الفهرس الهجائي للأعلام الأشخاص

م = مكرّر

ح = في الحاشية